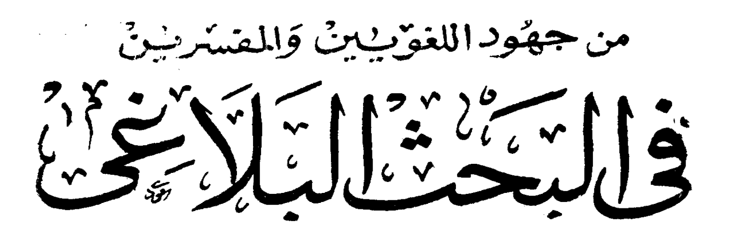
دكتور عبد الله محمد سليمان هنداوي

مدرس البلاغة والنقد

بجامعة الأزهر

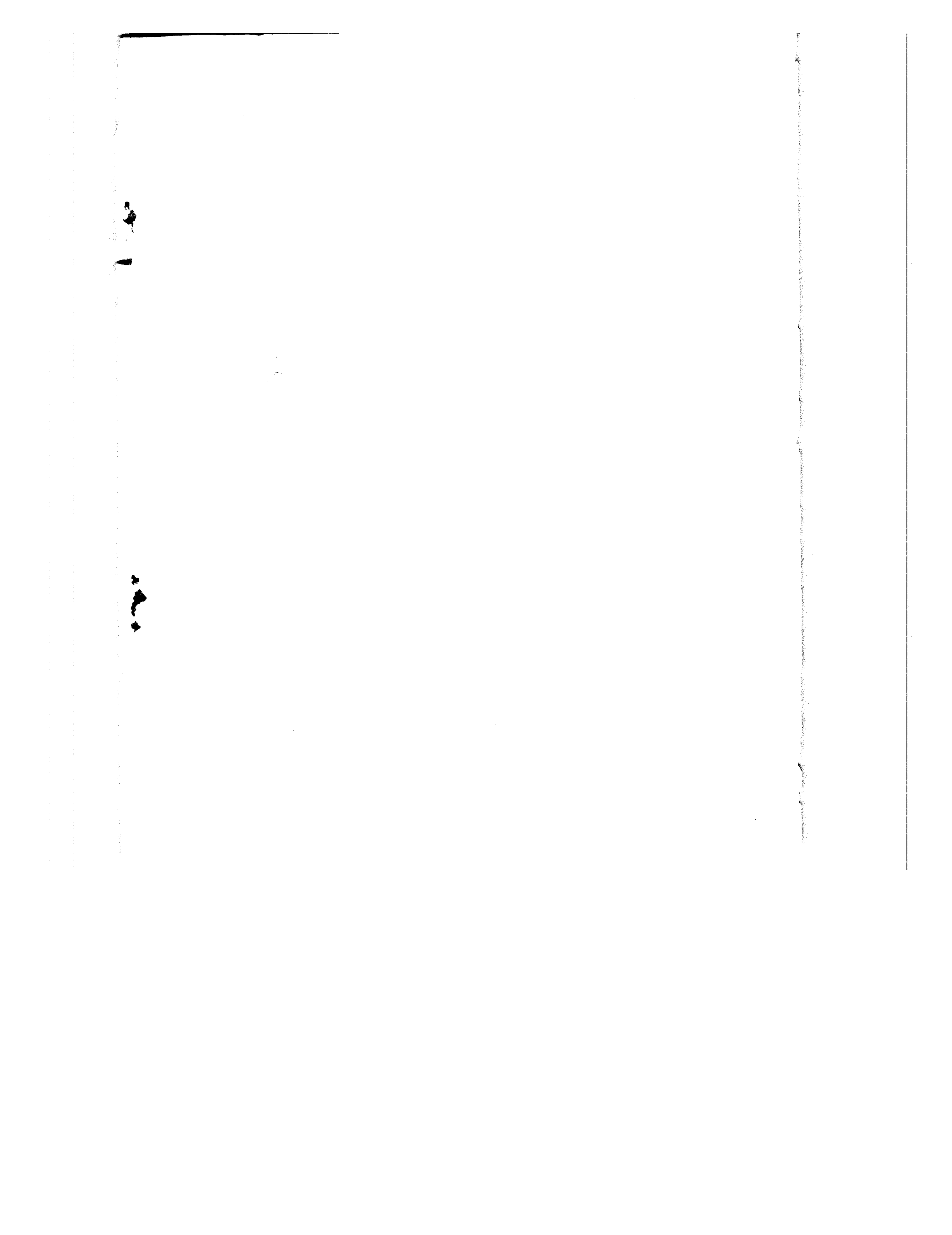


الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين أفصح العرب أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ٠

وبعد

فان المتتبع لتاريخ وتطور البلاغة العربية يرى أنها نشأت وتطورت ونمت وازدهرت ، وهذبت مسائلها ، وضبطت قواعدها ، وحددت مصطلحاتها فى مراحل متتابعة ، وقد كان للغويين جهد كبير فى هذه المراحل لأن البلاغة نشأت فى أحضان اللغة والنحو بالاشارة الى كثير من فنونها مما كان له أكبر الأثر فى نموها وازدهارها ٠

وقد أسهم المفسرون بدور بارز فى تطور البحث البلاغى وازدهاره أيضا لأن القرآن الكريم أثار انتباه العرب منذ اللحظة الأولى لنزوله ، فهز وجدانهم وحرك مشاعرهم وهم فرسان الفصاحة وأمراء البيان ، لأنهم رأوا فيه نمطا فريدا فى التعبير والبيان يفوق طاقتهم ، ومن ثم فقد اعترف المنصفون منهم بالعجز أمام بلاغته ، وعاند المكابرون منهم وجحدوا اعجازه فوصفوه بالسحر والشعر والكهانة ، « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » ولذلك بدأت الدراسات حول أسلوب القرآن الكريم وخصائص تعبيراته ، وانتهت الى أنه لا يخرج عن الأساليب العربية فى التعبير والبيان ، وممن قام بهذه الدراسة أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه « مجاز القرآن » وبرزت فيه

بعض الاشارات البلاغية تحدثنا عنها فى الفصل الأول من الباب الثانى ، وقد أثار الملحدون وأصحاب المذاهب الفاسدة بعض الشكوك والمطاعن حول أسلوب القرآن الكريم والمتشابه من الآيات فانبرى بعض العلماء من أصحاب المذاهب الكلامية للرد على هذه المطاعن وتأويل ما أشكل من آياته من هؤلاء ابن قتيبة فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » وبرزت فيه كثير من المسائل البلاغية تحدثنا عنها فى فصل مستقل ، وألف القاضى عبد الجبار كتابيه متشابه القرآن ، وتنزيه القرآن عن المطاعن للرد على المخالفين لمذهب المعتزلة وقام بتأويل الآيات التى تخالف ظاهرها أدلة أهل التوحيد والعدل وألف عبد الجبار كتابه المغنى فى أبواب التوحيد والعدل تحدث فى الجزء السادس عشر منه عن اعجاز القرآن ، وبين أن القرآن الكريم معجز بنظمه الذى يفوق قدرة البشر ، وكان حديثه عن النظم هاديا ومرشدا للامام عبد القاهر الجرجانى فى اقامة نظريته التى أحدثت دويا هائلا فى الأوساط الأدبية ، وجاء الزمخشرى بعد عبد القاهر ليطبق ما فهمه من هذه النظرية عند عبد القاهر على آيات القرآن الكريم ، وأضاف اليها من حسه وشعوره تجاه النظم القرآنى بتحليله الرائع لمفرداته وتراكيبه والابانة عن سر جمالها وقد بينت من خلال دراستى هذه مدى تأثر هؤلاء الأعلام بالسابقين وتأثيرهم فى اللاحقين .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ،

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب

د/ عبدالله محمد سليمان هنداوى

تمهيد

ويشمل :

أولا : نشأة البلاغة فى عصورها الأولى

(أ) لبلاغة فى العصر الجاهلى .

(ب) البلاغة فى صدر الاسلام .

(جـ) البلاغة فى العصر الأموى .

(د) البلاغة فى العصر العباسى الأول .

ثانيا : نبذة عن أثر الطوائف المختلفة فى البحث البلاغى

(أ) طائفة المتكلمين .

(ب) طائفة النقاد .

(جـ) طائفة الأصوليين .

(د) طائفة الكتاب .

أولا : نشأة البلاغة فى عصورها الأولى

(أ) البلاغة فى العصر الجاهلى

بلغ العرب فى الجاهلية درجة عالية فى الفصاحة والبيان ، لأنهم كانوا يتمتعون بذوق ناضج وملكات قوية واحساس مرهف ، فيدركون جمال الكلام وسر بلاغته بالفطرة والسليقة يدلنا على ذلك ما أثر عنهم من أدب غزير بلغ الغاية فى الفصاحة والبلاغة ، وكان شعرهم سجلا وافيا لما يدور فى أنفسهم من خواطر وأفكار ، وما يجيش فى صدورهم من مشاعر وأحاسيس فكان بيانهم معبرا مؤثرا ، وكانوا يفخرون بهذا البيان ، لأنه يرفع من شأنهم اذ كان عدتهم التى يعتدونها ، وأملهم الذى يسعون نحوه ومن ثم فانهم كانوا يتنافسون فى اجادة القول وتنقيحه ، وصقله وتهذيبه حتى يحظى بالقبول لدى مستمعيه ، وقد ساعد على ذلك وجود الأسواق الأدبية والتجارية كسوق عكاظ والمجنة وذى المجاز اذ كانت تقام فيها المباريات المتعددة فى فنون القول وضروبه ، وكان الشاعر الذى يحكم له بالجودة والسبق على قرنه تطير شهرته فى الآفاق ، ومن أجل ذلك كانوا يتأنون فى اخراج قصائدهم يجيلون فيها الفكر ويعاودون النظر التماسا منهم للمعنى المصيب واللفظ المتخير ولذلك يقول الجاحظ : « ومن شعرائهم من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا — أى كاملا — وزمنا طويلا يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله ، وتتبعا على نفسه فيجعل عقله زماما على رأيه ، ورأيه عيارا على شعره اشفاقا على أدبه ، وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات ، والمقلدات ، والمنقحات ، والمحكمات ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعرا مقلقا » (١) وكانوا يحكمون بعض الشعراء النابهين فى شعرهم فكان النابغة الذبيانى يقوم مقام القاضى

---

(١) البيان التبيين ٢/٩ .

الذى لا ترد حكومته فى عكاظ ، وكان يبدى بعض الملاحظات البيانية فى أثناء حكمه منها ما روى أنه فضل الأعشى على حسان بن ثابت ، وفضل الخنساء على بنات جنسها فثار حسان عليه وقال له : أنا والله أشعر منك ومنهما ، فقال النابغة حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسـيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقـاء وابنى محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : أنت شـاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسـيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، ولو قلت جفان وسـيوف لكان أحسن ، وقلت : يلمعن فى الضحى ، ولو قلت : يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، وقلت : يقطرن من نجدة دما ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسرا منقطعا »(١) يتضح من كلام النابغة مدى ادراكه لدقة نظم الكلام وما يقتضيه المقام من تخير الألفاظ الدالة على المعانى المناسبة له وقد خلط المتلمس فى شعره فوصف البعير بوصف خاص بالناقة ، فعابه طرفة بن العبد وقال ساخرا منه « استنوق الجمل » .

وكانت السمة البارزة فى شعر العرب ونثرهم الايجاز ، لأنه أميل الى طبيعتهم ، وأكثر ملاءمة لبيئتهم ، ولأنهم قوم أميون يعتمدون على الذاكرة فى حفظ أدبهم ، والكلام الموجز والموزون والمقفى والمسجوع أسهل فى الحفظ

(١) الأغانى (ط دار الكتب) ٩/٣٤٠ .

وأثبت في الذاكرة من غيره ، «قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشى : لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال : ان كلامى لو كنت لا آمل فيه الا سماع الشاهد لقل خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر فالحفظ اليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره » (١) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الايجاز الذى يحرصون عليه هو الذى يفى بالمعنى المراد دون اخلال به ، ولذلك فانه اذا اقتضى المقام الاطناب لقصد الافهام فانهم يفضلونه على الايجاز ، فقد أثر على الخليل أنه قال : « يطول الكلام عندهم ويكثر ليفهم ويوجز ويختصر ليحفظ » (٢) .

وخلاصة القول : أن الأدب الجاهلى قد احتوى كل ألوان البلاغة التى ضبطت قواعدها ، وحددت مصطلحاتها فيما بعد وفقا للتطور التاريخى الذى مرت به ، وكان شعرهم ينبوعا فياضا استمد منه البلاغيون كثيرا من شواهدهم فى التشبيهات والاستعارات والكنايات والطباق والمقابلة والجناس والقصر والفصل والوصل ، وكثيرا من الألوان البلاغية التى استقرت عندهم مما يجعلنا نقول ان البلاغة فى هذا العصر كانت بلاغة تطبيقية

(ب) فى صدر الاسلام :

نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغت اللغة العربية أوج نهضتها على لسان المتحدثين بها من العرب ، فأثار

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٨٧ .
(٢) الصناعتين ص ٢١١ .

انتباههم وهز مشاعرهم ، وحرك وجدانهم ، وبعث فى النفوس الروعة والرهبة ونفذ الى القلوب الصلدة فبث فيها الشفقة والرحمة ، وهو من جنس كلامهم ، وعلى مألوف أساليبهم ، فكانوا عندما يستمعون اليه يخيل اليهم أنهم قادرون على أن يأتوا بمثله ، أو ينهجوا نهجه ، ويحاولون ذلك الكرة بعد الكرة فسيتبين لهم العجز ، ويبدو لهم القصور ، فلم يلبثوا الا أن يخروا أمام بلاغته وبيانه ساجدين » فروى أن اعرابيا سمع قول الله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » فخر ساجدا ، وقال : انما سجدت لفصاحته وسحر بيانه ، وسمع آخر قوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا » ففتن بأسلوبه وقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا القول ، وهذا الوليد بن المغيرة وهو من هو فى عناده وعداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتمالك نفسه أمام روعة القرآن وسمو بلاغته عندما استمع اليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الانس والجن، وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق »(١) فقد اعترف الوليد بالعجز عن مجاراته أو الاتيان بمثله لأنه فوق طاقة البشر ولكن الجحود والنكران أصم آذانهم وأغشى أبصارهم وختم على قلوبهم قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا » ولذلك فقد اضطربوا فى الحكم عليه فمن قائل انه سحر ، ومن قائل : انه شعر ، ومن قائل : انه أساطير الأولين .. الخ .

وكان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نموذجا يحتذى فى الفصاحة والبيان وجوامع الكلم ، وكان الصحابة — رضوان الله عليهم —

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٦٣/١ .

حريصين على الاستماع اليه وحفظه فى الصدور وتثبيته فى القلوب ، وتطبيقه فى واقع حياتهم « فهو لم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قد حف بالعصمة ٠٠٠ وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أقصد لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فى فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم » (١) ٠

وقد ذكر الجاحظ نماذج من كلامه صلى الله عليه وسلم مما انفرد به لما فيه من الجدة والابتكار فى البيان حتى صار مثلا سائرا مثل قوله « يا خيل الله اركبى » ، وقوله : « مات حتف أنفه » ، و « الآن حمى الوطيس » ومنه قوله : « هدنة على دخن ، وجماعة على أقذاء » وقوله : « لا يلسع المؤمن من جحر مرتين » (٢) ٠ وكان للكلمة دورها ـ لاسيما الشعر ـ فى الدفاع عن الاسلام ونصرة المسلمين ، فقد استعان الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعراء المسلمين فى الذود عن الدعوة فقال : « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ، بأيديهم أن ينصروه بألسنتهم فقال حسان : أنا لها يارسول الله فقال : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : يارسول الله انى أسلك من بينهم كما تسل الشعرة من العجين ، وكان يقول لحسان : « اهج قريشا وروح القدس معك » (٣) ٠

وكان صلى الله عليه وسلم يكره التقعير فى الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة واستعمال وحشى اللغة فى مخاطبة العامة فيقول : « ان أبغضكم

(١) البيان والتبيين ٢/١٧ ٠
(٢) المرجع السابق ٠
(٣) الأغانى ٤/١٣٧ ٠

الى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون » (١) ونهى عن نطق بعض الألفاظ لكراهتها فقال : « لا يقولن أحدكم خبثت نفسى ، ولكن ليقل لقست نفسى » ومنه الألفاظ التى تركت لكراهة استعمالها قولهم للابل تساق فى الصدقة : النوافج » (٢) وغير ذلك كثير ، وجملة القول : أن القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عملا على تهذيب اللغة وتنقيتها من الألفاظ الغريبة الوحشية ٠

وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفون مواطن الحسن فى الكلام ، وأثر عن بعضهم خطب غاية فى الفصاحة والبيان كأبى بكر ، وعمر ، وعثمان وعلى ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان،وأبى موسى الأشعرى ، وعبد الله بن عباس ٠٠ وغيرهم ، ومما يدل على دقة الحس وسلامة الذوق لدى الصحابة ما روى من أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا عافاك الله ، ففطن أبو بكر الى موضع الخلل فى الكلام فنبه الرجل اليه وقال له : « لقد علمتم لو كنتم تعلمون قل : لا وعافاك الله » (٣) اذ قد يتوهم المخاطب قبل ذكر الواو أن هنا دعاء عليه لا له ، فلدفع هذا التوهم جىء بالواو ٠ وهذا ماذكره البلاغيون فى مبحث الفصل والوصل ، وأطلقوا عليه كمال الانقطاع مع الايهام ، وهو من مواضع الوصل لدفع هذا الابهام ٠

وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ذا بصيرة نافذة فى نقد الشعر والثناء على الجيد منه يقول عنه ابن رشيق « كان أنقد أهل زمانه للشعر

(١) رياض الصالحين ص ٤٤١ ٠
(٢) الصاحبى لابن فارس ص ١٠٤ ، ١٠٥ ٠
(٣) البيان والتبيين ١/٢٦١ ٠

وأنفذهم فيه معرفة » (١) فقد امتدح شعر زهير ، وعلل ذلك بأنه لا يعاظل بين الكلامين ، لا يتتبع وحشى الكلام ، ولا يمدح أحدا بغير ما فيه » (٢) وأشار عمر الى ما عرف بعد باسم التقسيم وذلك عندما أنشدوه شعرا لزهير ، فلما انتهوا الى قوله :

وان الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

تعجب عمر من علمه بمقاطع الحق وتفصيله بينها ، وأخذ يردد هذا البيت من شدة اعجابه به ، ولذلك سمى زهيرا قاضى الشعراء بهذا البيت لأن الحق لا يقطعه على الحقيقة الا هذه الثلاث ، وأنشدوه قصيدة عبدة ابن الطبيب ، فلما انتهوا الى قوله :

والمرء ساع ليس يدركه والعيش شح واشفاق وتأميل

قال عمر متعجبا : « والعيش شح واشفاق وتأميل » يعجبهم من حسن ما قسم وفصل ، وقال عمر أيضا : أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجاته يستعطف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب اللئيم » (٣) وكان على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - نموذجا يحتذى فى البلاغة والبيان فنراه يعرف البلاغة بقوله : « هى ايضاح الملتبسات ، وكشف عوار الجهالات بأسهل ما يكون من العبارات » (٤) ، وله خطب بليغة منها قوله بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد ٠٠ فان الدنيا قد أدبرت ، وآذنت بوداع ، وأن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وان المضمار اليوم وغدا

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/ ٢٠ ٠

(٢) الجمهرة ص ٥٧ ٠

(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٤٠ ٠

(٤) الصناعتين ص ٥٢ ٠

السباق ، ألا وانكم فى ايام أمل من ورائه أجل .. ألا فاعملوا لله فى الرغبة كما تعملون له فى الرهبة ، ألا وانى لم أر كالجنة نائم طالبها ، ولم أر كالنار نائم هاربها ، ألا وانه من لم ينفعه الحق ضره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى جار به الضلال » (١) فقد اشتملت خطبته على ألوان من الطباق والمقابلة ، والسجع والجناس والتشبيه والتكرير .. الخ .

فالصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا أعلم الناس بما جاء فى القرآن الكريم ، وما ترمى اليه تراكيبه من دلالات ، لأنهم كانوا يشافهون النبى صلى الله عليه وسلم أفصح العرب أجمعين ويتلقون منه العلم والفقه فى أمور دينهم ، ونشأت طبقة من القراء تحفظ القرآن ، وتلم ببعض التفسير وكان صلى الله عليه وسلم يبعث بهم الى القبائل والبلدان المجاورة يعلمونهم القرآن ويفقهونهم فى أمور دينهم فقد أرسل مصعب بن عمير الى المدينة قبل الهجرة ، وأرسل معاذ بن جبل الى اليمن ليقضى فيهم بكتاب الله او بسنة رسول الله أو باجتهاده اذا لم يجد نصا فيهما .

(ج) البلاغة فى العصر الأموى :

حفظ الأمويون على فصاحة اللغة العربية وجزالتها حرصا منها على استمرار نهضتها وسموا أدبها لا سيما بعد أن اعتنق الاسلام جمع من الأجانب المولدين ، فكان لابد من الحفاظ على سلامة اللغة من كل دخيل أو ملحون ، فبعثوا أولادهم الى البوادى لينهلوا من اللغة الصافية بعيدا عن لكنة الأعاجم .

ومما ساعد على ازدهار اللغة ونمو الملاحظات البلاغية فى هذا العصر أن الخلفاء والولاة كانوا يتذوقون الأدب ويهتزون طربا للجيد منه ففتحوا

---

(١) البيان والتبيين ٢/٥٢ .

أبوابهم للشعراء والخطباء ، وأجزلوا لهم العطايا والثناء كل بمقدار اجادته، فاشتد التنافس بينهم فى تخير اللفظ وتنقيحه وتهذيبه ليعبر عن أغراضهم وليحمل معانيهم حتى يحظى أدبهم بالقبول واستمالة الأسماع اليه ، فكان لعبد الملك مجالس يتناول فيها مع جلسائه نقد الشعر والشعراء من ذلك أن ابن قيس الرقيات أنشده قصيدته البائية التى دبجتها فى مدحه فلما انتهى الى قوله :

يأتلق التـاج فوق مفـرقه
على جبـين كأنـه الـذهب

غضـب عبـد الملك وقال له

قد قلت فى مصـعب بن الزبـير
انما مصـعب شـهاب من الـلـ
ـه تجلت عن وجهـه الظلمـاء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم ، وأعطيتنى من المدح ما لا فخر فيه ، وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى كالذهب فى النضارة »(١) وهو نقد رائع يعتمد على حس مرهف وذوق مستنير حيث فضل المدح بالأوصاف النفسية المعنوية والفضائل الخلقية على الأوصاف الجسمية المحسوسة ، ونلمح من خلال نقده اشارته الى التشبيه بأركانه الأربعة ، ولعل قدامة استفاد من هذا النقد حين قرر أن المديح ينبغى أن يكون بالفضائل النفسية وهى ترجع — فى رأيه — الى أربعة أصول هى العقل والشجاعة والعدل والعفة ، ويتفرع منها فضائل كثيرة .

(١) الصناعتين ص ١١٤ .

وحدث محمد بن سلام قال : قال لى معاوية بن عمرو بن العلاء :
أى البيتين عندك أجود قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أم قول الأخطل :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما اذا قدروا

فقلت : بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرزن ·
فقال : صدقت ، وهكذا كانا فى أنفسهما عند الخاصة والعامة » ·

وقام فى هذا العصر سوق المربد فى البصرة وسوق الكناسة فى الكوفة مقام سوق عكاظ فى الجاهلية ، يفد اليهما الشعراء لينشدوا الناس خير ما دبجوه من قصائد ، وما صاغوه من نصيح الكلام ، وكان الناس يعجبون ببلاغة القول ويبدون بعض الملاحظات النقدية فروى صاحب الاغانى أنه قد اجتمع النصيب والكميت وذو الرمة ، فأنشدهما الكميت قصيدته : « هل أنت عن طلب الأيفاع منقلب » حتى اذا بلغ منها الى قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة وان تكامل فيها الأنس والشنب

عقد نصيب واحدة ، فقال له الكميت : ماذا تحصى ؟ قال : خطأك باعدت فى القول ما الأنس من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أسنانها شنب

فاستحسن نصيب بيت ذى الرمة ، لأنه يجمع فيه النظير مع النظر من الكلمات فوصف الشفتين واللثة والأسنان وهى متقاربة يجمعها موضع

واحد وهو الفم ، وهذا ما سمى عند البلاغيين فيما بعد باسم « مراعاة النظير » أما الخطابة فقد ازدهرت في هذا العصر ازدهارا منقطع النظير ، وقد ساعد على ذلك ما وجد من انقسام الناس الى أحزاب متعارضة كالخوارج والشيعة والزبيريين ، وهذه الأحزاب بدورها كانت تعارض حكم الأمويين وتناوئهم ، وتثير الناس عليهم بكل ما تملك من ألوان الاثارة بل كانت هذه الأحزاب تضم من بينها طوائف مختلفة ينافس بعضها بعضا ، وكان يقف بجانب هذه الأحزاب وتلك الطوائف خطباء مفوهين يدافعون بالخطب البليغة عن أحزابهم وعن طوائفهم ، ويحاولون اقناع الناس بالأحزاب الأخرى » (١) وقد اشتهر من خطباء بنى أمية : معاوية ، ويزيد ، وعبد الملك ، وسليمان، والوليد بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، ومن خطباء الشيعة : المختار الثقفى ، وزيد بن الحسن بن على ، وكان كما يقول الجاحظ : « لسنا جدلا يجذب الناس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه وعذوبته » (٢) ومن خطباء الزبيريين : عبد الله بن الزبير ، ومن خطباء الخوارج : قطرى بن الفجاءة ، وعمران بن حطان والضحاك بن قيس ، ومن خطباء المحافل : سحبان وائل ، وصحار العبدى وقد أعجب معاوية بخطابته ، فسأله : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الايجاز فقال له معاوية : وما الايجاز ؟ قال صحار : أن تجيب فلا تبطىء وتقول فلا تخطىء » (٣) .

وبجانب هذه الأحزاب والطوائف السياسية كانت هنا الفرق والمذاهب العقدية من أهل السنة ، والمعتزلة ، والمرجئة ، والقدرية ، وكان أتباع

(١) انظر : البلاغة تطور وتاريخ بتصرف ص ٣٣ .
(٢) البيان والتبيين ١/٥٨ .
(٣) البيان والتبيين ١/٩٦ .

هذه الفرق يتقارعون بالحجة ويتناظرون بالأدلة والبراهين ، وكانوا يعنون ببلاغة الكلام وتهذيبه فى خطب بليغة ، ومن أبرز هؤلاء الخطباء : غيلان الدمشقى ، وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، وقد تعجب الجاحظ من قدرة واصل بن عطاء البيانية وتمكنه من زمام اللغة لأنه استطاع أن ينزع الراء من خطبه للثغة كانت فى لسانه » (١) .

وسئل عمرو بن عبيد عن البلاغة فقال : « تخير اللفظ فى حسن الافهام ، فانك ان أوتيت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين وتخفيف المؤونة على المستمعين وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستحققت على الله جزيل الثواب » (٢) .

وقد قامت مناظرة مشهورة بين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد أمام الحسن البصرى فى حكم مرتكب الكبيرة ، فالخوارج يكفرونه ، بينما كان الحسن يدعوه مؤمنا فاسقا ، وكان واصل يرى أنه فى منزلة بين المنزلتين » (٣) واستطاع واصل أن يقنع عمرو بوجهة نظره لما لديه من قوة فى البيان وعمق فى الثقافة ، ودقة فى المعانى والأفكار . واشتهر الحسن البصرى وغيلان الدمشقى بالخطابة فى الوعظ ، وبلغا فيها درجة عالية فى حسن الأداء والبيان ، ولذا يقول الجاحظ « ان ادباء العصر العباسى كانوا يتحفظون كلام الحسن وغيلان حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية (٤) وكان الفضل

---

(١) انظر : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٧٨ .
(٢) البيان والتبيين ١/١١٤ .
(٣) أمالى المرتضى ١/١٦٥ ط الحلبى .
(٤) البيان والتبيين ١/٢٩٥ .

ابن عيسى الرقاش من القصاص المشهورين بإيثار السجع فى قصصهم يقول الجاحظ فيه « كان الفضل سجاعا فى قصصه ، وهو الذى يقول : « سل الأرض فقل من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك فان لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا » (١) .

وأحس الناس بقيمة الخطابة ، فأخذوا يعلمونها لأولادهم ويدربونهم عليها لما روى من أن بشر بن المعتمر مر بإبراهيم بن جبلة الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة ، فوقف بشر فظن ابراهيم أنه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه جاء فيها : « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك ، واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا ، وأحسن فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطاك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا ، وخفيفا على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه .

واياك والتوعر ، فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما .. فكن فى ثلاث منازل ، فان أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .

مكشوفا وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة أردت · والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضـع بأن يكون من معانى العامة ، وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال ·· فان أمكنك أن تبلغ من بيـان لسـانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك الى أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسـوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام » (١) ·

وتحدث بشر عن المنزلة الثانية وهى منزلة الذين يصعب عليهم نظم الكلام بوضع ألفاظه فى مواضـعها الصـحيحة ، ويجدون فى ذلك مشـقة وصعوبة وهؤلاء يجب عليهم أن يتأنوا حتى يعود اليهم نشاطهم وفراغ بالهم ولا داعى للتكلف حتى لا يعيبهـم أحد فهم ان كانت لديهم طبيعـة مواتية وقريحة صافية فسـيجدون الكلام منبثقا من مشـاعرهم ومن طبائعهم ان اكتمل استعدادهم له بأن عاودوه وقت نشاطهم ·

أما المنزلة الثالثة فهى منزلة من نضب معين القول فى أنفسهم ، فلا يمكنهم اجادة القول مهما تأنوا ومهما جهدوا أنفسهم فى طلبه فيجب على هؤلاء ان يتركوا صناعة الكلام الى صناعة أخرى تناسبهم وتتفق مع طبائعهم وبعد أن وضح هذه المنازل الثلاث تحدث عن الملاءمة بين الألفاظ والمعانى وبينهما وبين الموضوعات وبينها وبين أحوال المستمعين وأقدارهم فيقول : « وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين

---

(١) الصناعتين ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، ولبيان والتبيين ١/١٣٦ ـ ١٣٩ ·

أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»(١) ووضح بشر أيضا أن الخطيب يجب عليه أن يوائم فى ألفاظه حال السامعين فاذا خاطب أوساط الناس أو عامتهم يجب عليه أن يتحاشى فى خطابه ألفاظ المتكلمين لأنهم لا يفهمونها أما اذا خاطب أمثاله من المتكلمين فلا عيب عليه أن اورد ألفاظهم بل هى اولى من غيرها لتناسبها مع ثقافتهم وفهمهم لها ·

وهكذا نجد بشرا قد أشار فى صحيفته هذه الى مسائل هامة فى البلاغة منها : البعد عن الألفاظ الغريبة الوحشية ، لأنها تؤدى الى تعقيد المعنى واستهلاكه ، ومنها : الاشارة الى المقام وما يجب له من المقال المناسب له وما يتفق مع الحال الذى يقال فيه الكلام فلا نشك فى أن البلاغيين استفادوا منه حين وضعوا تعريف البلاغة حيث قالوا : انها « مطابقة » الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته » ومنها أيضا الاشارة الى تلاؤم الألفاظ مع المعانى حتى يستبين الغرض ويتضح القصد ·

أما الكتابة فى هذا العصر فقد بدأت تنمو وتزدهر لا سيما كتابة الرسائل السياسية ، لأن كثيرا من كتابها كانوا على درجة عالية فى الفصاحة والبيان منهم زياد، والحجاج ، وقطرى بن الفجاءة والمختار الثقفى ، وغيرهم من الكتاب المحترفين ، وكان لهم ديوان يسمى « ديوان الرسائل » ، وفى عصر هشام بن عبد الملك وجدنا على ديوانه مولى كان يحسن اليونانية وينقل عنها بعض رسائل وهو سالم الذى تخرج على يديه عبدالحميد الكاتب الفارسى الأصل ·

---

(١) البيان والتبيين ١/١٣٩ ·

والكتابة الدينية نمت هى الأخرى وازدهرت على غرار نمو الخطابة الدينية ، لأن كتابها كانوا هم أنفسهم الذين أجادوا فن الخطابة والجدل والحوار ، فأضفوا على كتاباتهم نفس الصور البيانية التى أضفوها على خطابتهم نجد ذلك واضحا فى كتابات الحسن البصرى وغيلان الدمشقى وغيرهما (١) فانتشرت فى رسائلهم أفانين من الازدواج والطباق ، والمقابلة والجناس ، والتكرار ، التشبيهات ٠٠ الخ فمما كتبه الحسن البصرى الى عمر بن عبد العزيز فى صفة الامام العادل قوله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الامام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف ، والامام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على ابله الرفيق بها الذى يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر ، والامام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته ٠٠ »(٢) ٠

ومن كتاب هذا العصر أيضا ابن المقفع المتوفى سنة ١٤٣ هـ وقد اشتهر بترجمة كتب تاريخية وأدبية وسياسية عن الفارسية ، ونقلها الى الى اللغة العربية ، فترجم كليلة ودمنة وأجزاء من منطق أرسطاليس ، واتسعت الترجمة فى العصر العباسى كما سنذكر بعد قليل ٠

(د) البلاغة فى العصر العباسى الأول :

حفل هذا العصر بنمو الثقافة فى مختلف فنون المعرفة نتيجة

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٠٥ ٠
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣٤/١ ٠

لتطور الحيــاة العقلية والحضــارية ، واغتراف العرب من معارف اليونان والفرس والهنــد ، وذلك لاتســاع الترجمة في هذا العصر لا ســيما بعد انشاء دار خاصة لها تسمى دار الحكمة .

وقد تأثر الشعراء بالحياة الجديدة التى تأثرت بحضارة الفرس فيسرت لهم كثيرا من ألوان الترف واللهو والمتع الحسية،وقد شارك الخلفاء والأمراء والحكام منذ عهد المهدى مجالس اللهو والطرب والغناء ، وجرى أغنياء القوم وأوساط الناس على منوالهم فى هذه المتع ، وكان منهم الذين وصفوا هذه المجالس وما يحدث فيها من فسق وآثام دون تحرج ، بل كانوا يصورون حياتهم الشخصية بما فيها من الأهواء والميول والطرب والخمر ... الخ « ولذلك فقد ظهر أسلوب جديد يسمى بالأسلوب المولد وهو يمتاز بالنصاعة والدقة فى اختيــار الألفاظ فقد كان بشــار ينزع فى شــعره نحو الرقة والعزوبة والسهولة فى الألفاظ والوضوح فى المعانى لا سيما فى شــعر الغزل الذى اشــتهر به ولكنه مع هذا التطور فى شــعره كان محافظا على التقــاليد الموروثة عن القــدماء فظل الشــــعر القديم حيا بالفاظه ومعانيه وأخيلته مع تطور تبعا لمقتضيات الحياة وجدة فى الأوزان والمعانى » (١) .

ومن الملاحظات البلاغية التى وجدت فى هذا العصر والتى تمثلت فى ألوان نقدية مانجده فى قول بشار : ما زلت أروى فى بيت امرىء القيس :

كأن قلوب الطــير رطبا ويابســا   لدى وكرها العناب والحشف البالى

اذ شبه شيئين بشيئين حتى صنعت :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه (٢)

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ بتصرف ص ٢٤ .
(٢) الأغانى ١٩٦/٣ .

وهو انما يريد مجرد تشبيه شيئين بشيئين اذ التشبيهان مختلفان فهذا يدلنا على أن بشارا كان يفخر بشعره ، لأنه تفرق فى التشبيه على امرىء القيس ، وكأنه يعطى اشارة لمن جاءوا بعده أن يتنبهوا للفرق بين التشبيهين فى أن الأول تشبيه شيئين بشيئين على وجه التفرق ، فهما تشبيهان جمعا فى موطن واحد ، والثانى تشبيه واحد مركب من أجزاء متلاحمة يرتبط بعضها ببعض بحيث لا يمكنك فصل أحد الأجزاء عن الأخرى .

وفى مجال السرقات الشعرية نجد بشارا يغضب على تلميذه سلم الخاسر لأنه عدا على بيته :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فينسخه ببيت أسلس منه صياغة وأخف عبارة ، وأكثر وضوحا مع الايجاز اذ قال :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

ويقال : انه حين سمعه تأوه وقال : ذهب والله بيتى ، وغاضب سلما ونحاه عن مجلسه ونفسه حتى كلمه فيه بعض اخوانه فرده (١) .

ومما تجدر الاشارة اليه أنه قد وجد فى هذا العصر مذهبان مذهب ينزع نحو الخفة والسهولة فى الألفاظ والتراكيب بحيث لا تخفى على عامة الناس ورائده أبو العتاهية ، فقد كان شعره على هذا النحو لا سيما أشعاره فى الزهد ومذهب آخر يعتمد بقوة الرصف وجزالة الألفاظ وفخامتها ليحافظوا على الشعر العربى القديم فى سماته وخصائصه وهو مذهب بشار ومسلم بل هو مذهب جمهور الشعراء فقد مضوا ينمون ما وجدوه عند القدماء من تشبيهات واستعارات وجناسات ومقابلات حتى جعل مسلم بن

---

(١) الصناعتين ص ٢٣ ، ٢٣٤ .

الوليد هذه المحسنات جزءا لا يتجزأ من جوهر شعره ، وأطلق عليها لأول مرة اسم البديع ، وخلفه أبو تمام فأوفى بهذا البديع على الغاية المرتقبة من الاكثار والتفنن .

أما الكتابة فقد نمت نموا واسعا واتسعت أغراضها ، وتعددت ألوانها ، فرأينا الكتابة العلمية والفلسفية والتاريخية بجانب الكتابة الأدبية ، وأنشأ الخلفاء الدواوين للكتاب ، وكانوا يختارون من الفصحاء البلغاء الذين يعنون بانتخاب اللفظ الجيد الواضح بعيدا عن التكلف ، والاغراب والتعقيد ويعنون كذلك باحكام معانيهم وبجدتها وطرافتها ولذلك يقول الجاحظ « ورأيت عامتهم — أى الكتاب — لا يقفون الا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى اذا صارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت الى حسان المعانى ، ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام فى رواة الكتاب أعم وعلى ألسنة حذاق الشعر أظهر » (١) .

ومن هؤلاء الكتاب ابن المقفع الذى امتد نشاطه وكتاباته فى العصر العباسى الأول وكان من كتاب الدواوين النابهين ، ذكر الجاحظ أنه سئل عن البلاغة فقال : « البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون السكوت ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الاشارة ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل ، فعامة ما يكون

---

(١) البيان والتبيين ٢٤/٤ .

من هذه الأبواب الوحى فيها والاشـارة الى المعنى والايجـاز هو البلاغة ·
فأما الخطب بين السماطين وفى اصـلاح ذات البين فالاكثار فى غير خطل ،
والاطالة فى غير املال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير
أبيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته ، نقيل له : فان
مل السامع الاطالة التى ذكرت أنهـا حق ذلك الموقف ؟ قال : اذا أعطيت
كل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضـيت من
يعرف حقوق الكلام فلا تهتم بما فاتك من رضـا الحاسـد والعدو ، فانه
لا يرضـيهما شئ ، وأما الجـاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع
الناس شئ لا تناله وقد كان يقال : رضا الناس شئ لا ينال » (١) ·

فقد أشار ابن المقفع الى بعض المسائل البلاغية الهامة والتى كانت
شعاعا اهتدى بها من جاء بعده منها :

١ – أن البلاغة عنده اتسع ميدانها فشـملت الصمت والاسـتماع
والاشارة بجانب الكلام الذى جعله أنواعا متعددة وهى الاحتجاج أو المناظرة
والجدل ، والجواب فى الحديث والشعر والسجع والخطب والرسائل ··»

٢ – يرى أن الايجاز فى هذه الأنواع هو سمة البلاغة ، واستثنى من
ذلك بعض المقامات التى يصلح فيها الاطناب المشروط بعدم الاملال وهى
مقام الخطيب فى المحافل ، وفى اصلاح ذات البين ·

٣ – أشار ابن المقفع الى ما عرف بعد فى البديع باسم براعة الاستهلال
بقوله : « وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك » ·

٤ – أشار أيضا الى ما عرف بعد باسم « رد الأعجاز على الصدور فى

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٥ ·

الشعر بقوله : « كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته » .

٥ - أشار ابن المقفع الى أمر هام فى البلاغة وهو المقام وما يناسبه من الكلام ، وأن لكل من الايجاز أو الاطناب موقعه المناسب .

٦ - بين أن الذى يلقى اليه الكلام أما أن يكون عالما به وبخصائصه ، واما أن يكون جاهلا لا يدرى منه شيئا ، وقد لا يرضى عنك هذا ولا ذاك لا لعيب فيك وانما لكون الأول حاسدا أو عدوا ، وأما الثانى فالصلة متطوعة بينكما فلا تبال بذلك ، لأن رضا جميع الناس أمر بعيد المنال .

ومن كتاب الدواوين جعفر بن يحيى البرمكى الذى تسنم منصب الوزارة ، وقد بلغ درجة عالية فى الفصاحة والبيان حتى قال فيه ثمامة بن أشرس : « ما رأيت أحدا كان يتحبس ولا يتوقف ، ولا يتلجلج ، ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد ، ولا يلتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد اقتدارا ، ولا أقل تكلفا من جعفر بن يحيى » (١) وقد سأله ثمامة عن البيان فقال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلى عن مغزاك وتخرجه عن الشركة ولا تستعين عليه بطول الفكرة ، والذى لابد منه أن يكون سليما من التكلف بعيدا عن الصنعة بريئا من التعقيد غنيا عن التأويل »(٢) اتضح من هذا مدى اهتمام الكتاب باللفظ والمعنى ، والبعد بهما عن الاغراب والتعقيد والتكلف ، وعلى هذا النحو كان الشعراء والكتاب يكثرون من ملاحظاتهم البلاغية التى كان لها أثر كبير فى تطور البحث البلاغى .

(١) البيان والتبيين ١/١٠٥ .
(٢) المرجع السابق ١/١٠٦ .

ثانيا : نبذة عن أثر الطوائف المختلفة فى البحث البلاغى

أسهمت طوائف متعددة فى تطور البحث البلاغى كطائفة المتكلمين والنقاد ، والأصوليين واللغويين والمفسرين ، وسوف نخص بالدراسة والبحث الطائفتين الأخيرتين حتى يمكننا أن نقف على جهدهما واسهامهما فى مجال البحث البلاغى وينبغى أن نشير فى ايجاز الى دور الطوائف الأخرى قبل أن نفصل القول فى هاتين الطائفتين ٠

(أ) **أثر المتكلمين فى البلاغة** ، من غير شك كان الطائفة المتكلمين فضل عظيم وأثر بارز فى البلاغة وقد مر بنا الحديث عن صحيفة بشر بن المعتمر وأثرها فى البلاغة فقد اشارت الى أمور هامة فى بلاغة القول ، وهو من المعتزلة الذين كان لهم الفضل فى وضع الأسس لكثير من المصطلحات البلاغية ، ووجهوا عنايتهم الى القرآن الكريم ليكشفوا عن وجوه اعجازه وسر بلاغته ، فلجأوا الى النظر فى تأويل ألفاظه وتراكيبه بما لايتعارض مع اللغة والعقل ، وقد تنوعت معارفهم واتسعت ثقافاتهم باطلاعهم على ماعند الأمم الأجنبية من ثقافات ، وآراء فى البلاغة فقد نقل الجاحظ تعريفات متعددة للبلاغة عند الأمم الأجنبية فيقول : « قيل للفارسى ما البلاغة ؟ قال معرفة الفصل من الوصل ، وقيل لليونانى ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام ٠ وقيل للرومى ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة ، وقيل للهندى : ما لبلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة » (١) ٠

وكانوا فى أشد الحاجة الى تعلم أنماط اللغة وما تدل عليه ألفاظها وتراكيبها من دلالات وأسرار تعينهم على الاجادة فى فنى الخطابة والمناظرة

---

(١) البيان والتبيين ١/٨٨ ٠

اللتين تساعدهم فى الدعوة الى مذهبهم واجتذاب أنصـــار ومؤيدين له ، وتساعدهم على قهر خصومهم والظهور عليهم ، ومن هؤلاء النظام أستاذ الجاحظ الذى كان لايبارى فى المناظرة ، وفى ايراد الحجج وتفريع المعانى وتوليدها « وهو من أوائل من تحدثوا عن بعض موضوعات البلاغة وحددوا معانيها مثل الخبر والطلب ، وقاسوها بمقياس الصدق والكذب » (١) ومنهم الجاحظ الذى آلف كتابا فى نظم القرآن ، ولكنه مفقود ، وله كتابا البيان والتبيين والحيوان الذى جمع فيهما كثيرا من آراء المتكلمين وخاصة المعتزلة فى البلاغة ، فأشار الى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وقد استمدها من بشر بن المعتمر الذى أورد صـــحيفته بالكامل فى البيان والتبيين ، والتى منها قوله : « ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقـــدار المســـتمعين الى قوله : فان كان الخطيب متكلما تجنب ألفـاظ المتكلمين » وذلك اذا كان المستمعون ليسوا من أصحاب علم الـكلام بينما تحسن هذه الاصطلاحات حين يخـاطبون أمثالهم من المتـكلمين ، زاد عليه الجاحظ أنه يقبح بهم أن يوردوا كلام الأعراب أو كلام العـــامة فى ثنايا كلامهم » (٢) وتحدث عن الايجاز والاطناب وان لكل مقامه المناســـب له ، وعن جزالة الألفاظ وفخامتها ورقتها وعذوبتها ، وعن دقة النظم فى تلاقى الكلمات مع بعضها فى وفاق وتآخ وبين ما يتنافر منها فى ألفاظها وحروفها ، وتحدث عن العيوب المخلة بنطق بعض الحروف ، وتحدث عن اللفظ والمعنى وبين أن المزية انما تظهر فى حسن صياغة الألفاظ ودقة التاليف ، فالألفاظ بحسن سبكها وجمال صياغتها مقدمة على المعانى عنده لأنها معروفة لدى كل الأجناس

---

(١) المطول على التلخيص ص ٣٩ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ بتصرف ٤٧ .

ولدى كل الطبقات . وانما التفاوت يكون فى الصياغة وجودة السبك وبراعة التصوير ، ولذا فانه تحدث عما يؤدى الى جمال اللفظ وقوة تأثيره فى النفوس ، من السجع والازدواج وحسن التقسيم ، وتحدث عن أسلوب الحكيم وسماه اللغز فى الجواب ، وتحدث عن بعض الوان الاطناب كالتكرار وما سمى عند البلاغيين باسم « الاحتراس » وسماه اصابة المقدار ، وتحدث عن الهزل الذى يراد به الجد ، والاعتراض ، وأشار الى الكناية والتعريض والاستعارة فيعلق على قول الشاعر ·

وطفقت سحابة تغشـــاها   تبكى على عراصـــها عيناها

بقوله : « طفقت يعنى ظلت ، تبكى على عراصـــها عيناها ، عيناها ها هنا للسحاب وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة،وتسمية الشيء باسم غيره اذا اقام مقامه » (١) وتحدث عن التشـــبيه ، والايجاز بالحذف ، والمذهب الكلامى فى البديع الذى أشار اليه ابن المعتز فى حديثه عن ألوان البديع الخمسة التى بنى عليها كتابه . ومن أعلام المعتزلة أيضا الرمانى الذى ألف رسالة فى « النكت فى اعجاز القرآن » بين فيها أن وجوه الاعجاز تظهر فى سبع جهات هى : ترك المعارضة مع توفر الدواعى ، وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة والبلاغة ، والأخبار الصـــادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة ، ووجه اهتمامه من هذه الجهات السبع الى البلاغة فحصرها فى عشرة أقســام هى : الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة وحسن البيان ·

---

(١) البيان والتبيين ١/١٥٢ ·

ومن أعلام المعتزلة أيضا الجبائى والقاضى عبد الجبار وقد أسهم عبد الجبار بنصيب موفور فى البحث البلاغى فله كتاب « متشابه القرآن » « وتنزيه القرآن عن المطاعن » وكتاب « المغنى فى أبواب التوحيد والعدل » وقد اشتملت هذه الكتب الثلاثة على مسائل بلاغية هامة ، وسنخصها بحديث مستقل — ان شاء الله — فى باب أثر المفسرين فى البحث البلاغى كل هؤلاء وغيرهم من أعلام المعتزلة كان لهم دور بارز فى تطور البلاغة ، ونموها ، وازدهارها على يد الزمخشرى فى تفسيره الذى أحدث دويا هائلا فى جميع بقاع العالم الاسلامى ، وأحدث نشاطا فكريا واسعا كما سنذكر بعد ...

(ب) : أثر النقاد فى البحث البلاغى :

كان للنقد أثر كبير فى تطور البحث البلاغى ، لأن البلاغة وثيقة الصلة بالنقد ، اذ يقوم النقد فى معظم موضوعاته على أسس بلاغية « وظل النقد مختلطا بالبلاغة ردحا طويلا من الزمن يسيران جنبا الى جنب ، وليس ثمة شىء يفصل أحدهما عن الآخر حتى أوشك القرن الرابع الهجرى أن ينتهى وبدأ الفساد يدب فى ذوق بعض المشتغلين بفنون الأدب والبلاغة فحكموا أذواقهم فى فصل البلاغة عن النقد ، وكانت نقطة البدء على يد أبى هلال العسكرى » (١) ولم يكن الفصل عند أبى هلال كليا لأنه ذكر فى أثناء حديثه عن البلاغة مسائل نقدية ، بل ان كتابى الدلائل وأسرار البلاغة لعبد القاهر اللذين وضع فيهما الأسس البلاغية لم تستقل البلاغة فيهما عن النقد استقلالا تاما اذ وجد فيهما بعض المسائل النقدية المتصلة بالبلاغة بل ان طابع منهجهما لم يخل من خصائص النقد وسماته ومن أهم الكتب

---

(١) أثر النحاة فى البحث البلاغى ص ٣٧ .

النقدية التى قامت على أسس بلاغية : (عيار الشعر لابن طباطبا) تحدث فيه عن المعانى والألفاظ ، وأخذ فكرة ابن قتيبة فى اللفظ والمعنى ، فقسم الشعر الى ما حسن لفظه وجاد معناه،وما حسن لفظه دون معناه،أو معناهدون لفظه ، وما قصر لفظه ومعناه ، وتحدث عن طريقة العرب فى التشبيه مبينا أنه يعبر عما يدور فى أنفسهم من أفكار ، وينقل مشاعرهم تجاه ما تدركه أبصارهم ، ويترجم عما فى بيئتهم من عادات وأخلاق ، وتحدث عن وجوه التشبيه وأقسامه ، منه تشبيه الشىء بالشىء صورة وهيئة ، وتشبيه الشىء بالشىء لونا وصورة ، وتشبيه الشىء بالشىء صورة ولونا وحركة وهيئة ، وتشبيه الشىء بالشىء حركة وهيئة ، وتشبيه الشىء بالشىء معنى لا صورة ٠٠ الخ ، وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع آخره ، وهو الشعر المحكم النسج ، وذكر أمثلة له ، وهو يشير الى ترابط الأبيات فى وحدة عضوية تتعاون فى ابراز فكرة بعينها ، وهو ما عرف فى العصر الحديث باسم الوحدة العضوية فى القصيدة ٠

الموازنة بين أبى تمام والبحترى – لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى لقد احتدمت الخصومة حول مذهب ابى تمام فى الشعر ، واحتدمت المناقشات حوله فى مجالس الأدب وبين النقاد ، لأنه أراد البديع فأكثر منه وأفرط فيه فأداه الى المحال والتكلف الذى أوقعه فى أخطاء كثيرة فى الاستعارة والجناس والطباق والتأليف ، وسائر ألوان البديع ، وقد تتبع الآمدى أخطاءه هذه فى الموازنة ويفضل البحترى عليه لأنه من الشعراء المطبوعين اذ يتميز شعره بحسن الديباجة والسهولة والحلاوة والعذوبة ، لأنه يسير على النهج العربى والعمود الشعرى عند الجاهليين والاسلاميين والأمويين ، ويرى الآمدى أن الافراط فى البديع هو الذى أداه الى التكلف

وسوء النظم والتعقيد وكثرة الغريب فى شعره ، ويرى أن البحترى وقع فى الأخطاء التى وقع فيها أبو تمام ولكنها قليلة بالاضافة الى اخطائه ، ولذلك فانه أحصى أخطاء البحترى القليلة أيضا وقد ألف عبد الله ابن المعتز كتابه البديع وبين الهدف منه فقال : قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن واللغة ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه ، ثم ان حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه ، وأكثر منه فأحسن فى بعض ذلك وأساء فى بعض ، وتلك عقبى الافراط ، وثمرة الاسراف ، وانما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير ان يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم اذا أتى نادرا » (١) .

الوساطة بين المتنبى وخصومه — لعلى بن عبد العزيز الجرجانى .

الغرض من تاليف هذا الكتاب كما يظهر من اسمه هو أن يتوسط الجرجانى بين المتنى وخصومه فيكون حكما عدلا يعرض ما فى شعره من محاسن ومن مساوىء ، وقد عرض فى أثناء نقده لشعر المتنبى بعض المسائل البلاغية التى شاعت فى هذا العصر وعرفت باسم البديع فتحدث عن الفرق بين التشبيه والاستعارة لأنه رأى أن الناس يخلطون بينهما وبين

---

(١) البديع لابن المعتز ص ١ ، ٢ .

التشبيه البليغ فيقول : « وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبي نواس :

والحب ظهـــر أنت راكبه فاذا صرفت عنانه انصرفـــا

ولست أرى هذا وما يشبهه أستعارة ، وانما المعنى أن الحب مثـــل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت اذا ملكت عنانه فهو اما ضرب مثل أو تشـــبيه شيء بشيء »(١) وقد تأثر به عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة اذ يقول : « اعلم أن الوجه الذي يقتضيه القياس ، وعليه يدل كلام القاضي في الوساطة تطلق الاستعارة على نحو قولنا « زيد أسد » و « هند بدر » ولكن نقول هو تشبيه .. » .

وتحدث الجرجاني عن التجنيس وبين اقسامه ومثل لكل قســـم ، وتحدث عن المطابقة ، وصحة التقسيم وبراعة الاستهلال ، وتحدث حديثا مستفيضا عن السرقات استقصى فيه سرقات المتنبي وقسمها أقساما دقيقه وميز بينها بالمصطلحات التي اقترحها ، وتحدث عن الغلو والمبـــالغة وبين مذاهب الناس فيه ، وذكر رأيه وهو أنه يرتضي المبالغة والغلـــو ما دامت في حدود المعقول فان خرجت عنه الى حد الوهم كانت غير مقبولة ، وتحدث عن التشبيه والتمثيل ووقف عند التشـــبيه الحسي والعقلي ، واســـتحسن الثاني لما فيه من خفاء وبعد في التشـــبيه والتمثيل ، وقد اســـتفاد منه عبد القاهر أيضا في التشبيه التمثيلي .

(جـ) أثر الأصـــوليين في البلاغة ــ وهم أصـــحاب المســـائل الفقهية

---

(١) الوساطة ص ٤١ ط الحلبي .

القائمة على الأدلة المستنبطة من الكتاب والسنة ، ولابد لهم من معرفة بعض المسائل البلاغية كالخبر والانشاء ، وكون الأمر للوجوب أو الندب أو الاباحة وكون النهى للتحريم أو للتنزيه ، والعموم والخصوص ، والاجمال والتفصيل وكلها من موضوعات علم المعانى ، وتعرضوا ايضا لكثير من مباحث البيان كالحقيقة والمجاز بجميع أنواعه ، فالمجاز المرسل عندهم اذا كان له علاقتان أو أكثر واحتمل التجوز عن كل فمقتضى كلام الأصوليين أن أقوى العلاقات اعتبار الجزئية بأن يطلق البعض ويراد الكل ٠٠ »(١) ٠

وقد أشار السبكى صاحب عروس الأفراح الى كثير من آرائهم فى البلاغة وهناك طوائف أخرى لها أثرها فى البلاغة أيضا كطائفة الكتاب الذين قال الجاحظ فيهم : « أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا »(٢) وقد سبق أن بينا تعريف ابن المقفع للبلاغة ـ وهو من الكتاب والذى اشار فيه الى بعض المسائل البلاغية الهامة ، وقدامة بن جعفر وهو من كتاب الديوان لعباسى ببغداد ، وله كتاب نقد الشعر الذى تحدث فيه عن كثير من الألوان البلاغية مثل التشبيه ، وصحة التقسيم والمقابلة والطباق ، وصحة التفسير والتتميم ، والاحتراس ، والمبالغة والتكافؤ ، والالتفات ، والمساواة والايجاز ، والارداف ، وهو الكناية ٠ والتعريض والتمثيل ، وتحدث عن اللفظ والمعنىوذكر طائفة منالشعر المعيب، والمعاظلة من هذه العيوب ، ويطلقها على فاحش الاستعارة ، ونقده أبو هلال العسكرى فى ذلك ٠

(١) عروس الأفراح ٤/٤٥ ٠
(٢) البيان والتبيين ١/١٣٧ ٠

ومن الكتاب الذين أسهموا فى البحث البلاغى ابن وهب الكاتب فى كتابه نقد النثر ، والذى عرف باسم « البرهان فى وجوه البيان » فالبيان عنده على أربعة أوجه : بيان الأشياء بذواتها « بيان الاعتبار » . البيان الذى يحصل فى القلب عن اعمال الفكرة واللب ، « بيان الاعتقاد » . والبيان بالنطق « بيان العبارة » ، والبيان بالكتابة ، وقد استفاد من الجاحظ فى بيان هذه الأوجه وقد تناول كثيرا من المسائل البلاغية منها : تقسيم الكلام الى خبر وطلب ، والتشبيه واللحن ويقصد به : التعريض والكناية ، والرمز والوحى ، الاستعارة ، والأمثال ، واللغز ، والحذف ، والصرف وهو الالتفات والمبالغة ، وهى نوعان فى اللفظ وفى المعنى والقطع والعطف ، وهو ما عرف عند البلاغيين باسم الاعتراض ، والتقديم والتأخير ، وتأليف العبارة ، وعرف البلاغة بقوله : وحدها عندنا ، أنه القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام وحسن النظام وفصاحة اللسان » (١) وتحدث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال وهو متأثر فى ذلك بصحيفة بشر بن المعتمر وتحدث عن السجع وجعله من أوصاف البلاغة اذا كان فى موضعه بعيدا عن التكليف ، وقد تأثر ابن وهب بمن سبقوه لا سيما الجاحظ الذى نقل عنه كثيرا فى كتابه البيان والتبيين ، وتميز هذا الكتاب بالتنظيم والتبويب .

---

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ٧٦ .

الباب الأول

من جهود اللغويين فى البحث البلاغى

جهود اللغويين فى البحث البلاغى

تناثر الفكر البلاغى عند اللغويين فى مؤلفاتهم التى تعنى بدراسة الألفاظ وخصائص التراكيب ، فتعرضوا لتنافر الألفاظ وتلاؤمها ، وأشاروا الى الألفاظ الثقيلة المستكرهة ، والقبيحة المستهجنة ، وأشاروا الى بعض المسائل البلاغية ، من خلال تحليلهم لبعض الألفاظ والتراكيب. ومما تجدر الاشارة اليه أن اللغويين لم يكونوا منفصلين عن النحاة فى القرون الأولى ، وانما كانوا يجمعون بين اللغة والنحو فى معظم الأحوال بل والأدب والنقد أيضا ، لأن التخصص الدقيق لم يكن موجودا حينئذ ومن ثم فاننا سنتناول الفكر البلاغى عند اللغويين وان كانت لهم دراسات نحوية تجعلهم فى صفوف النحويين أيضا ، ولم نتناول سيبويه بالدراسة وهو صاحب جهد كبير فى البحث البلاغى - لأن شهرته بالدراسة النحوية فاقت شهرته بالدراسة اللغوية .

وسنبدأ - بعون الله وتوفيقه - بالبلاغة عند الخليل بن أحمد .

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ٧٦ .

الفصل الأول

البلاغة عند الخليل بن أحمد والأصمعي

أولا : الخليل بن أحمد : ت ١٧٥ هـ(١)

هو الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري كان اماما في اللغة والنحو فهو أول من وضع علم اللغة بتاليفه كتاب العين ، وهو أول معجم لغوى برز في سماء العربية وقام على أساس صوتى فى ترتيبه ، وبدأه بأبعد الحروف مخرجا وهى الحروف الحلقية ، جعل العين بداية لها وهو المبتكر علم العروض لما يتميز به من حس موسيقى وادراك لجمال النغم والمقاطع الصوتية ، وقد بلغ الغاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، ومن أساتذته الذين أخذ اللغة عنهم أبو عمرو بن العلاء ، أما تلاميذه فمن اشهرهم سيبويه ، فكان الخليل يرى فيه التلميذ الذكى المتفوق على أقرانه ، ولذلك كان يقدمه على غيره ويفسح له صدره، وقد تأثر به سيبويه فى كتابه فكثيرا ما يقول : « قال الخليل » .. وسمعت الخليل .. ، وحدثنا الخليل .. وينقل عنه آراء كثيرة فى النحو واللغة ، ومن تلاميذه أيضا : النضر بن شميل ، وعلى بن نصر الجهضمى ، ومؤرج السدوسى ، وكان عفيف النفس لما روى عن النضر بن شميل انه قال : « اقام الخليل فى خص من اخصاص البصرة لا يقدر على فلس ، واصحابه يكسبون بعلمه الأموال » فقد

---

(١) انظر : معجم الأدباء ١١/٧٢، وطبقات النحويين واللغويين ص٣٤ وطبقات الشعراء بن المعتز ص ٩٥ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٢٤٤ ومراتب النحويين ص ٥٤ ، ٧٢ .

كان زاهدا منصرفا الى العلم يجمع مسائله ويرتب ابوابه وفصوله ويضـــع اسسا للقياس الصحيح فى مسائل النحو ٠

وقد أسهم الخليل من خلال بحوثه اللغوية والنحوية بالاشـــارة الى بعض المسائل البلاغية التى وجدت فى مؤلفات من نقلوا عنه مثل سيبويه فى « الكتاب » وابن المدبر فى رسالته العذراء ، وابن المعتز فى كتابه البـديع والرمانى فى رسالته عن اعجاز القرآن الكريم ضمن ثلاث رســـائل فى الاعجاز وكتب النقد مثل كتاب العمدة لابن رشيق ، وغيره من الكتب التى نقلت عنه وتعد هذه الاشارات أول خطوة يخطوها البحث البـــلاغى عند اللغويين استفاد بها من جاءوا بعد الخليل ٠

فقد ذكر الخليل أكثر من تعريف للبلاغة أشار فيها الى بعض المسائل البلاغية الهامة فيقول فى احدى تعريفاته : كل ما أدى الى قضاء الحـــاجة فهو بلاغة ، فان استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ، ولتلك الحال وفقا ، وآخر كلامك لأوله مشابها ، وموارده لمصادره موازنة فافعـــل » (١) وهذا ليس تعريفا دقيقا يضم مسائل البلاغة كلها ، ويمنع دخول غيرها فيه ، وانما يمثل انطباعات نفسية يشعر بها الخليل فى وصف الكلام البليغ (٢) فهو فى صدر كلامه يوسع مفهوم البلاغة بحيث تتعدى اللفظ الى الاشارة والكناية وغيرهما من وجوه البيان ، وقد بينا فيما ســـبق ان ابن المقفع قد اتسع ميدان البلاغة عنده أيضا بحيث تشمل الصمت والاستماع والاشارة

---

(١) الرسالة العذراء ص ٤٨ ٠

(٢) أنظر : أثر النحاة فى البحث البلاغى ص ٥٥ ٠

بجانب اللفظ ما يجعلنا نقول ان الجاحظ قد استفاد منهما أو من احدهما حين أحصى أصناف الدلالات ، وحصرها فى خمس : هى دلالة اللفظ ، والاشارة ، والخط ، والعقد ، والنصبة « الحال » ، وتبعه ابن وهب فى كتابه ، نقد النثر أو البرهان فى جوه البيان » نعقد فصلا لوجوه الأربعة وهى : بيان الأشياء بذواتها ، وبيان بالقلب عند اعمال الفكر واللب ، وبيان باللسان وهو القول ، وبيان بالكتابة ، واستفاض فى شرح هذه الوجوه ، مع ذكر الأمثلة لها من القرآن الكريم والشعر والنثر ·

ويطلب الخليل نمطا خاصا لبلاغة الألفاظ ، وهو أن تتطابق الألفاظ مع المعانى ، أو بعبارة أخرى أن تكون الألفاظ قوالب لمعانيها أى مساوية لها ويشير بقوله : « ولتلك الحال وفقا » الى أن نظم الكلام يجب أن يكون على وفق الحال التى يقال فيها الكلام فيكون بذلك قد أشار الى المقام وما يناسبه من الكلام فان لكل مقام مقالا ، ويشير بقوله : « وآخر كلامك لأوله مشابها الى دقة نظم الكلام وترابط أجزائه ، وبراعة استهلاله ، وله تعريفان آخران يقصد منهما الايجاز وهو أداء المعنى بأوجز لفظ واخصر عبارة أحدهما قوله « انها ــ أى البلاغة ــ كلمة تكشف عن البقية » (١) اى لايراد منها معناها فقط وانما تكشف وتنبىء عن معان آخر كثيرة ، وثانيهما قوله : « ما قرب طرفاه وبعد منتهاه » (٢) وهو فى معنى التعريف السابق يشير به ايضا الى الايجاز والاختصار ، ومما تجدر الاشارة اليه أن الخليل لا يريد بتعريفيه السابقين للبلاغة أن يحصرها فى الايجاز وانما يريد أن ينوه به وان ينبه الى أنه طريق من طرق القول البليغ له أثره فى القلوب ووقعه فى النفوس ، وأن له مقاما يتطلبه ويقتضيه بدليل ما ذكره ابو عمرو بن العلاء

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/٢٤٢ ·
(٢) العمدة : ١/٢٤٥ ·

على لسان الخليل عندما سئل عن الاطناب والايجاز فقال : « يطول الكلام ويكثر ليفهم ، ويوجز ويختصر ليحفظ » (١) يريد ان العرب يطيلون الكلام ويكثرونه فى مقام الافهام الذى يتطلب بســـط الكلام بالتأكيد والتكرير والتوضيح ليثبت فى الأذهان ، ويوجزونه فى مقام الأخذ عنهم فى الرواية ليكون أعون على حفظه وتثبيته فى الذاكرة ، وبهذا يكون الخليل قد أشار الى مسائل هامة فى البلاغة وهى المقام وما يناسبه من الكلام والى دقة نظم الكلام وترابط أجزائه والى براعة استهلاله والى المساواة والايجاز والأطناب وأن لكل مقامه المناسب له ٠

(وتحدث الخليل أيضا عن فصاحة الألفاظ وتنافرها فبين أن السبب فى تنافر الألفاظ يرجع الى البعد الشديد فى مخارج حروف اللفظ أو القرب الشديد فيها ، وعلل ذلك بأنه اذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر وهو اتساع الخطى واذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده الى مكانه ، وكلاهما صـــعب على اللســـان وأرجع الفصـــاحة الى التوســـط والاعتدال بين البعد الشـــديد والقرب الشـــديد فيقول : « والسهولة من ذلك فى الاعتدال » ثم قال : ولذلك وقع فى الكلام الادغام والابدال » نقل هذا الكلام الرمانى عن الخليل واتخذه مذهبا له فى تلاؤم الألفاظ وتنافرها فعقد بابا للتلاؤم وينحصر عنده فى تعديل الحروف فى التأليف ثم ذكر نقيضه وهو التنافر وذكر سببه وهو البعد الشديد أو القرب الشديد فى مخارج الحروف كما ذكر الخليل ، وقسم الكلام المؤلف الى ثلاثة أقسام : متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا ، فالمتلائم الذى فى الطبقة الوسطى : هو الجيد من أشعار العرب مثل

(١) العمدة : ١٨٦/١ ٠

خلا فيه من التنافر والمتلائم الذى يكون فى الطبقة العليا هو القرآن الكريم كله (١) .

وقد اعترض ابن سنان الخفاجى على الرمانى والخليل فى رد التنافر فى الكلام الى البعد الشديد فى مخارج الحروف ، وانما يرجع الى القرب الشديد فقط مثل كلمة « الهعخع » فان فيها تنافرا بالقرب الشديد بين مخارج حروفها ، فكلها حلقية ثم استشهد ابن سنان على أن البعد الشديد ليس سببا للتنافر بقوله تعالى « ألم » فهذه الكلمة مبنية من حروف متباعدة المخارج ، لأن الهمزة من أقصى الحلق ، والميم من الشفتين واللام متوسطة بينهما ، وكذلك « أم » و « أو » لأن الهمزة من أقصى الحلق ، والميم من الشفتين وكذلك الواو . (٢)

وأرى أن وجهة نظر ابن سنان سديدة فى اعتراضه على الرمانى والخليل فإن السبب فى التنافر انما يرجع الى تقارب مخارج حروف الكلمة فقط كما ذكرنا ، أما ما ذكره الخليل من تعليله لمذهبه بوقوع الادغام والابدال فى الكلام بكثرة ، فانما يستقيم فى قرب مخارج الحروف فقط ، لأن الادغام يكون بسبب اجتماع المثلين فى الحروف أو تقارب مخارجها بضوابط محددة ذكرها الصرفيون ، وكذلك الابدال انما يكون بسبب قرب مخارج الحروف بضوابط معينة أيضا مثل : اصطبر أصلها « اصتبر » أبدلت تاء افتعل « طاء » لوقوعها بعد الصاد ، ولا شك أن التاء والطاء متقاربان فى المخرج .

وقد تعرض الخليل لحذف جملة جواب الشرط عندما سأله سيبويه عن قوله : جل ذكره « حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها » ؟ وعن قوله جل

---

(١) انظر : النكت فى اعجاز القرآن ص ٨٨ .
(٢) سر الفصاحة ص ٧٥ .

وعلا « ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب » « ولو ترى اذ وقفوا على النار » فقال : ان العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعلم المخبر لأى شيء وضع هذا الكلام » (١) فعلم المخاطب بمكان الحذف كاف عن ذكره ، وهو من طرق التعبير عند العرب يريدون به الايجاز ٠

أشار الخليل أيضا الى لون من ألوان الفصل بين الجملتين ، مما اندرج تحت ما عرف عند المتأخرين باسم كمال الاتصال بين الجملتين الذى يوجب الفصل بينهما ، وجعلوا منه أن تكون الجملة الثانية بدلا أو بمنزلة البدل من الأولى سواء كان بدلا مطابقا أو بدل بعض من كل أو بدل اشتمال « يقول سيبويه : « سسألت الخليل عن قوله عز وجل « ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة » فقال : « يضاعف له العذاب » بدل من « يلق أثاما » ، لأن مضاعفة العذاب هو لقى الآثام ، ومثل ذلك فى الكلام : ان تأتنا نحسن اليك نعطك ونحملك تفسر الاحسان بشيء هو هو ، وتجعل الآخر بدلا من الأول » (٢) فما ذكره الخليل هو البدل المطابق وهو يستوجب الفصل بين البدل والمبدل منه كما قرر البلاغيون ٠

وأشار أيضا الى الفرق فى الاستعمال بين « ان » و « اذا » اللتين تربطان بين جملتى الشرط والجواب فقد ذكر علماء البلاغة أن « ان » تستعمل غالبا للشك والظن فى وقوع الشرط أى أن المتكلم لا يكون جازما بوقوعه ، بخلاف « اذا » فانها تستعمل للتحقيق والقطع بوقوع الشرط أى يكون المتكلم جازما بوقوعه ٠ « يقول سيبويه : « سألت الخليل عن « اذا » ما منعهم أن يجازوا بها ؟ فقال : الفعل فى « اذا » بمنزلته فى « اذ » ٠٠ فاذا فيما يستقبل بمنزله « اذ » فيما مضى ، ويبين هذا أن « اذا » تجيء

---

(١) الكتاب ٤٥٣/١ ٠

(٢) الكتاب ٨٧/٣ ٠

وقتا معلوما ألا ترى أنك لو قلت : « آتيك اذا احمر البسر » كان حسنا ، ولو قلت : آتيك ان احمر البسر كان قبيحـــا فان أبدا مبهمة » (١) فاذا تجىء للوقت المعلوم المحدد الذى يقع يقينا ،ولا شك فى تحقيق وقوعه ، فالبسر ســيحمر لا محالة ، وزمن احمراره معروف لدى العرب ، فلما كان الأمر كذلك حسن دخول « اذا » ، لأنها لتحقق الوقـوع ، اما « ان » فهى لاتدخل على شىء محقق وقـــوعه بل تدخل على الشىء الذى يظن أنه قـد يقع (٢) ، ويقبح وضع احداهما موضع الأخرى الا لغرض بلاغى ٠

ولاحظ الخليل أن الفعل الماضى قد يقع موقع المضارع أو موقع اسم الفاعل ولم يذكر العلة فى هذا التعبير فيقول سيبويه : « وسألت الخليـــل عن قوله عز وجل « ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصــــفرا لظلوا من بعـده يكفرون » فقال : هى فى معنى « ليفعلن » كأنه قال : « ليظلن » كما تقول : « والله لا فعلت ذاك أبدا » تريد معنى لا أفعـــل ، وقولهم : « لئن فعلت ما فعل » يريد : معنى ما هو فاعـل وما يفعـــل ، كما كان « لظلوا » مثل « ليظلن » وكما جاءت « سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون » (٣) أى ام صمتم فوضع موضعه اسم الفاعل بل الجملة الاسمية ، لأن الله أراد أن يبين واقع حالهم الذى استمروا عليه ، وهو الصمت عن دعوة الأصـــــنام لتخليصهم من شــــدة أو مكروه بل كانوا يفزعون الى الله ، ومن ثم كانت الجملة الاسمية أنسب للمقام ٠

أشار الخليل اشارة عابرة الى التشبيه يقول سيبويه ٠ وســألت

---

(١) الكتاب ١/٤٣٣ ٠
(٢) أثر النحاة فى البحث البلاغى ٥٩
(٣) الكتاب ٣/ ١٠٨ ، ١٠٩ ٠

الخليل عن « كأن » فزعم أنها « ان » لحقتها الكاف للتشبيه ، ولكنها صارت مع « أن » بمنزلة كلمة واحدة » (١) ٠

وقد يكون الخليل هو أول من أشار الى الاستعارة بالكناية ، عند بيت الخنساء ٠

وداهية من دواهي المنـــــو   ن يرهبها الناس لا فالهـــا

يقول سيبويه معقبا على هذا البيت « جعل للداهية فما » حدثنا بذلك من نثق به » (٢) فربما يقصد الخليل ، لأنه ثقة عنده من غير شك ٠

وتحدث الخليل عن لونين من ألوان البديع وهما الجناس والمطابقة فقد ذكر ابن المعتز أنه نقل عن الخليل قوله ٠ الجنس لكل ضرب من الناس والطير ، والعروض ، والنحو » وقد ألف الأصمعي كتاب الأجناس كما ذكر ابن المعتز أيضـــــا عند تعريفه للتجنيس بقوله : « وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذى ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها » (٣) ٠

ولما كان الخليل أستاذا للأصمعي فانه من غير شك قد اســتفاد من أستاذه هذا اللون البديعي ٠ وأشـــار الخليل الى المطابقة فذكر تعريفا لها نقله عنه ابن المعتز فقال : « قال الخليل ـ رحمـــه الله ـ يقـال طابقت بين الشيئين اذا جمعتهما على حذو واحد » (٤) وهو تعريف دقيق في هذه الفترة

---

(١) الكتاب ٤٧٤/١ ، ١٥١/٣ ٠
(٢) الكتاب ١٥٩/١ ٠
(٣) البديع ص ٢٥ ٠
(٤) البديع ص ٣٨ ٠

المتقدمة ، فالخليل — اذن — قد أسهم مع تلميذه سيبويه فى وضع اللبنات الأولى لصرح البلاغة العربية ·

ثانيا : البلاغة عند الأصمعى (١) ت ٢١٧ ·

هو الامام ابو سعيد عبد الملك بن قريب ينتهى نسبه الى مضر بن نزار ، وكان راوية للغة والأدب ذواقا للشعر ، واماما فى الأخبار والنوادر والملح والغرائب ، واشتهر بسعة حفظه وبطلاوة أسلوبه وجمال حديثه نشأ بالبصرة ، واستقى لغته وأدبه من منابع البادية الأصيلة ، وتتلمذ على علماء عصره من أئمة البصرة مثل الخليل بن أحمد ، وعبد الله بن عون ، وحماد بن سلمة ·· وغيرهم ، وكان الاصمعى متمسكا بعروبته ، معتزا بها ومن ثم كان خصما للشعوبية فنصب نفسه حربا لها ، ومن أجل ذلك كان متعصبا للجاهليين والاسلاميين والمخضرمين ، وله كتاب الأصمعيات الذى جمع فيه مختارات كثيرة من الشعر الجيد ، وكتاب معانى الشعر ، وكتاب الأجناس ، وكتاب النخل والكرم ، وكتاب خلق الانسان وغيرها وبعد حياة حافلة بالعلم والمدارسة امتدت من سنة ١٢٣هـ حتى سنة ٢١٧ هـ أسلم الروح لبارئها ، ورثاه أبو العتاهية بأبيات منها :

أسفت لفقد الأصمعى لقد مضى حميدا له فى كل صالحة سهم
تقضت بشاشات المجالس بعده وودعنا اذ ودع الانس والعلم
وقد كان نجم العلم فينا حياته فلما انقضت أيامه أفل النجم

أما أثره فى البلاغة فقد ذكرنا أنه ألف كتابا فى الأجناس ، وتحدث عن المطابقة فى الشعر فذكر تعريفا لها فى الأصل اللغوى فقال : أصلها

---

(١) انظر فى ترجمته : مراتب النحويين ص ٨٠ ، ١٠٥ ط دار نهضة مصر للطبع والنشر ·

بوضع الرجل فى موضع اليد فى مشى ذوات الأربع ، وذكر من أحسنها قول زهير ٠

ليث بعثر يصطاد الرجال اذا ... ما الليث كذب عن أقرانها صدقا(١)

وتحدث الأصمعى عن الالتفات ، ولعله أول من اقترح اسمه الاصطلاحى فى البلاغة اذ روى أن الأصمعى قال لبعض من كان يتحدث اليهم : « أتعرف التفاتات جرير ٠٠ ؟ قال ٠ لا فما هى ؟ قال ٠

أتنسى اذ تودعنا سليمى ... بعود بشامة سقى البشام

ألا تراه مقبلا على شعره ٠ ثم التفت الى البشام فدعا له ، وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى ... لازلت فى غلل وأيك ناضر

فالتفت الى الحمام فدعا له (٢) ٠

وتأثر به ابن المعتز فى حديثه عن الالتفات فأخذ منه الاسم الاصطلاحى وذكر البيتين ووسع دلالته واضاف اليه نوعا آخر وهو نوع ينصرف فيه المتكلم عن المخاطبة إلى الاخبار ٠

وأشار الأصمعى الى الكناية وان لم يسمها باسمها اذ يقول : اذا قالت العرب : الثوب والازار فانهم يريدون البدن وأنشد :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا ... فدى له من أخى ثقة ازارى

وأشار الى الاستعارة القبيحة فى قول الشاعر :

فما رقد الولدان حتى رأيته ... على البكر يمريه بساق وحافر

---

(١) العمدة لابن رشيق ٢/٧ ٠
(٢) الصناعتين ص ٤٣٨ ٠

فيرى أن الشاعر وضع الحافر موضـــع القدم للضرورة ٠٠ ووجه الاستعارة فيه أنه لما قصد الى هجو ضيفه وتقبيح قدمه جعله كحافر » (١) ولعله بذلك قد فتح الباب لمن جاءوا بعده من الأدباء والنقاد ليوضحوا فى ذيل بحثهم عن الاستعارة ما يسمى منها بالاستعارة القبيحة أو الرديئة كما فعل ابن المعتز وقدامه وأبو هلال العسكرى وغيرهم ٠

وتحدث الأصمعى عن لون من ألوان الاطناب المعروف لدى البلاغيين باسم الايغال ، وان كان لم يقترح له اسمه وهو « ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها » ٠ فنرى قدامة ينقل عن التوزى قوله : قلت للأصمعى من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتى بالمعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا أو الكبير فيجعله بلفظه خسيســا أو ينقضى كلامه قبل القافية ، فاذا احتاج اليها أفاد بها معنى قال : قلت نحو من ، قال قول ذى الرمة ٠

قف العيس فى أطلال مية فاســأل   رســوما كأخلاق الرداء المسلسل

فتم كلامه بالرداء قبل « المسلسل » ثم قال المسلسل فزاد شيئا به ثم قال :

أظن الذى يجدى عليك سؤالها   دموعا كتبديد الجمان المفصــل

فتم كلامه بالجمان ثم قال : « المفصل » فزاد شيئا ، قلت : ونحو من قال الأعشى حيث يقول :

كناطح صـــخرة يوما ليفلقها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعــل

فتم كلامه بيضرها ، فلما احتاج الى القـــافية قال : « وأوهى قرنه الوعل » نزاد معنى ، قلت ٠ وكيف صار الوعل مفضلا على كل ما ينطح ؟

---

(١) الصناعتين ص ١٨١ ٠

قال : لأنه ينحط من قلة الجبل على قرنيه فلا يضيره · (١) وينبه قدامة الى ان هذا اللون « الايغال » وان كانت تسميته حديثة الا أن احساس الناس به منذ القدم ·

وله نقدات عامة على الشعراء فيصف الشعر بوصف عام يدل على مسلك صاحبه ومنهجه فى قرض الشعر فسئل عن شعر لبيد فقال : « كأنه طيلسان طبرانى » أى هو محكم الأصل ولا رونق له (٢) ويقول فى شعر أبى العتاهية : انه كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى · (٣)

وسئل فى مجلس الرشيد : أى بيت تقوله العرب أشعر قال « الذى يسابق لفظه معناه » ، وهذا يتفق مع ما أورده الجاحظ فى البيان بقوله : « الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك » (٤) ·

وأشار أيضا الى ما عرف بحسن الابتداء فقد روى أبو عثمان عن التوزى قال : سمعت الأصمعى يقول · لم يبتدىء أحد من الشعراء مرثية أحسن من ابتداء مرثية أوس بن حجر :

أيتها النفس اجملى جزعا ان الذى تحذرين قد وقعا
ان الذى جمع السماحة والنجـ ـدة والحزم والقوى جمعا
الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا (٥)

---

(١) نقد الشعر ص ١٦٨ ·
(٢) الصناعتين : ١٨٧ ·
(٣) الأغانى ١/٩٠ ·
(٤) البيان والتبيين ١/١١٥ ·
(٥) ذيل الأمالى ص ٣٩ ·

الفصل الثانى

البلاغة عند المبرد وثعلب

أولا : البلاغة عند المبرد ٢١٠ ـ ت ٢٨٥ هـ .

هو محمد بن يزيد الأزدى أبو العباس المبرد زعيم المدرسة البصرية وكان من أعلم الناس بمذاهب البصريين فى النحو ومقاييسه ، يقول عنه ابن خلكان : « كان اماما فى اللغة والنحو وعالما بالشعر ينقده ويقيمه » ويقول الزبيدى . لم يكن أبو العباس محمد بن يزيد ـ على رياسته وتفرده بمذاهب أصحابه وربائه عليهم بفطنته وصحة قريحته ـ متخلفا فى قول الشعر ، وله أشعار كثيرة » . وكان بجانب هذا يتميز بحسن العبارة وفصاحة اللسان ، فيؤثر على المستمعين بقوة بيانه وسطوع حجته ، ولذا كان متفوقا على معاصره ثعلب الكوفى بهذا البيان عندما تقام بينهما المناظرات ، يقول الأزهرى : وكان محمد بن يزيد أعذب الرجلين بيانا ـ يقصد المبرد وثعلبا ـ وأحفظهما للشعر المحدث والنادرة الطريفة والاخبار الفصيحة . ومن اساتذته : أبو عمر والجرمى ، وأبو عثمان المازنى ، وتأثر بالخليل وسيبويه ، من أهم كتبه : المقتضب ، والكامل . والبلاغة . واعراب القرآن ، والمذكر والمؤنث ، والرد على سيبويه ، وقد تناول المبرد كثيرا من مسائل البلاغة ، وتأثر بما ذكره السابقون فى كثير منها ، وله جهد بارز فى بعض الألوان البلاغية بل نراه ينفرد ببعضها مما كان له أثره فى تطور البحث البلاغى ، وسيتضح ذلك من خلال عرضنا للألوان البلاغية عنده :

---

(١) انظر فى ترجمته : وفيات الأعيان ٣/٤٤١ ، ونزهة الالباء ٢٧٩ ، ومراتب النحويين ص ١٣٥ .

١ — تعريف البلاغة — عرف المبرد البلاغة حين سأله أحمد بن الواثق أى البلاغيين أبلغ ؟ أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب ؟ فيجيبه المبرد بقوله : « ان حق البلاغة احاطة القول بالمعنى ، واختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ، ومعاضدة شكلها ، وأن يقرب بها البعيد ، ويحذف منها الفصول » (١) فالبلاغة اذن فى فهم المبرد أن تكون الألفاظ وافية بتمام المعنى المراد ، وأن يكون الكلام متسقا ومتلائما فى نظم بديع بحيث تأخذ الألفاظ موضعها المناسب فى النظم فتتآلف مع جاراتها ، ويأخذ بعضها بحجز بعض فليس فيه كلمة نافرة أو نابية عن موضعها لتعبر عن المعانى فى وضوح وايجاز .

ويشير الى الايجاز والاطناب ويصف كلا منهما بما يفيد أن لكل منهما موقعا يحسن فيه فيقول : « من كلام العرب الاختصار المفهم والاطناب المفخم ، وقد يقع الايماء الى الشيء فيغنى عند ذوى الألباب عن كشفه كما قيل : لمحه دالة » (٢) .

٢ — الفصاحة والبلاغة :

تحدث المبرد عن الشروط التى يجب توافرها فى الكلام حتى يكون بليغا منها :

أ — أن يكون الأداء سليما فى نطق الألفاظ بأن يتبع النمط الصوتى الدقيق فى مخارج الحروف ، فيذكر العيوب المخلة بنطق بعض الحروف

---

(١) البلاغة للمبرد ص ٨٠ ، ٨١ .
(٢) الكامل ١/١٧ .

والألفاظ ، وهو متـــأثر بالجاحظ في هذا لأنه ذكر في كتابه « البيـــان والتبيين » فصلا لأصوات الالفاظ ، وما يعترى اللسان من عيوب تخـــل بالنطق الصحيح لها ، فيقول المبرد : التمتمة : التردد في التاء ، والفأفأة : التردد في الفاء ، والعقلة : التواء اللســـان عند ارادة الكلام ، والحبسة : تعذر الكلام عند ارادته ، واللفف : ادخال حرف في حرف ، والرتة كالرتج : تمنع أول الكلام ، فاذا جاء منه شيء اتصل ، والغمغمة : أن تسمع الصوت ولا يتبين لك تقطع الحروف ، والطمطمة : ان يكون الكلام مشـــبها بكلام العجم ، واللكنة : أن تعترض على الكلام باللغة الأعجمية ، واللثغة : أن يعدل بحرف الى حرف » (١) فكل ماذكره المبرد انما هو أوصاف للنطق المعيب في الألفاظ والحروف أو تعذر النطق عند ارادته .

ب — أن يكون الكلام مقبولا لدى السامعين فلا يوجد منه ما يمجـه الطبع وما تكره النفس سماعه والاصغاء اليه يقـــول : « ان الجمحي خطب خطبة فأحسنها ، وأجادها ، وكان بين ثنيتيه فرق . وكان يصفر اذا تكلم . فأجابه زيد بن على بن الحســـين بكلام في وزن كلامه وحسن نظامه غير أنه تقدمه في السمع بالسلامة من ذلك الصفير » (٢) وقد عد الخطيب القزويني الكراهة في السمع من العيوب المخلة بفصاحة الكلام .

جـ — أن يكون الكلام واضحا في ألفاظه ومعانيه فلا يوجد ما يؤدي الى تعقيد اللفظ وغموض المعنى ، ولذلك فانه عاب قول الفرزدق :

وما مثله في النـــاس الا مملكا ... أبو أمـــه حي أبـــوه يقـــاربه

---

(١) الكامل ٣٦٩/١ .
(٢) البلاغة : ٨١، ٨٢ .

فقد جعل هذا البيت من أقبح الضرورات ثم يقول : ولو كان هــذا الكلام على وجهه لكان قبيحا ، وكان يكون اذا وضع الكلام فى موضعه أن يقول : « وما مثله فى الناس حى يقاربه الا مملك أبو أم هذا الملك أبو هذا الممـــدوح ، فدل عــلى أنه خاله بهذا اللفظ البعيد وهجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع فى صدر رجل واحد » (١) يريد المبرد أنه لو نظم هذا البيت على أصله بدون تقديم وتأخير لكان قبيحا لما فيه من بعد اللفظ وتعقيده مما أدى الى بعد المعنى المراد ، وزاده قبحا بما صنع فيه من تقديم وتأخير وفصل بين المتلازمين ، فالمبتدأ وهو « أبو أمه » فصل عن خبره وهــو «أبوه » بكلمة « حى » وهى أجنبية عنهما ، وكذلك فصل بين « حى » وهو منعـــوت ، ويقاربه وهو نعت بأجنبى عنهما وهو « أبوه » وقدم المستثنى على المستثنى منه فهو كما تراه فى غاية التعقيــد ، وقد تردد هذا البيت فى كتب المتأخرين شاهدا على التعقيد اللفظى ، ولاشك أنهم استفادوا مما ذكره المبرد حتى انهم لم يخرجوا عن كلامه السابق .(٢)

أما غموض المعنى وتعقيده مع سلامة اللفظ فقد أشار اليه المبرد حين عقد مقارنة بين بيت العباس بن الأحنف :

ســأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتســكب عيناى الدموع لتجمـدا

وبين قول : روح بن حاتم بن قبيصة وهو واقف على باب المنصور فى الشمس فقال : « ليطول وقوفى فى الظل » فعقب المبرد على ذلك بقــوله

---

(١) الكامل ١/١٨ .

(٢) انظر أثر النحاة فى البحث البلاغى ٢٠٢ .

« فهذا كلام مكشوف واضح ككلام الربيع » (١) وقد تردد هذا البيت أيضا في كتب المتأخرين شاهدا على التعقيد المعنوى ، لأنه جعل جمود العين كناية عن المسرة وهو بعيد ، لأن الجمود انما هو كناية عن البخل بالدموع وليس كناية عن المسرة ٠

وقد تحدث المبرد عن بعض المسائل البلاغية ، وكان له أثر فيها مما جعل البلاغيون يستفيدون منها فى بحوثهم فى مرحلة التقعيد والتقنين وهى

أولا : أضرب الخبر – نبه المبرد الى وجود فروق يسيرة فى اللفظ بين الجمل المتكررة والتى تتمثل فى اضافة حرف توكيد أو أكثر الى الجملة أو خلوها منه مما أدى الى تنوع الخبر ، وبين أن لكل جملة منها موضعا لاتصلح فيه الأخرى ، وذلك عندما أجاب على سؤال للمتفلسف الكندى حين قال له : « انى لأجد فى كلام العرب حشوا فهم يقولون ٠ « عبد الله قائم » ثم يقولون ان عبد الله قائم ، ثم يقولون : ان عبد الله لقائم فالالفاظ متكررة والمعنى ، واحد ٠ فقال المبرد : بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم : « عبد الله قائم » اخبار عن قيامه ، وقولهم : « ان عبد الله قائم » جواب عن سؤال سائل ، وقولهم :« ان عبد الله لقائم» جواب عن انكار منكر قيامه ، فقد تكررت الألفاظ لتكرار المعانى » (٢) وقد تأثر البلاغيون بكلام المبرد واستفادوا منه وتناقلوه عند الكلام على ضرب الخبر فبينوا ان أن حال المخاطب لا تخلو من واحد من الأحوال الآتية :

الحالة الأولى : أن يكون المخاطب خالى الذهن عن الحكم أو التردد فيه

---

(١) البلاغة ٨٦
(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٠٣ ٠

وحينئــذ يجب أن يلقى اليه الخبر خاليا من التأكيــد ، ويســمى الخبر « ابتدائيا » ٠

الثانية : أن يكون المخاطب مترددا فى ثبوت النسبة بين طرفى الخبر، ويحســن فى هذه الحالة أن يكون الخبر مؤكدا بمؤكد واحد ، لأنه كاف فى ازالة هذا التردد أو الشك ، ويسمى الخبر حينئذ « طلبيا » ٠

الثالثة : أن يكون المخاطب منكرا للحكم المفاد من الخبر حاكما بخلافة ويجب فى هذه الحالة أن يؤكد له الخبر بمؤكد واحد أو أكثر حسب درجة الانكار ، ويسمى الخبر حينئذ « انكاريا » فالكلام اذن يجب أن يكون على صــلة وثيقة بالمخاطب يستجيب لمشاعره النفســية وانفعالاته الوجدانية لتحقق المشاركة بينهما ، ويقع الكلام موقعه فى النفس فتأنس وتمتثل ٠

ثانيا : التشبيه — عقد المبرد بابا خاصا للتشبيه اســتطاع أن يجمع فيه شواهد شعرية كثيرة ، واعتمد على ذوقه واحساسه فى تخير هذه الشواهد ، وأطلق عليها أوصافا كثيرة تمثل انطباعاته النفســيه نحوها فتدل علي اعجابه بها ، فيصف بعض التشبيهات بالاصــابة والحســن ، والجودة ، والحلاوة والملاحة، والقصد، والطرافة والغرابة والاطراد، والاختصار، ويتنقد بعضها فيصفها بالافراط والسخافة ، ولم يذكر المبرد تعليلا ولا توضــيحا لهذه الأوصاف حتى يمكننا أن نقف على فكره وذوقه وأدلته عليها ، ويبدو أنه شعر بكثرة هذه الأصاف وتداخلها ، فعاد وقسمها تقسيما آخر حصره فى أربعة أقسام فيقول : « والعرب تشبه على أربعة أضرب ، تشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج التفسير ٠ ولا يقوم بنفسه ، وهو أحسن الكلام » (١) ٠

---

(١) الكامل ٢/١٠١

ويقول : « والتشبيه جار فى كلام العرب كثيرا حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد » (١) .

ومن الأمثلة التى ذكرها وأعجب بها قول امرىء القيس :

كأن قلـوب الطير رطبا ويابســـا لدى وكرها العناب والحشف البالى

فقد تميز هذا التشبيه بالايجاز والدقة اذ جمع فى بيت واحد تشبيه شىء فى حالتين بشيئين ، (٢) وقد استند المبرد فى الحكم على هذا التشبيه بالجودة ، الى ذوق الرواة والنقاد ، ويرشدنا الى أن هذا التشبيه جاء على طريقة اللف والنشر ، وان كان لا يصرح بذلك فقد فهمنا غرضه من تنظيره الطريقة التى جاء بها البيت بالآية الكريمة التى ذكرها البلاغيون مثالا للف والنشر ، وهى قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » ، وقد استفاد منه الزمخشرى فى تفسير عند قوله تعالى : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا» فقد اشتمل التشبيه فى هذه الآية على اللف والنشر والطباق ، ثم جاء بنظير لها فى هذا التشبيه وطريقته وهو قول امرىء القيس الســـابق ، يقول الزمخشرى :«شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع وهو من اللف والطباق (٣) .

ويبدو ان التشبيه والتمثيل عنده مترادفان اذ يقول : « ومن تمثيل امرىء القيس العجيب قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنـا الجزع الذى لم يثقب

فلعل تعجبه من التشبيه فى هذا البيت مارآه من الدقة فى بيـــان

(١) الكامل ٢/٤٠ (٢) الكامل ٢/٤١
(٣) الكشاف ٢/٢٦٤

التساوى بين المشبه والمشبه به فى وجه الشبه ، لأن عيون الوحش «المشبه» لاثقوب فيها ، فاشترط فى المشبه به « الجزع » عدم الثقـــوب فيه حتى يتساوى الطرفان فى اللون والشكل تماما ، وقد استشهد البلاغيون بهذا البيت على الايغال لتحقيق التساوى بين طرفى التشبيه فى وجه الشبه .

وأشار أيضا الى نوع آخر من الايغال فى التشبيه لزيادة المبالغة فيه فقال : « ومن التشبيه المتجاوز المفرط قول الخنساء :

وان صـــخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأســـه نـــار

فجعلت المهتدى يأتم به ، وجعلته كنار فى رأس علم » (١) والعلم : الجبل فلو قالت الخنســـاء « كأنه علم » فقط لكان وافيـــا بالمقصود من التشبيه ولكنها أرادت الايغال فيه بزيادة المبالغة فى الوصـــف والتجاوز والافراط فوصفت العلم بوجود نار على رأسه .

وتحدث المبرد عن وجه الشبه بين الطرفين حديثا مفصلا لم نجـــده عند من سبقوه بالحديث عن التشبيه ، فقد اشار سيبويه اليه فى عبـــارة موجزة كررها فى كتابه هى : « والعرب تشـــبه الشىء بالشىء فى كلامهم وليس مثله فى جميع أحواله » (٢) وذكر أبو عبيدة فى النقائض نحو هذا ، والمبرد وان كان قد استفاد ممن سبقه الا أنه فصل القول وذكر الامثلة الكثيرة التى تؤيد مذهبه فوجه الشبه بين الطرفين ليس من كل الوجوه ، وانما فى وصف خاص معلوم بينهما يقول : « واعلم ان للتشبيه حدا فالأشياء تشابه من وجوه وتباين من وجوه ، فانما ينظر الى التشبيه من حيث وقع ، فاذا

---

(١) الكامل ٢/٥٠ (٢) الكتاب ١/٣٩٧

شبه الوجه بالشمس فانما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العظم والاحراق قال الله عز وجل « كأنهن بيض مكنون » ، والعرب تشبه النساء ببيض النعام تريد نقاءه ونعومته ، والمرأة بالشمس والقمر ، والغصن والغزال ، والبقر الوحشية .. وانما تقصد من كل شيء الى شيء » (١) .

ويوضح في موضع آخر أن المشبه به هو الأصل في وجه الشبه لأنه يجب أن يكون الوصف الخاص بين الطرفين « وجه الشبه » أقوى وأعرف وأشهر في المشبه به منه في المشبه فيقول : « والتشبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس ، وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم ، وعن أصل أخذوه أن شبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبي أو البقرة الوحشية ، والأنف بحد السيف ، والفم بالخاتم . والشعر بالعناقيد . والعنق بابريق فضة ، والساق بالجمار ، فهذا كلام جار على الألسن »(٢) ويقول : والمرأة تشبه بالسحابة لتهاديها وسهولة مرها ، قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مر السحابة لاريث ولا عجل (٣)

وأشار المبرد الى التشبيه المحذوف الأداة وهو ما عرف باسم التشبيه البليغ فيما بعد فذكر قول الشاعر :

والحب ظهر أنت راكبه ... فاذا صرفت عنانه انصرفا (٤)

وعده من التشبيه ، بينما جعله بعض الناس من الاستعارة وقد نبه الى هذا القاضي الجرجاني في الوساطة حين ميز بين التشبيه والاستعارة

---

(١) الكامل ٢/٥٤ ، ٥٥ .
(٢) الكامل ٢/١٠٤
(٣) الكامل ٢/٥٥ .
(٤) الكامل ٢/١٠٩ .

اذ يقول : « وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبي نواس السابق ولست أرى هذا وما أشبهه استـــعارة ، وانما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت اذا ملكت عنانه فهو اما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء، وانما الاســـتعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة .. » (١)

ثالثا : أشار المبرد الى بعض علاقات المجاز المرسل منها ما عرفت عند البلاغيين باسم : « اعتبار ما يكون » أى ما يؤول اليه الشيء من وصـــفه بوصف خاص به كما فى قوله تعالى : « ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » ، سماهم بالكفر وهم أطفـــال ، وقبل ان يولدوا » ٢) أى باعتبـــار ما يـــؤول اليه أمرهم ، أى لا يلدوا الا من سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصـــيرون اليه . ويقول المبرد فى قوله عز وجـــل « انى أرانى أعصرا خمرا » أى أعصر عنبا فيصير الى هذه الحال . (٣)

واشار ايضا الى علاقتى السببية والمســـببية ، وان كان لم يذكرهما باسمها ، فأشار الى السببية عند تعليقه على قول امرىء القيس :

كأن أبانا فى أفانين ودقـــة   كبير أناس فى بجـــاد مزمل

---

(١) الوساطة :
(٢) الكامل ٢/٢١١   (٣) الكامل ٢/٧٨

فيقول : وذكر الودق ، لأن تلك الخضرة من عمله » (١) فتعليله لذكر الودق بكون الخضرة من عمله أى من سببه اشارة الى علاقة المجاز وهى السببية أى أن الودق أى المطر :سبب فى الخضرة فذكر السبب وأراد المسبب.

وأشار أيضا الى علاقة المسببية وان كان يخلط بينها وبين اعتبار ما يكون ، فيقول فى تعليقه على قول راجز يصف غيما :

أقبل فى المستن من ربابه   أسنمه الآبال فى سحابه

أراد أن ذلك السحاب ينبت ما تأكله الابل فتصير شحومها فى أسنمتها .

وذكر البلاغيون أن علاقة المجاز فى البيت المسببية ، لأنه عبر بالأسنمة عن الماء ، وهى مسببة عنه ، فالماء ينمو عليه النبات ، وبالنبات والماء تتغذى الابل فتنمو الأسنمة .

وأشار أيضا الى علاقة اعتبار ما يكون فى قوله تعالى : « أرانى أعصر خمرا » أى أعصر عنبا فيصير الى هذه الحال (٢) .

رابعا : تحدث المبرد عن لون بلاغى وهو اللف والنشر حديثا لم يسبق اليه فهو أول من تحدث عنه وذكره باسمه وعرفه ومثل له فيقول حين ذكر قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : « ما أحسن الحسنات فى آثار السيئات ، وأقبح السيئات فى آثار الحسنات ، وأقبح من ذا وأحسن من ذلك السيئات فى آثار الحسنات ، والحسنات فى آثار الحسنات ، والعرب تلف الخبرين ثم ترمى بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد الى كل خبره ، وقال الله عز وجل « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » علما بأن المخاطبين

(١) الكامل ٧٨/٢   (٢) الكامل ٧٨/٢ .

يعرفون وقت السكون ، ووقت الاكتساب » (١) وقد عرفه الخطيب بقوله : « هو ذكر متعدد على جهة التفصيل او الاجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده اليه » (٢) فتعريف الخطيب لم يزد كثيرا عما قاله المبرد ، حيث أشار الى أن اللف قد يكون على جهة التفصيل أو الاجمال ، والنشر قد يكون على ترتيب اللف كما فى الآية الكريمة السابقة فاللف فى ذكر الليل والنهار ، والنشر هو قوله : لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ، وهما راجعان الى الليل والنهـــار على الترتيب ، واللف والنشر يؤدى الى اعمال الفكر برد كل ما ذكر فى النشر الى ما يناسبه فى اللف ، ومن ثم يثبت المعنى فى الذهن ويتمكن فيه ، وقد اشار المبرد الى ان التشبيه لا ســيما المتعدد منه قد يشتمل على اللف والنشر كما بينا منذ قليل .

وتحدث المبرد ايضا عن التجريد وهو من ألوان البديع ايضا ، وقــد سبقه سيبويه بالحديث عنه اذ يقول ابن جنى فيما نقله عنه : « ولو قــال : اما ابوك فلك اب لكان على قــولك : « فلك به اب أو فيه أب ، وانما يريد بقوله ، فيه أب : مجرى على سعة الكلام » (٣) يقول المبرد فى تعليقه عــلى قول الأعشى .

يا خــير من يــركب المطى ولا   يشرب كأســا بكف من بخلا

انما تشرب بكفك ولست ببخيل » (٤) وقد عرض عبد القاهر لهــذا اللون وان لم يسمه باســمه فى أثناء حديثه عن الفروق بين الاســــتعارة والتشبيه البليغ ، وذكر هذا البيت وعلق عليه بقوله : « لا يتصــور فيه التشبيه ، وانما المعنى أنه ليس ببخيل » (٥) وعلق المبرد على قول الشاعر :

---

(١) الكامل ١/٧٥ ، ٢/٣٦ .
(٢) الايضاح ص : ٢٠٢ .
(٣) الخصائص ٢/٤٧٥ .
(٤) الكامل : ١/٣٥
(٥) أسرار البلاغة

أخو رغائب يعطيها ويسألها   يأبى الظلامة منه النوفل الزفر

بقوله : « وانما يريده بعينه — أى هو نفس النوفل والزفر ، والنوفل ذو الفضل ، والزفر : حمال الأثقال — كقولك « لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد » (١) .

وأشار المبرد الى أن الأخطل جمع فى بيت واحد ضروبا من الهجاء والشتم لجرير وهو قوله :

قوم اذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولى على النار

قال المبرد : يقال : ان جريرا توجع من هذا البيت ، لأنه جمع فيه ضروبا من الهجاء والشتم ، منها البخل الفاحش ، ومنها عقوق الأم فى ابتذالها دون غيرها ، ومنها تقذير الغناء ، ومنها السوءة التى ذكرها من الوالدة » (٢) وهذا البيت بحسن تأليفه ودقة نظمه قد دل على الغرض ، واصاب المفصل بوقوع كل كلمة منه فى النظم موقع الهجاء المقذع ، فما من لفظة فيه الا وقد تضمنت هجاء ، « فلفظ قوم يشعر بقلتهم ، وانهم من العشرة فما دونها ، ولفظ « اذا » يؤذن بأن الشرط مقطوع بحصوله وهو استنباح الأضياف وان لهم اوقاتا مخصوصية يأتون فيها ، واتى بسين الاستفعال ليؤذن أن كلبهم ليس من عادته النباح ، بل انما يقع ذلك عند ضربه ، والجائه الى النباح ، وتعريف الأضياف بالألف واللام التى للعهد اشارة الى عهده اضيافا معينين ، وانهم لا يقصدهم كل احد ، وجاء بالأضياف على جمع القلة ليؤذن بقلة الطارق منزلهم ، وافرد كلبهم ليؤذن انه ليس لهم سوى كلب واحد ، وأضافه اليهم استحقارا لهم ، واتى «بقالوا»

---

(١) الكامل ٣٦/١ .
(٢) الكامل ٣٣٢/٢ .

ليعرف أنهم يمتهنون أنفسهم ولا يترفعون بخادم ينوب عنهم فى القتال ، ثم جعل القول منهم مباشرا لأمهم ، ولم يكن عندهم من يخلفها فى القيام بطفى النار ، فاقاموا أمهم مقام الأمة فى قضاء حوائجهم ، ثم جعلهم قائلين بما يستفحش ، ولم يقتصروا على طلب طفى النار من غير أن يصرحوا بما نطقا به ، وقولهم : « على النار » فيه اشعار بأن نارهم قليلة لا ينتفع بها ، وأنها لقلتها تطفؤها بولة ، وأنها انما أمرت بذلك عند استنباح الأضياف ليذهب عن الأضياف مكانهم ئلا يهتدون اليهم » (١) فقد اشتمل هذا البيت على هذه المعانى جميعها وذلك لدقة التأليف واصابة الغرض ٠

وتحدث المبرد عن ألوان بلاغية أخرى ولكنه لم يكن له جديد فيهـا وانما هى نقول عن السابقين مثل سيبويه والفراء وابن قتيبة منها :

الكناية ، والالتفات ، والتقديم والتأخير ، والمجاز العقلى ، والحذف والقلب ، وأجازه اذا لم يدخله لبس لغرض الاختصار ، وغير ذلك ٠

---

(١) انظر التبيان فى علم البيان لابن الزملكانى ص ١١٢ بتصرف ٠

الفصل الثاني

البلاغة عند ثعلب (١)

٢٠٠ ــ ٢٩١ هـ

هو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب امام الكوفيين فى اللغة والنحو ولد فى الكوفة عام ٢٠٠هـ ، ونشأ بها ، وأقبل على تعلم العربية ، ودراستها منذ صغره حتى ذاع صيته ، وأقبل عليه الناس ينهلون من علمه ، ومن أساتذته فى اللغة ابن الأعرابى ، والأصمعى وأبو عمرو بن العلاء وفى النحو سلمة بن عاصم والفراء ، حتى أنه حفظ كتب الفراء كلها وسنه لم تتجاوز الخامسة والعشرين ، وتتلمذ عليه كثير من العلماء وفى مقدمتهم : الأخفش م ٣١٨هـ ونفطويه م ٣٢٣هـ والزجاج م ٣١١هـ وابن الأنبارى وابن المعتز م ٢٩٦هـ ، وكان يعاصره كثير من العلماء منهم المبرد البصرى وكانت تقوم بينهما مناظرات فى مسائل اللغة والنحو ، وكان لكل انصار ومؤيدون ، ومن أهم مؤلفاته التى وصلت الينا : شرح ديوان زهير وشرح ديوان الأعشى وكتاب الفصيح ، ويعرف بفصيح ثعلب ، وكتاب المجالس وكتاب قواعد الشعر ، وغيرها ، وتوفى ثعلب ليلة السبت لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأول عام ٢٩١هـ فى خلافة المكتفى ، ودفن بمقابر باب الشام ، وقبره هناك معروف .

ومن كتبه التى تناولت بعض المسائل البلاغية كتاب قواعد الشعر ، وهو ــ على الرغم من صغر حجمه ــ كتاب نفيس ذو أهمية كبيرة فى تاريخ البحث البلاغى نظرا لما يحويه من مسائل البلاغة مصدرة بمصطلحاتها مما

(١) وفيات الأعيان ١/١٠٢ .

جعل ابن المعتز يتأثر به فى كتاب البديع الذى طارت شهرته فى الآفاق وقد تناول ثعلب فى هذا الكتاب قواعد الشعر العامة وهى أربع : أمر ونهى وخبر واستخبار ، هى ليست قواعد الشعر خاصة انما يدخل فيها النثر أيضا ولم يبتكر ثعلب هذه القواعد ، وانما هو مسبوق بها من النحاة السابقين فقد كان الأخفش م٢١٥هـ يرى أن أقسام الكلام ستة : خبر واستخبار ، وأمر ونهى ونداء وتمنى ، ثم تتفرغ هذه القواعد الأربع الأصول عند ثعلب الى مدح ، وهجاء ، ومراث ، واعتذار ، وتشبيب ، وتشبيه ، واقتصاص أخبار . وهذه هى أغراض الشعر ، وليست فروعا للأصول التى قررها .

وتحدث عن بعض فنون البلاغة فعرض للتشبيه الجيد ومثل له بأبيات كثيرة من عيون الشعر ، والمبالغة وسماها الافراط فى المعنى والكناية والتعريض ، وأدخلهما تحت ما يسمى بلطافة المعنى ، والاستعارة وحسن الخروج ، هو ما يعرف بحسن التخلص أو الاستطراد ، ومجاورة الأضداد وهو الطباق عند البلاغيين ، والمطابق وهو نوع من الجناس وعرض لبعض الألوان النقدية مثل قضية اللفظ والمعنى ، وجمال النظم واتساقه ، وتناول عيوب الشعر من اكفاء وابطاء واقواء وتسم الشعر الى درجات تتفاوت فى الجودة والرداءة .

وهو فى كل ما عرضه فى الكتاب يذكر المصطلح ويمثل له بأبيات كثيرة دون محاولة منه لتفسير هذه الأمثلة أو تحليلها الا ما ندر . وسنتناول بالتفصيل ما جاء فى الكتاب من ألوان بلاغية وهى :

١ — التشبيه — تناول التشبيه على أنه فرع يتفرع من القواعد العامة للشعر ، وذكر أمثلة كثيرة للجيد منه ، ولم يبين لنا سبب جودته حتى

تتمكن من معرفة مدى ما وصل اليه ذوقه فى اختياره لهذه الشـواهد واستجادته لها ، سوى ما ذكره فى مستهل عرضه للأمثلة بقوله : والتشبيه الخارج عن التعدى والتقصير كقول امرىء القيس :

كأن دماء الهاديات بنحـره   عصارة حناء بشـيب مرجل (١)

يريد : تشبيه الدماء التى تصـيب نحر هذا الفرس من أثر صرعه لأسراب الوحوش بعصارة الحناء التى تصبغ شعرا شـائبا مسرحا . (٢)
ومثله قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا   وأرحلنـا الجزع الذى لم يثقب

وهذا البيت ذكره البلاغيون من شواهد الايغال لتحقيق التشـبيه أى بيان التساوى بين طرفيه فى وجه الشبه ، لأن عيون الوحش لا ثقوب فيها فأراد الشاعر أن يحقق هذا المعنى فى المشبه به لكى يتساوى الطرفان تماما فى اللون والشكل فوصف الجزع وقيده بكونه لم يثقب .

واستشهد أيضا بقول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسـا   لدى وكرها العناب والحشف البالى

وعلق على هذا البيت بقوله : وزعم الرواة أن هذا أحسن شىء وجد فى تشبيه شىء بشىء فى بيت واحد ، والصواب أنه أحسـن شىء وجد فى تشبيه شيئين بشـيئين ، لأنه شـبه قلوب الطير الرطبة منها بالعناب واليابسة بالحشف البالى ، فهو تشبيه متعدد .

(١) الهاديات : جمع هادية ، وهى الأوائل والمتقدمات فى السير من سرب الوحش ، مرجل من الترجيل وهو تسريح الشعر .
(٢) قواعد الشعر لثعلب ص ٣٠ .

واستجاد أيضا قول عدى بن الرقاع فى وصف قرن ولد الظبى :

تزجى أغن كأن ابرة روقه   قلم أصاب من الدواة مدادها (١)

وقد شهد النقاد لعدى بالتفوق على جرير فى هذا الوصف ·

٢ ـ الاستعارة ـ عرف ثعلب الاستعارة بقوله : « وهو أن يستعار للشىء اسم غيره أو معنى سواه » كقول امرىء القيس فى صفة الليل فاستعار وصف جمل :

فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل (٢)

وقال تأبط شرا :

اذا هزه فى عظم قرن تهللت   نواجذ أفواه المنايا الضواحك

يعلق ثعلب على هذا البيت بقوله : « ولا نواجذ للمنية ولافم » (٣)

وفى قول مالك بن حريم الهمدانى يصف قائد ابل :

فأوسعن عقبيه دماء وأصبحت   أنامل رجليه رواعف دمعا

يقول : ولا أنف للأنامل ولا عين ، (٤) ·

وكل ما ذكره ثعلب من شواهد على الاستعارة يفيد أنه يقصد الاستعارة المكنية ، وتعقيبه عليها يوضح مراده ·

٣ ـ الكناية والتعريض ـ تحدث عنهما ثعلب تحت اسم « لطافة

---

(١) تزجى : تسوق ، الأغن : الظبى فى صوته غنه ، الروق ، القرن ـ المداد الحبر انظر قواعد الشعر ص ٣٥ ·

(٢) انظر قواعد الشعر ص ٤٧ ·

(٣) قواعد الشعر ص ٤٨ ·

(٤) قواعد الشعر ص ٤٩ ·

المعنى » وعرفه بأنه الدلالة بالتعريض على التصريح » (١) يقصد بالتعريض ما يومىء الى المعنى المراد ، بشرط أن يفهمه السامع ويستنبطه ، والا كان تعمية والغازا ، بدليـــل قوله : « ومن لطف المعنى كل ما يدل عـلى الايماء الذى يقوم مقام التصريح ، لمن يحسن فهمه واستنباطه » ومثل لها بأبيات كثيرة نذكر منها قول الشاعر :

اقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح المـاء والمـاء بارد

فالمعنى اللطيف الذى يومىء له فى هذا البلت هو أنه يريد أن يؤثر أضيافه بزاده حتى ان القوت الذى يلزم لجسمه فانه لا يأخذه كله ، وانما يأخذ بعضه ويؤثر أضيافه بالبعض الآخر ، فهو كناية عن الكرم وكقـول نصيب فى سليمان بن عبد الملك .

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهـله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب(٢)

فالمعنى اللطيف الذى يومىء اليه هذا البيت هو كثرة العطاء الذى يفهم من الشـطر الثانى فى البيت ، لأن الحقـائب لا تثنى اذ هى الأوعية التى توضـع فيها الأمتعة ، وانمـا يدل ما احتوته هذه الحقائب من العطايا التى وزعت على المستحقين فأفرغ كل ما فيها لهذا الغرض على كثرة العطاء .

وتحدث عن التعريض فى مجالسـه فقال فى قوله تعـالى : « وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » كما تقول للرجل أحدنا كاذب أو احدنا مخطىء تكذيبا جميلا » (٣) .

---

(١) قواعد الشعر ص ٤٣ .
(٢) قواعد الشعر ٤٥ .
(٣) مجالس ثعلب : ١٣٢ .

٤ — المبالغة — وسماها ثعلب الافراط فى المعنى ، واكتفى بسرد الأمثلة من جيد الشعر دون ان يعلق عليها وقد سبقه ابن قتيبة فى هذه التسمية ، وتحدث عنها المبرد من خلال استشهاده للتشبيه المفرط ، ومن أمثلتها عنه ثعلب قول امرئ القيس :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها — بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وكقول النابغة :

بأنك شمس والملوك كواكب — اذا طلعت لم يبد منهن كوكب (١)

٥ — « حسن الخروج » وهو ما عرف بعد باسم حسن التخلص أو الاستطراد وهو الانتقال من معنى الى معنى آخر مع امتزاج بينهما بحيث يتلاءمان تلاؤم أجزاء النوع الواحد كالانتقال من الغزل الى المدح ومن المدح الى الهجاء ، ومن النسيب الى الهجاء ... الخ .

يقول ثعلب : فى حسن الخروج عن بكاء الطلل ووصف الابل وتحمل الأظعان وفراق الجيران بغير « دع ذا » و « عد عن ذا » و « اذكر ذا » بل من صدر الى عجز لا يتعداه الى سواه ولا يقرنه بغيره » ومثل له بقول الأعشى يمدح الأسود بن المنذر .

لا تشكى الى وانتجعى الأسود أهل الندى وأهل الفعال .

فقد انتقل الأعشى من وصف الأطلال والناقة الى مدح الأسود بن المنذر(٢)

ومن الخروج من النسيب الى الهجاء قول حسان :

ان كنت كاذبة الذى حدثتنى — فنجوت منجى الحارث بن هشام

---

(١) قواعد الشعر ص ٤٠ .
(٢) قواعد الشعر ص ٥١ .

ترك الأحبـــة أن يقاتل دونهم نجا برأس طمرة ولجـــام (١)

خاطب حسان فرسه ، وخرج منه الى هجاء الحارث بن هشام فعرض به فى فراره يوم بدر ، وقد استشهد ابن المعتز بقول حســـان على حسن الخروج — الطباق — ويسميه ثعلب مجاورة الأضــــداد ، وعرفه بقوله : « وهو ذكر الشىء مع ما يعدم وجوده كقوله تعالى : « لايموت فيها ولا يحيى » وقال مهلهل :

فان يك بالذنائب طال ليـــلى فقد أبكى من الليل القصـير (٢)

الذنائب اسم موضع ، والتضاد بين الطول والقصر ، فطابق بينهما ومما تجدر الاشارة اليه أن هذا اللون عرف عند الخليل باسم الطبـــاق كما أسلفنا ، فلعل ثعلبا لم يتنبه الى هذه التسمية عنده ، أو أنه تنبه اليها ولكنه رأى مخالفتها لعدم اقتناعه بها .

— التجنيس — يسميه ثعلب باسم « المطابق » ، وقد احتذى قـدامة حذوه فى هذه التسمية ، وعرفه ثعلب بقوله : « وهو تكرير اللفظة بمعنيين مختلفين نحو قوله تعالى : « ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هو بميت » ، « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » ومنه قول : أعرابى يصف سهما رمى به عيرا فأنفذه : حتى نجا من جوفه وما نجا ، (٣) — يريد نجا السهم من جوف العير ، وما نجا العير من الرمية بالمنية » ويلاحظ أن تمثيل ثعلب للمطابق لا يتفق مع تعريفه له ، لأن اللفظ المطابق ، وهو « الموت » المكرر ليس بمعنيين مختلفين ، وانما معناهما واحد ، وكذلك تكرير كلمة سكارى

---

(١) قواعد الشعر ص ٥٢ .
(٢) قواعد الشعر ص ٥٤ .
(٣) قواعد الشعر ص ٥٨ .

وعلى هذا يكون ثعلب قد خلط بين الجناس وطباق السلب ، (١) اذ ان ما ذكره يدخل فى طباق السلب ، اللهم الا أن يريد بالموت الأول أسبابه ودواعيه ، وبالموت الثانى خروج الروح وانفصالها عن الجسد فيكون على حقيقته ، والسكر الأولى على التشبيه والثانى على الحقيقة ، والمعنى : وترى الناس كالسكارى من الفزع والهول الشديد ، وما هم بسكارى من الشراب ، وعلى هذا المعنى يتطابق التعريف مع ما ذكره من الأمثلة ، وفيه نظر .

ويؤيد ما ذكرناه أن ثعلبا ذكر أمثلة تدخل فى الجناس من غير حاجة الى التأويل الذى ذكرناه منها قول الأحوص .

سلام الله يامطر عليه   وليس عليك يامطر السلام

يقول : مطر من الغيث ، ومطر اسم رجل ، ومنه قول خلف الأحمر :

كل ماض قد تردى بماض   كسنا البرق اذا ما يسل

يريد ماضيا من الرجال تردى بسيف ماض قاطع . (٢) .

وذكر أمثلة للملحق بالجناس ، وهو ما يعرف بجناس الاشتقاق كقول جرير : فمازال معقولا عقال عن الندى   ومازال محبوساعن الخيرحابس (٣)

وتحدث ثعلب عن شروط جزالة اللفظ ، (٤) وهو ما كان وسطا بين الألفاظ البدوية الغربية ، وبين الألفاظ العامية السفسافة أى أنه ليس غريبا وحشيا ، ولا سوقيا مبتذلا ، وقد مدح التوسط وجعله المعيار فى أبلغية الشعر فقال : التشبيه الجيد هو الخارج عن التعدى والتقصير ، وكذلك أبلغ الشعر ما ابتعد عن التعدى والتقصير ، والتوسط ممدوح بكل لغة

---

(١) انظر أثر النحاه فى البحث البلاغى ٢٢٦ .
(٢) قواعد الشعر ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٣) قواعد الشعر ص ٥٧ .
(٤) انظر قواعد الشعر ص ٥٩ ، ٦٠ .

موسوم بكمال الحكمة قال الله جل ثناؤه : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » ، وقال عز وجل « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا » وقيل : « خير الأمور أوساطها » (١) ويرى أن التوسط فى الشعر أدخل فى البلاغة: وقسم الشعر من حيث قيمته الفنية الى خمسة أقسام هى : الأبيات المعدلة ، والأبيات الغر ، والأبيات المحجلة والأبيات الموضحة ، والأبيات المرجلة .

فأما الأبيات الغر فهى التى تتصف بالايجاز ، بحيث يفهم من صدر البيت معنى تاما مستقلا حتى لو طرح آخره لأغنى أوله بوضوح دلالته وانما تجعل الاعجاز تاليه للصدور لملاءمتها اياها وممازجتها لها فى اتفاق أواتلها .

لأن سبيل المتكلم الافهام وبغية المتعلم الاستفهام فأخف الكلام على الناطق مؤونه وأسهله على السامع محملا ما فهم عن ابتدائه مراد قائله ، وأبان قليله ، ووضح دليله ، فقد وصفت العرب الايجاز فقرظته ، وذكرت الاختصار ففضلته ، فقالوا « لمحة دالة لاتخطىء ولا تبطىء ، ومثل لهذا القسم بأمثلة كثيرة منها قول الخنساء :

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار (٢)

---

(١) قواعد الشعر ص ٦٣ ، ٦٤ .
(٢) انظر قواعد الشعر ص ٦٨ .

الفصل الثالث

البلاغة عند ابن جنى (١)
ت ٣٩٢ هـ

هو أبو الفتح عثمان بن جنى النحوى الموصلى ، وكان أبوه جنى رومياً يونانياً ولد بالموصل ونشأ بها ، وتلقى مبادىء التعلم فيها ، فأخذ اللغة والأدب عن كثير من العلماء منهم أبو بكر محمد بن الحسن المعروف بابن مقسم ، وأبو على الفارسى ، وقد صحبه — كما يذكر الرواة — أربعين سنة ، فتوثقت الصلات بينهما ، وكان يقدره ويجله ، لأنه انتفع كثيرا بآرائه فى النحو واللغة وقد وجدنا أثر ذلك فى كتبه ومن أساتذته أيضا ، احمد بن محمد الموصلى الشافعى المعروف بالأخفش ، وروى كثيرا عن الأعراب الخلص منهم أبو عبد الله محمد بن العساف العقيلى التميمى ، وكان صديقا للمتنبى فيقول المتنبى فيه : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس ، وكان اذا سئل عن شىء من دقائق النحو والتصريف فى شعره يقول : « سلوا صاحبنا أبا الفتح ، وهو أول من شرح ديوانه ، ويقول عنه الثعالبى : « وهو القطب فى لسان العرب ، واليه انتهت الرياسة فى الأدب » فقد اشتهر ببلاغة العبارة وحسن تصريف الكلام ، والابانة عن المعانى بأحسن وجوه الأداء ، وكان واسع الرواية والدراية فى اللغة ، وهو بصرى المذهب فى النحو ، حنفى فى الفقه ، معتزلى فى الكلام ، وكان له شعر فى مختلف الأغراض ، ومن أهم الكتب التى خلفها : الخصائص وقد قدمه الى بهاء الدولة

---

(١) انظر فى ترجمته : بغية الوعاة للسيوطى ٢/١٣٢ ، ومعجم الأدباء ١٢/٨١ وفيات الأعيان ١/٣١٣ .

الذى تولى الملك فى بغداد ، وسر الصناعة ، والمنصف ، وشرح ديوان المتنبى الكبير ، وشرح ديوانه الصغير الذى يسمى « تفسير معانى ديوان المتنبى » وشرح مستغلق أبيات الحماسة واشتقاق أسماء شعرائها ، واللمع فى العربية ، والمحتسب فى شرح شواذ القراءات والمحاسن فى العربية ، وغيرها كثير من المؤلفات التى وصلت الى ما يقرب من خمسين كتابا مؤلفا ، وقد كان لابن جنى أثر كبير فيمن جاء بعده ، وفتح أبوابا فى العربية لم يطرقها سواه ، وكان بذلك اماما يحتاج الى أتباع يمضون فى سبيله ، وقد تأثر به ونقل عنه كثيرا على بن أحمد المعروف بابن سيده ولكنه كان فى كثير من نقوله لا يعزوها الى ابن جنى . وقد تفرقت المسائل البلاغية فى مؤلفاته ، ولا سيما كتبه الثلاث الخصائص والمحتسب وسر صناعة الاعراب

وأهم المسائل البلاغية التى تحدث عنها هى :

١ - تحدث ابن جنى عن سوء التأليف وأثره فى تعقيد الكلام ، بسبب الفصل بين المتلازمين والتقديم والتأخير بدون غرض يقصد منه ، ويرى أن هذا يعد من قبيل اللحن الذى لا يجوز لعربى أصلا فضلا عن أن نتخذه للمولدين رسما وجعل منه قول الشاعر .

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفرا رسومها قلما

« أراد فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها ، فأوقع من الفصل والتقديم والتأخير ما تراه » (١) وهو فى غاية التعقيد ولا يكاد يفهم المرء المراد منه لا بعد عناء طويل ، لأنه فصل بين المضاف « بعد » والمضاف اليه « بهجتها » بالفعل « خط » ، وفصل أيضا بخط بين أصبحت

---

(١) الخصائص ١/٣٣٠ .

وخبرها الذى هو « قفرا » وفصل به « كأن » واســـمها الذى هو (قلما) بأجنبيين وهما (قفرا) و « رسومها » الذى هو مفعول خط ، وقـــدم خبر « كأن » عليها وهو « خط » ، فقد أخل الشاعر كما ترى ترتيب نظم الكلام مما أدى الى اختلاف المعنى ، وصعوبة فهم المراد ، فأدى الى التعقيـــد الذى هو عيب يخل بفصاحة الكلام ، اذ ان الفصاحة هى الوضوح والصـــفاء والابانة ، ولذا يقول العتابى : « الألفاظ أجساد ، والمعانى أرواح وانما تراها بعين القلوب ، فاذا قدمت منها مؤخرا ، أو أخرت منها مقدما أفســـدت الصورة ، وغيرت المعنى كما لو حول رأس الى موضع يد ويد الى موضع رجل، فان الخلقة تتحول ، والحلية تتغير » (١) ويقـــول ابن جنى « وأغرب من ذلك وأفحش وأذهب فى القبح قول الآخر :

لها مقلتا حوراء طـــل خميلة من الوحش ما تنفك ترعى عرارها

أراد : لها مقلتـــــا حوراء من الوحش ما تنفـــك ترعى خميلة طـــل عرارها » (٢) فعقد الكلام وأفسده بتقديم « طل » و (وخميلة) وموقعهما الصحيح بين « ترعى » و « وعرارها » عـــلى غير الترتيب الذى هما عليه ، بتقديم « خميلة » على « طـــل » لأنها مفعـــول به لترعى ، و (طل) جزء من جملة الصفة لخميلة ٠

وتحدث عن الفرق بين الفصل القبيح بين المتلازمين والذى يؤدى الى التعقيد كما مر ، والفصل الحسن بينهما وهو « الاعتراض » وسنخصـــه بحديث مستقل ٠

---

(١) الخصائص ١/٣٣٠ ٠
(٢) الخصائص ١/٣٣٠ ٠

دلالة الكلمة من حيث مادتها أو صيغتها — أوضح ابن جنى الملاءمة بين اللفظ والمعنى نعقد بابا بعنـــوان « قوة اللفظ لقوة المعنى » ويرى فيه أن الزيادة فى بنية اللفظ يتبعها زيادة فى المعنى ، ففى قوله تعالى : « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » يقول : « مقتدر هنا أوفق من قادر من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ » فأشار الى دقة نظم الكلام ومدى ملاءمته للمقام بحيث لو بدل اللفظ بآخر لا نحط عن درجته العليا فى البلاغة . ويقول : « وعليه عندى قول الله — عز وجل — « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، وتأويل ذلك : أن كسب الحسنة بالاضافة الى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر ، وذلك لقوله — عز اسمه — « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها » أفلا ترى أن الحسنة تصغر باضافتها الى جزائها صغر الواحد الى العشرة ، ولما كان جزاء السيئة انما هو بمثلها لم تحتقر الى الجـزاء عنهـا ، فعـلم بذلك قوة فعل السـيئة على فعـل الحسنة ، ولذلك قال تعالى : « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا » فاذا كان فعل السـيئة ذاهبا بصاحبه الى هذه الغاية البعيدة المترامية عظم قدرها ، وفخم لفظ العبـارة عنها فقيل : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فزيد فى لفظ فعل السيئة ، وانتقص من لفظ فعل الحسنة لما ذكرنا » (١) .

ويرى أن الجزاء على الحسنة والسـيئة ليس لهما دخل فى قوة المعنى أو ضـعفه مما يترتب عليه التفاوت فى بينة اللفظ بالزيادة والنقصـان . فالقوة والضعف انما يتوجهان فى الفعل الى الحدث ، لأنه جـزء من دلالته ،

---

(١) الخصائص : ٣/٢٦٥ .

ولذلك فأن الأنسب للمقام ما قاله جار الله الزمخشري وهو « فان قلت : لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب ؟ قلت : في الاكتساب اعتمال ، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس ، وهي منجذبة اليه وأمارة به كانت في تحصيله أعمل وأجد ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال » (١) فالجد والسعي في تحصيل المرء الفعل الذي يوقعه في الشر يكون أكثر من تحصيله الفعل الذي يؤدي به الى الخير ، وذلك لموافقة الفعل الأول للرغبات والشهوات والأهواء البشرية ٠

٣ — قضية اللفظ والمعنى — أثارت هذه القضية اهتماما بالغا لدى العلماء وكانت لهم فيها آراء متباينة ، فالجاحظ يرجع المزية في الجمال الى اللفظ ويحط من قدر المعنى ، فيجعله مبتذلا معلوما لدى كل الناس على اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم وبيئاتهم ولغتهم ، لأنه قدر مشترك بينهم جميعا وانما الجمال في الصياغة والسبك والتصوير اذ هي مجال التفاوت بين الأدباء والكتاب ، والآمدي وأبو عمرو الشيباني يرجعان المزية والجمال الى المعنى فقط دون اللفظ، وقد أرجعها الى اللفظ والمعنى(٢) معا كل من بشر ابن المعتمر وابن قتيبة والرماني ، فقد قسم ابن قتيبة اللفظ والمعنى الى أربعة أقسام ٠ منها ما جاد لفظه وقصر معناه ومثل له بقول كثير عزة :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المطايا رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الاباطح

---

(١) الكشاف : ٤٠٨/١ ٠
(٢) أنظر : أثر النحاة في البحث البلاغي ٢٧٩ ٠
(٣) الشعراء والشعراء ٠

فعاب هذه الأبيات لعدم جودة معناها فى نظره بل علق عليها بمايفيد من أنها تخلو من كل معنى مفيد ، ولا تشتمل على أية فكرة أخلاقية ، وحذا حذوه أبو هلال العسكرى فذكر هذه الأبيات ، وعلق عليها أيضا بقــوله « وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى ، وهى رائقة معجبة » .

أما ابن جنى فقد استجاد هذين البيتين فى لفظهما ومعناهما ، ورد على ابن قتيبة وأبى هلال قائلا : « قيل هذا الموضع قد سبق الى التعلق به من لم ينعم النظر فيه ، ولا رأى ما أراه القــوم منه ، وانما ذلك لجفاء طبع الناظر ، وخفاء غرض الناطق ، وذلك أن فى قوله : « كل حاجة » ما يفيد منه أهل النسيب والرقة ، وذوو الأهواء والمقة ، مالا يفيده غيرهم ، .. ألا ترى أن من حوائج منى أشياء كثيرة منها التلاقى ومنها التشــاكى ، ومنها التخلى .. الى غير ذلك ، ويرى مدى ارتباط الشطر الثانى من البيت الأول فيقول فى معنى « ومسح بالأركان من هو ماسح » : أى انما كانت حوائجنا التى قضيناها وآرابنا التى انضيناها من هذا النحو الذى هو مسح الأركان أى لا تخرج على هذا النحــو من التقرب الى الله ولزوم طاعته ، وفى قوله : « أخذنا بأطراف الحديث بيننا » الوحى الخفى والرمز الحلو ، ألا ترى أنه يريد بأطرافها مايتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح والايماء دون التصريح وذلك أحلى وأدمث وأغزل وانسب من ان يكون مشافهة وكشفا ومصارحة وجهرا » وفى قوله : « وسالت بأعناق المطى الأباطح ، من الفصاحة ما لا خفاء به ، والأمر فى هذا اسير وأعرف وأشهر » وهكذا نجد ابن جنى يفصح عن مذهبه فى بيان أهمية كل من اللفظ والمعنى فى الوصــول الى السبك الجيد ، والنظم المتلائم ، فالمعنى وان كان هو

---

(١) الخصائص ٢١٨/١ ، ٢١٩ .

الغرض المقصود الا انه لا سبيل اليه الا باللفظ الجيد ، فيرى ان العناية بالألفاظ ليست لذاتها ، وانما لكونها عنوانا لمعانيها وطريقا الى اظهار أغراضها ، لأن الألفاظ خدم للمعانى ، وهى كالوعاء للفظ ، .. فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها وهذبوها وصقلوا غروبها وارهفوها ، فلا ترين أن العناية اذ ذاك انما هى بالألفاظ وحدها ، بل هى عندنا خدمة للمعانى » (١) .

وقد استفاد عبد القاهر من تحليل ابن جنى فى شرحه للأبيات السابقة وقد بين ما اشتملت عليه من خصائص لها أثرها فى دقة النظم وروعته ، ويرى أن الاستعارة فى « سالت » لا توجد الا فى كلام الفحول اذ هى من الاستعارات الخاصية النادرة ، لأنه أراد أنها سارت سيرا حثيثا فى غاية السرعة ، وكانت سرعه فى لين وسلاسة كأنها كانت سيولا وقعت فى تلك الأباطح فجرت بها ، ويرجع الحسن أيضا فى اسناد « سالت » للأباطح لأنه يفيد المبالغة فى كثرة الابل حتى غص بها الوادى ، ولم يبق فيه موضع لقدم ، ويفيد لفظ « سالت » أيضا أن السرعة كانت فى لين وسلاسة وهذا يجلب الراحة للراكبين فوقها ، وتعديته بالباء الى الأعناق يفيد أنها داخلة فى السير ، لأن السرعة تظهر فيها أكثر من غيرها .

٤ ـ مشاهد الحركة وأثرها فى بلاغة الأسلوب :

تحدث ابن جنى عن مبحث هام له أثره فى بلاغة الأسلوب ، وتمكين العبارة فى نفس المخاطب لم يتفطن اليه البلاغيون ، وكان ينبغى أن يكون ضمن مسائل البلاغة وهو بلاغة الاشارة ونقل شواهد الحركة المعبرة عما فى النفس لمن لم يشاهدها ، وأثرها فى اداء الغرض الذى يقتضيه المقام ،

---

(١) الخصائص ١/٢١٦ .

فالعرب ينطقون بلغتهم التى عرفوا رسومها وقواعدها للتعبير عما يعن لهم من امور الحياة ، ولهم نوع آخر من التعبير سوى النطق بألفاظ اللغة يشاهد من أحوالهم وأغراضهم ووجوههم من الحركات الاشارية ، وهى قائمة مقام النطق بل قد تكون أبلغ فى دلالتها من النطق بالالفاظ كما قيل « رب اشارة أبلغ من عبارة » ولذلك نجد المتكلم أحيانا يحرص على نقل مشاهد الحركة التى رآها للمخاطب لتمكين المعنى فى نفسه ، وتصوير الحركة فى ذهنه كأنه يشاهدها ، وذلك لما يرى من الانسان فى التعبير عن مشاعره ، وحالاته النفسيه ، من عبوس الوجه وتقطيبه فى الدلالة على الغضب والتبسم وانفراج الأسارير فى الدلالة على الرضا والفرح ، وعض الأنامل فى الدلالة على الندم ، ووضع اليد على الجبهة فى الدلالة على التعجب ، وغير ذلك كثير .

يقول ابن جنى : « ان ما تريده العرب وتقصد اليه شيئان أحدهما حاضر معنا ، والآخر غائب عنا ، الا أنه مع أدنى تأمل فى حكم الحاضر معنا فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها وتضطر الى معرفته من أغراضها وقصورها من استخفافها شيئا أو استثقاله ، وتقبله أو انكاره ، والأنس به أو الاستيحاش منه ، والرضا به أو التعجب منه ، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود بل الحالفة على ما فى النفوس ، ألا ترى الى قوله :

تقول – وصكت وجهها بيمينها – أبعلى هذا بالرحى المتقاعس

فلو قال حاكيا عنها : أبعلى هذا بالرحى المتقاعس ، من غير أن يذكر صك الوجه ، لاعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة ، لكنه لما حكى الحال فقال : « وصكت وجهها » علم بذلك قوة انكارها ، وتعاظم الصورة لها ، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ، ولو شاهدتها لكنت بها

أعرف ، ولعظم الحال فى نفس تلك المرأة أبين ، وقد قيل : (ليس الخبر كالمعاين » ،ولو لم ينقل الينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله : « وصكت وجهها » لم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها ، وليست كل حكاية تروى لنا ولا كل خبر ينقل الينا يشفع به وشرح الأحوال التابعة له المقترنة - كانت به - نعم ولو نقلت الينا لم نفد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرتاها » (١) فقد علمنا قوة الانكار والتعجب من حكاية مشهد الحركة وهى «صك الوجه» التى نقلها الينا الشاعر ، وهو انكار مصحوب بالألم ، لأنها - أى المرأة التى صكت وجهها - رأت زوجها الذى لم يدخل بها فى حالة مهينة فى نظرها وهى مزاولة الطحن بالرحى لضيف نزل به ، فهذا ما غاب عنا ولكنه فى حكم الحاضر لحكاية الحال ونقل مشاهد الحركة فيها .

ومنه ما جاء فى التنزيل الحكيم حكاية عن سارة زوج ابراهيم عليه السلام حين جاءته الملائكة ، وبشروه بغلام عليم ، وهى فى سن يستعد فيها الحمل ، فحين علمت بذلك اقبلت فى تعجب شديد واستبعاد لهذا الخبر وصاحت فى تأوه وصكت وجهها وقالت عجوز عقيم أى أنا عجوز لا أنجب فكيف يحدث هذا ، (٢) وقد علمنا قوة التعجب والاستبعاد من نقل مشهد الحركة التى حكاها رب العزة ، ومما تجدر الاشارة اليه أن استبعادها هذا الفعل ليس من حيث قدة الله ، ولكن من حيث العادة التى أجراها الله على سائر النساء التى فى سنها .

ومنه قوله تعالى : يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت » فالتعبير بوضع الأصابع فى الأذن ، يؤذن بشدة صوت الرعد المصحوب بالصواعق المهلكة ، لأنهم يدخلون الأصابع كلها ، وانما

---

(١) الخصائص ١/٢٤٥ ، ٢٤٦ .
(٢) أنظر الكشاف ٤/١٨ .

يدخلون بعضها منها وهى الأنامل ففى التعبير مبالغة بذكر الكل واردة البعض على طريق المجاز المرسل لعلاقة الكلية كما قرر البلاغيون . فقد علمنا مدى شدة صوت الرعد بحركة جعل الأصابع فى الآذان .

ومنه قوله تعالى — فى التعبير عن مشهد من مشاهد يوم القيامة — « ويوم يعض الظالم على يديه » فحركة عض الظالم على يديه يشير بها المولى — عز وجل — الى حالة نفسية فى قمة انفعالها وثورتها وندمها على ما فات لأنه لا يعض على يد واحدة ، وانما يعض على يديه معا مما يوحى بشدة الندم على ما فات ولات ساعة مندم .

ومنه قوله تعالى حكاية لحال سليمان عليه السلام عندما سمع كلام النملة التى تحذر بقية النمل من سليمان وجنوده فقال « فتبسم ضاحكا من قولها » فالغرض من التبسم الذى وصل الى حد الضحك هو بيان مقدار تعجب سليمان عليه السلام من ادراكه للغة النمل وتفاهمها مع بعضها ، وهو نعمة عظيمة أنعم الله بها عليه ، فكان تعجبه مصحوبا بالسرور بما آتاه الله مما لم يؤت غيره[1] .

وقد كان الصحابة — رضوان الله عليهم — يتلقون الأحاديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعنون كثيرا بنقل مشاهد حركته صلى الله عليه وسلم وحركة أعضاء جسمه ، لأن فى هذه المشاهد عونا على ادراك أهمية الأمر المشار اليه بالحركة كقوله صلى الله عليه وسلم : « التقوى ههنا — وأشار الى صدره الشريف — وكررها ثلاث مرات ، ففى الاشارة والتكرير بيان لأهمية القلب لأنه الأساس فى كل عمل يصدر عن لانسان فمنه تتوجه النيات والمقاصد وانما الأعمال بالنيات[2] .

وقد يراد من الاشارة المبالغة فى الوصـف كما روى أن رسـول الله صلى الله عليه ضحك حتى بدت نواجذه . وقد ينتقل الرســول من حال الى حال أخرى حين يحدث لبيان عظم الأمر الذى يحدث عنه وشدة خطره وفداحة ضرره كما أخبر المحدثون فيما نقله الرواة عنه صلى الله عليه وسلم فى بيان أكبر الـكبائر حيث قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ؟ قلنا بلى يارسول الله قال : « الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : « ألا وقول الزور » ! فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت » فجلوسه صلى الله عليه وسلم بعد الاتكاء انما لبيان عظم ذنب مرتكب قول الزور . ولذلك كرر عبارة « ألا وقول الزور » حتى تمنى أصحابه أن يسكت اشفاقا عليه ، وعلى هذا النحو فاننا نجد فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من هذه الاشارات التى لها أثر كبير فى بلاغة الحديث .

وقد يراد تأكيد المعنى فى نفوس المخاطبين بالحركة الحسية المشاهدة كما فى قوله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » يقول الراوى : « وشبك بين أصابعه » لتأكيد التماسك الذى ينتج عن اتحاد المؤمنين واجتمـــاع كلمتهم وتعاونهم وتعاطفهم فيما بينهـــم .

وهذا باب جديد فى مجال البلاغة ينبغى أن يتنبه اليه الدارســون حتى يعلوا من صرح البلاغة العربية .

٥ ـ الالتفـات ـ تحـدث ابن جنى عن الالتفات وأبان عن الأسرار البلاغية التى تفهم من ورائه مما لم نجده عند من سبقه ، بل نجـده يعيب عليهم نظرتهم السطحية فى تناول الالتفات ، وترديدهم لعبارة فضفاضة فى بيان سره البلاغى اذ هى لا تختص بهذا الفن وحده بل تتسع عندهم ليدخل فيها كثير من الفنون البـــلاغية فيقول : « فليس ينبغى أن يقتصر فى ذكر

على الانتقـال من الخطـاب الى الغيبة ، ومن الغيبة الى الخطـاب بما ألف أصحاب البلاغة أن يرددوه وهو قولهم : ان فيه ضربا من الاتساع فى اللغة لانتقـاله من لفظ الى لفظ . وهذا ينبغى أن يقـال اذا عرى الموضـع من غرض متعمد ، وسر عـلى مثله تنعقد اليد » (١) ووقف ابن جنى عند كثير من صور الالتفات فى القرآن الكريم يبين ما تفيده هذه الصـور من مزايا وأسرار ففى سورة الفاتحة يقول : « فالقرآن قد عبر أولا عن لفظ الجـلالة بأسلوب الغائب ، فيقول : « الحمد لله » ، ثم يعبر ثانيا بأسلوب الخطاب فيقول : (اياك نعبد واياك نستعين) ، وترك أسلوب الغائب الى أسلوب الخطاب ليس لمجرد الاتساع فى اللغة أو التصرف فى اللفظ ، بل لأمر أعلى وغرض أسمى ، وذلك أن الحمد أقل درجة من العبادة فالانسان يحمـد نظيره ولا يعبده ، لأن العبـادة قمة الطاعة ، والتقرب بها غاية النهاية . ولذلك استعمل القرآن لفظ (الحمد) وهو الأقل درجة مع الغائب فقـال (الحمد لله) ولم يقل (الحمد لك) وفى مجال التقرب الى الله بالعبادة التى هى قمة الطـاعة توجه المؤمن بعبادته الى الله وحده وخاطبه لأنه فى سـاحة الحضور مع ربه يتوجه اليه بالعبادة » (٢) .

٦ ـ وتحدث عن التعبير بالماضى بدلا من المضارع والعكس .

يرى البلاغيون أن التعبير بالماضى عن المضارع لنكتة بلاغية وهى تحقق الوقوع أى أن ما سيقع فى درجة الواقع الذى انتهى زمن وقوعه ، يقـول ابن جنى فى توضـيح هذه النكتة « تقول : ان قمت قمت جئت فيه بلفظ الماضى الواجب تحقيقا للأمر وتثبيتا له ، أى أن هذا وعد موفى به لا محالة ، كما أن الماضى واجب ثابت لا محـالة ، ونحو من ذلك لفظ الدعاء ومجيئه

---

(١) المحتسب ١/١٤٥ .

(٢) أثر النحاة في البحث البلاغى ٢٩٠ ، ٢٩١ .

علىٰ صورة الماضي الواقع نحو أيدك الله ، وحرسك الله انما كان ذلك تحقيقا له وتفاؤلا بوقوعه ، ان هذا ثابت باذن الله وواقع من غير شك ، وأما قوله :
ولقد أمر علىٰ اللئيم يسبني ٠

فانما حكى فيه الحال الماضية ، والحال لفظها المضارع أبدا نحو قولك : زيد يتحدث ويقرأ ، أي هو في حال تحدث وقراءة ، وعلى نحو من حكاية الحال في نحو هذا قولك : كان زيد سيقوم أمس أي كان متوقعا منه القيام فيما مضى » (١) ٠

يفهم من كلامه أن الماضي قد يقع موقع المضارع للتحقق من وقوع الفعل فكأنه واقع ، والمتفاؤل بوقوعه كما في الدعاء ، وقد يقع المضارع موقع الماضي ، وذلك في جملة الحال التي أريد حكايتها فيما مضى ، والفعل فيها لم يقع ، ولكنه كان متوقعا ، فجملة « يسبني » حال من اللئيم في الزمن الماضي ، لأن « أمر » في معنى « مررت » والسب لم يقع من اللئيم الا أنه كان متوقعا منه ٠

وقد يجيء الفعل ماضيا في الشرط والجواب مع أن زمان وقوعهما في المستقبل وذلك اذا دخلت عليهما « انْ » الشرطية للاحتياط في المعنى ، لأن « انْ » تستعمل غالبا في الشرط المشكوك في حصوله يقول ابن جني :
« وكذلك أنه أراد الاحتياط للمعنى فجاء بمعنى المضارع المشكوك في حصوله بلفظ الماضي المقطوع بكونه حتى كأنه وقع واستقر ، لا أنه متوقع مترقب ، هذا تفسير أبي علي عن أبي بكر وما احسنه » (٢) ٠

٦ - الايجاز بالحذف - يقول ابن جني « واعلم ان العرب الى الايجاز أميل وبه أعنى وفيه أرغب ، وعن الاكثار أبعد ، ألا ترى الى ما في

---

(١) الخصائص ٣/٣٣٠ ، ٣٣١ ٠
(٢) الخصائص ٣/١٠٥ ٠

القرآن وفصيح الكلام من كثرة المحذوف كحذف المضاف ، وحذف الموصوف والاكتفاء بالقليل من الكثير كالواحد من الجماعة ، وكالتلويح من التصريح فهذا ونحوه مما يطول شرحه مما يزيل الشك عنك في رغبتهم فيمـــا خف وأوجز عما طال وأمل »(١) والمحذوف عنده يجب أن يكون عليه دليل يرشد الى مكانه حتى يستقيم الحذف سواء كان الدليل لفظا أو حاليــا ، ويرى أن المحذوف للدلالة عليه بمنزلة الملفوظ به ، فان لم يوجد دليـــل كان لغوا من القول ، وضربا من التكلف الذى يؤدى الى الغموض والتعمية .

وتحدث عن حذف المبتدأ وحذف الخبر ، ويرى أن حذف المبتدأ وان كان كثيرا الا ان الخبر أولى منه بالحذف ، لأن الاتساع بالأعجاز أولى منه بالصدور ، وذكر أمثلة كثيرة منها ما تردد ذكره فى كتب البلاغيين المتأخرين، مثل قوله تعالى:«طاعة وقول معروف» فهذا مما الحذف فيه على التخيير ، بين المبتدأ والخبر ، أى أمرنا طاعة وقول معروف او طاعة وقول معروف أمثل، وأشار الى حذف المضاف وهو باب واسع كما فى قوله تعالى « ولكن البر من اتقى أى بر من اتقى ، وقد تحذف مضافات متعددة نحو قوله تعالى: « فقبضت قبضة من أثر الرسول أى من تراب أثر حافر فرس الرســـول ، وحـــذف المضـــاف اليه كقوله « تعالى لله الأمر من قبل ومن بعد » أى من قبـــل ذلك ومن بعده » . (٢) .

وتحدث عن حذف الموصـــــوف ويكثر فى الشعر دون النثر ، لأن القياس يكاد يحظره ، لأن الصفة اما للتخليص والتخصيص ، واما للمدح والثناء ، وكلاهما من مقامات الاسهاب والاطنـــاب لا من مظان الأيجـــاز

---

(١) الخصائص ١٦/١ .
(٢) أنظر الخصائص ٣٦٢/٢ ، ٣٦٣ .

والاختصار ، وتحدث عن حذف الصفة ودلالة الحال عليها ، ونقل عن صاحب الكتاب ما حكاه من قولهم : سير عليه ليل ، وهم يريدون : ليل طويل »(١) فقد دل الحال على موضع حذف الصفة ، ويرى ابن جنى أن دلالة الحال انما تظهر فى نطق المتكلم وطريقة أدائه للكلام من النبر أو التنغيم وضغط الصوت ومده وملء الفم به ، وكذلك هيئة الوجه من انزاوئه وتقطيبه مما يمكن أن يدخل فيما ذكرنا من مشاهد الحركة وأثرها فى بلاغة الأسلوب . وقد فتح هذا الباب سيبويه والجاحظ وبنى عليهما ابن جنى واتسع فيه ، فيقول : « انك تحس فى كلام القائل لذلك أى سير عليه ليل — من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل ، أو نحو ذلك ، فحذفت الصفة ودلت الحال عليها ، وهى ما تظهر فى طريقة نطق المتكلم ، ويقول : وأنت تحس هذا من نفسك اذا تأملته وذلك أن تكون فى مدح انسان والثناء عليه ، فتقول ، كان والله رجلا ! فتزيد فى قوة اللفظ بالله هذه الكلمة ، وتتمكن فى تمطيط اللام ، واطالة الصوت بها وعليها أى رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك ، وكذلك تقول : سألناه فوجدناه انسانا ! وتمكن الصوت بانسان وتفخمه فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك : انسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك ، وكذلك ان ذممته ووصفته بالضيق قلت : سألناه وكان انسانا ! ، وتزوى وجهك وتقطبه فيغنى ذلك عن قولك انسانا لئيما أو لحزا أو مبخلا أو نحو ذلك . فعلى هذا وما يجرى مجراه تحذف الصفة فأما ان عريت من الدلالة عليها من اللفظ أو من الحال ، فان حذفها لا يجوز »(٢) فما ذكره ابن جنى فى دلالة الحال لم ينل اهتمام البلاغيين فلم نجدهم فصلوا القول فيها على نحو ما ذكر .

---

(١) الخصائص ٢/٣٧١ .
(٢) الخصائص ٢/٣٧٠ ، ٣٧١ .

وتحدث عن حذف المفعول به الواحد نحو قوله تعالى : « وأوتيت من كل شيء » أى أوتيت منه شيئا ، وحذف المفعولين معا نحو قوله تعالى : « فغشاها ما غشى » أى غشاها اياه ، وتحدث عن حذف المعطوف والمعطوف عليه وحذف المستثنى ، وحذف « ان » مع النكرة . وحذف المميز اذا علم من الحال ، ونبه على أن الحال لا يحسن حذفه ، لأن الغرض فيها انما هو توكيد الخبر بها ، والحذف ضد الغرض ونقيضه ، (١) .

ووضح ابن جنى أن كلامه فيما سبق على حذف ما يحذف وهو مراد ، فأما حذفه اذا لم يرد فسائغ لاسؤال فيه ، وذلك كقولك : انطلق زيد ألا ترى هذا كلاما تاما ، وان لم يذكر معه شيئا من الفضلات ، .. وذلك أنك لم ترد الزيادة فى الفائدة بأكثر من الاخبار عنه بانطلاقه دون غيره » (٢) وقد استفاد عبد القاهر - بدون شك - من كلام ابن جنى هذا فى باب الحذف اذ يقول : اعلم أن أغراض الناس تختلف فى ذكر الأفعال المتعدية ، فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على اثبات المعانى التى اشتقت منها للفاعلين ، من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين ، فاذا كان الأمر كذلك كان الفعل المتعدى كغير المتعدى مثلا فى أنك لا ترى له مفعولا لا لفظا ولا تقديرا ، ومثال ذلك قول الناس : فلان يحل ويعقد ، ويأمر وينهى .. من غير أن يتعرض لحديث المفعول حتى كأنك قلت : صار اليه الحل والعقد .. وقسم ثان وهو أن يكون له مفعول مقصود قصده معلوم ، الا أنه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه .. الخ »(٣) .

---

(١) أنظر الخصائص ٢/٣٧٢ ، ٣٧٣ .
(٢) الخصائص ٢/٣٧٩ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ١٧٨ .

وتحدث عن حذف الفعل وحده مثل قوله تعالى : « اذا السماء انشقت » وعن حذف الفعل مع فاعله ، وعلى هذا يكون من حذف الجملة ، وذلك نحو « زيدا ضربته » ومن دلالة الحال على حذف الجملة قولك القرطاس والله أى أصاب القرطاس ، وحذف الشرط فى قوله : الناس مجزيون بأفعالهم ان خيرا فخير ، وان شرا فشر » أى ان فعل المرء خيرا جوزى خيرا ، وأن فعل شرا جزى شرا » وتحدث عن حذف الفعل مع فاعله أى الجملة المعطوف عليها كما فى قوله تعالى : « فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » أى فضرب فانفجرت » ومنه قوله تعالى « فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية » أى فحلق نعليه فدية » (١) وهذان المثالان ذكرهما البلاغيون شاهدا على حذف الجملة للاكتفاء بالمسبب عن السبب ، لأن الضرب بالعصا سبب فى الانفجار وكذا الحلق سبب فى ايجاب الفدية ، وقد ذكرهما أيضا ابن جنى فى باب الاكتفاء بالمسبب عن السبب مما يدل على استفادة البلاغيين منه .

٧ - الاعتراض - عقد له ابن جنى بابا مستقلا بهذا الاسم ، بين فيه كثرة وروده فى القرآن الكريم وفصيح الشعر ومنثور الكلام ، ومثل له بأمثلة كثيرة مبينا مواقعه فى الكلام فيقع بين القسم وجوابه وبين الموصوف وصفته ، وبين الفعل وفاعله ، وبين الصلة الموصول ، وبين الفعل مفعوله ، وبين اسم ان وخبرها وبين المفعول الأول والثانى ، وبين المبتدأ والخبر ، وبين المضاف والمضاف اليه ، وغير ذلك من أجزاء الجملة الواحدة وبين أن الاعتراض دال على فصاحة لمتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه ، ويجاء به للتوكيد ومن ثم حسن موقعه وأشار الى أن الاعتراض قد يقع فيه اعتراض

(١) الخصائص ٢/٣٦١ ;

آخر كقوله تعالى : فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم » فهذا فيه اعتراضان أحدهما قوله : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » لأنه اعترض به بين القسم الذى هو قوله : « فلا أقسم بمواقع النجوم وبين جوابه الذى هو قوله « انه لقرآن كريم » ، وفى نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذى هو « قسم » وبين صفته التى هى (عظيم) وهو قوله : (لو تعلمون) (١) .

٨ - التوكيد بالاطناب - أشار ابن جنى الى لون من ألوان الاطناب وهو التوكيد بالزيادة المفيدة كما فى قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم » يقول ابن جنى : قوله : بجناحيه مفيد ، أى ليس الغرض تشبيهه بالطائر ذى الجناحين ، بل هو الطائر بجناحيه البته ، وكذا قوله عز اسمه : « فخر عليهم السقف من فوقهم » قوله « من فوقهم » تفيد التأكيد ، لأنه لو لم يقل « من فوقهم » لجاز أن يظن به أنه كقولك : قد خربت عليهم دارهم ، وقد أهلكت عليهم مواشيهم وغلاتهم ، وقد تلفت عليهم تجاراتهم ، فاذا قال : (من فوقهم) زال ذلك المعنى المحتمل ، وصار معناه أنه سقط وهم من تحته . فهذا معنى غير الأول » (٢) ويرى الزمخشرى أن الزيادة بالتوكيد فى قوله تعالى « يطير بجناحيه » لزيادة التعميم والاحاطة . (٣) .

٩ - الاستفهام - تحدث ابن جنى عن الاستفهام وخروجه عن معناه الحقيقى الى معان آخر منها أ - التقرير ، وهو ضرب من الخبر ، وذلك

---

(١) الخصائص ١/٣٣٥ .
(٢) الخصائص ٢/٢٧١ .
(٣) الكشاف ٢/١٧ .

ضد الاستفهام ، ويدل على أنه قد فارق الاستفهام امتناع النصب في جوابه ألا تراك تقول : ألست صاحبنا فنكرمك كما تقول : لست صاحبنا فنكرمك وبين أن همزة التقرير تنقل ما دخلت عليه من الاثبات الى النفي ، ومن النفي الى الاثبات فمثال الثاني قول الشاعر :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

أي أنتم كذلكم ، ومثال الأول : أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله » ؟ أي لم تقل للناس اتخذوني وأمي الهين ، ولو كان استفهاما محضا لأقرت الاثبات على اثباته والنفي على نفيه » (١) يفهم من كلام ابن جني السابق ان الاستفهام التقريري انشاء في اللفظ ، ولكنه خبر في المعنى بدليل امتناع النصب في جوابه ، والتقرير يكون بعكس ما دخلت عليه الهمزة فان دخلت على فعل النفي أو على فعل منفي كان التقرير بالمثبت وان دخلت على المثبت كان التقرير بالمنفي ، ويوضح أغراض المتكلم من الاستفهام المجازي فيقول : « أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفا به مع استفهامه في الظاهر عنه ، لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء منها أن يرى المسئول أنه خفي عليه ليسمع جوابا عنه ، ومنها أن يتعرف حال المسئول هل هو عارف بما السائل عارف به ، ومنها : أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة المسترشد لما له في ذلك من الغرض ، ومنها أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه حتى ان حلف بعد أنه قد سأله عنه حلف صادقا فأوضح بذلك عذرا .. ولغير ذلك من المعاني التي يسأل السائل عما يعرفه لأجلها وبسببها » (٢) .

---

(١) الخصائص ٢/٤٦٣ .
(٢) الخصائص ٢/٤٦٤ .

(ب) — وقد يكون الاستفهام بمعنى النفي كقوله تعالى : « أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم » معناه الانكار له والرد عليهم في قول المستضعفين لهم : « لولا أنتم لكنا مؤمنين » فكأنهم قالوا لهم في الجواب « ما صددناكم » (١) وأشار ابن جنى الى أغراض أخرى كالتهكم والتوبيخ والانكار .

ويرى أن « هل » في قوله تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر » بمعنى « قد » أي قد أتى عليه ذلك) فالاستفهام هنا بمعنى الخبر ، ومما يدل على ذلك دخول همزة الاستفهام على « هل » في قول الشاعر :

سائل فوارس يربوع بشدتنا   أهل رأونا بسفح القف ذي الأكم

لأنها لو كانت على أصلها من الاستفهام لم تدخل عليها الهمزة ، لاستحالة اجتماع حرفين لمعنى واحد » (٢) .

١٠ — الحقيقة والمجاز — الحقيقة عنده ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة ، والمجاز استعمال للفظ في غير ما وضع له ، وانما يقع المجاز ويعدل اليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة ، وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه فان عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في الفرس : هو بحر . فالمعاني الثلاثة موجودة فيه . أما الاتساع فلأنه زاد في أسماء الفرس البحر على أسمائه التي هي : فرس ، وطرف ، وجواد ونحوها ، وأشار الى أن ما زيد للاتساع لا يستعمل استعمال سائر الأسماء الا بقرينة فيقول : فان احتيج اليه في شعر وسجع أو اتساع استعمل استعمال بقية تلك الأسماء لكن لا يفضى الى ذلك الا

---

(١) المحتسب ٢/١٩٤ .
(٢) الخصائص ٢/٤٦٣ .

بقرينة تسقط الشبهة ، ولو عرى الكلام من دليل يوضح الحال لم يقع عليه بحر لما فيه من التعجرف فى المقال من غير ايضاح ولا بيان الا ترى أنه لو قال : رأيت بحرا وهو يريد الفرس لم يعلم بذلك غرضه فلم يجز قوله لأنه الباس والغاز على الناس وأما التشبيه فلأن جريه يجرى فى الكثرة مجرى مائه وأما التوكيد فلأنه شبه العرض بالجوهر وهو أثبت فى النفوس منه ، وهذا تعال بالعرض وتفخيم منه اذ صير الى حيز ما يشاهد ويلمس ويعاين الا ترى الى قول بعضهم فى الترغيب فى الجميل · ولو رأيتم المعروف رجلا لرأيتموه حسنا جميلا ، وانما يرغب فيه بأن ينبه عليه ويعظم من قدره بأن يصوره فى النفوس على أشرف أحواله وانوه صفاته ، وذلك بأن يتخيل شخصا متجسما لا عرضا متوهما ·

وكذلك قوله سبحانه « واسئل القرية التى كنا فيها » فيه المعانى الثلاثة أما الاتساع فلأنه استعمل السؤال مع مالا يصح فى الحقيقة سؤاله ، وهذا نحو ما مضى ، ألا تراك تقول : وكم من قرية مسئولة فهذا ونحو اتســـاع ، وأما التشبيه فلأنها شبهت بمن يصح سؤاله لما كان بها ومؤلفا لها ، وأما التوكيد فلأنه فى ظاهر اللفظ احالة بالســـؤال على من ليس عادته الاجابة فكأنهم تضمنوا لأبيهم عليه السلام أنه ان ســـأل عن حقيقة هذه القصـــة الجمادات الجبال أنبائه بصحة قولهم ، وهذا تناه فى تصحيح الخبر أى لو سألتها لأنطقها الله بصدقنا ، فكيف لو سألت من من عادته الجواب ·

ومثل الاستعارة الدخلة تحت المجاز بقول الشاعر :

ووجه كأن الشمس حلت رداءها　　　عليه نقى اللـــون لم يتخـــدد

جعل للشمس رداء وهو جوهر ، لأنه أبلغ فى النور الذى هو العرض وهذه الاستعارة داخلة تحت المجاز » (١) ·

---

(١) الخصائص ٢/٤٤٢ — ٤٤٧ ·

ويمكننا أن نستنتج من كلام ابن جنى أمورا هامة لها أثرها فى تطور البحث البلاغى فى المجاز وهى :

١ ـ أن المجاز عنده قد اتسع مدلوله فيشمل التشبيه البليغ ، والاستعارة والمجاز المرسل ، وهو قائم عنده على التشبيه كما فهم من توضيحه المجاز فى قوله تعالى : « واسأل القرية » ، لأنه يشترط التشبيه بجانب الاتساع والتوكيد فى كل ألوان المجاز ·

٢ ـ تحدث ابن جنى عن قرينة المجاز مبينة أنها دليل عليه توضح المراد ايتبين منها غرض القائل ، وبدون ذكر القرينة فى المجاز يصبح الكلام ألغازا وتعمية يؤدى الى الالباس ·

٣ ـ أن التوكيد الذى جعله من أغراض المجاز يراد منه المبالغة فى التعبير ، وهى من أهم لأسرار البلاغية للمجاز بجميع أنواعه كما قرر البلاغيون ، وذلك لأنه سببه العرض بالجوهر ، أى نقله صورة محسوسة ولعله قد استفاد من الرمانى فى ذلك حيث ذكر أمثلة كثيرة للاستعارة ، وقرر أن الأبلغية فيها ترجع الى اخراج التشبيه المبنية عليه من المعنويات الى المحسوسات ، ففى قوله تعالى : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، الآية » يقول : كل هذا مستعار ، وأصل البنيان انما هو للحيطان وما أشبهها ، وحقيقته : اعتقادهم الذى عملوا عليه والاستعارة أبلغ لما فيها من البيان بما يحس ويتصور » (١) ·

ويرى ابن جنى أن أكثر اللغة عند التأمل مجاز ، ولكن لكثرته وشيوعه لحق بالحقيقة ، فقولك : « قام زيد » مجاز لأن الفعل يفاد منه معنى

(١) النكت فى اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) ص ٨٤ ط دار المعارف .

الجنسية أى كان منه القيام أو هذا الجنس ، ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيـــام ، وكيف ذلك وهو جنس ، والجنس يطبق جميع الماضى وجميع الحاضر وجميع الآتى ، وجميع الكائنات من كل من وجد منه القيام ، ومعلوم أنه لا يجتمع لانسـان واحد فى وقت واحد ، ولا فى مائة سنة مضـاعفة القيام كله الداخل تحت الوهم هذا محال عند كل ذى لب ، فاذا كان كذلك علمت أن قيام زيد مجاز لا حقيقة ، وانما هو على وضع الكل موضـــع البعض للاتساع والمبالغة وتشبيه القليل بالكثير ، يرى أيضا أن فى ايقاع الفعل على المفعول مجازا ، لأنك اذا قلت : « ضربت زيدا » فأنك تستعمل الفعل فى بعض معناه ، لأنك لم توقع الضرب كله على كل زيد ، وانما أوقعت الفعل أى بعضه على جزء من زيد كأن تكون ضربت يده أو رأسه مثلا فانه لا يتصور ان يقع جميع الضرب أى جنسه على جميع أجزاء زيد ، ولذلك اذا أردت أن تبين الجزء الواقع عليه الضرب جئت ببدل البعض ، كأن تقول : ضربت يده أو رسـه مثلا ، بل يرى أن فى هذا المثـال تجوزا أيضا لأن الضرب لم يقع على جميع الرأس ، وانما يقـع على جهة منه مثـلا » ، (١) وهكذا يمضى ابن جنى متوغلا ومسرفا على نفسه فى تحديد المجاز على هذا النحو الذى يبعد اللغة عن طبيعة استعمالها والدخول فى تصورات ذهنية منطقية لا طائل تحتها ، فلا يتصور أحد مطلقا أن القيام الواقع من زيد هو بعض القيام الذى قد يوجد من جميع الكائنات ، ولأن المتبـادر الى الذهن عند قولك : « قام زيد » هو القيام الواقع من زيد ، ولم ينصرف الذهن مطلقا عن هذا المعنى الى معنى الجنسية التى يريدها ابن جنى حتى يحكم بالمجاز على هذا المثال ونحوه ، فهذا — بلا شك ، تكلف ممقوت وشطط فى التفكير .

---

(١) الخصائص ٢/٤٤٧ ، ٤٤٨ .

وكذلك فى ايقاع الفعل على المفعول فان المخاطب لا يريد أن يعرف أكثر من ايقاع الضرب على زيد ولا يعنيه ان كان وقع على رأسه أو ظهره أو يده الان رأى غرضا ما فى تحديد الجزء الواقع عليه الضرب فانه يسأله : أى جزء من الجسم وقع عليه الضرب ؟ فيقال على رأسه أو على يديه مثلا .

واذا كان ابن جنى يذهب بعيدا فى تصوره للمجاز ويتوسع فيه على هذا النحو نظرا لمذهبه الاعتزالى فاننا نجد فى الجانب المقابل بعض علماء أهل السنة مثل ابن القيم وابن تيمية وغيرهما من الظاهرية يقولون بنفى المجاز فى اللغة ، ولا سيما فى القرآن الكريم لاعتماده على المبالغة التى هى أخت الكذب ، ولأنه لم يرد على لسان العرب الخاص ، ولم يوجد فى كلام علماء اللغة المتقدمين ، ولا فى كلام الصحابة والتابعين ، فيقول ابن قيم الجوزية : « وأهل اللغة لم يصرح أحد منهم بأن العرب قسمت لغاتها الى حقيقة ومجاز ، ولا قال أحد من العرب قط هذا اللفظ حقيقة وهذا مجاز ، ولا وجد فى كلام من نقل لغتهم عنهم مشافهة ولا بواسطة ذلك ، ولهذا لا يوجد فى كلام الخليل وسيبويه والفراء وأبو عمرو بن العلاء والأصمعى وأمثالهم ، كما لم يوجد ذلك فى كلام رجل واحد من الصحابة ولا التابعين ، ولا تابع التابعين ، ولا فى كلام أحد من الائمة الأربعة فالشافعى مع كثرة مصنفاته ومباحثه لا يوجد فيها ذكر المجاز البتة ، وهذه رسالته فى أصول الفقه لم ينطق فيها بالمجاز فى موضع واحد ، وكلام الائمة مدون بحروفه لم يحفظ عن أحد منهم تقسيم اللغة الى حقيقة ومجاز بل أول من عرف عنه فى الاسلام أنه نطق بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى ، فانه صنف فى تفسير القرآن كتابا مختصرا أسماه « مجاز القرآن » ، وليس مراده به قسيم الحقيقة فانه تفسير لألفاظه مما هى موضوعة له ، وانما عنى بالمجاز

ما يعبر به عن اللفظ ويفسر به » (١) وهكذا يمضى ابن القيم يستدل بأدلة كثيرة على نفى المجاز الذى يصفه بالطاغوت ، واذا كنا قد وصفنا مذهب ابن جنى فى المجاز وتوسعه فيه على نحو ما رأينا — بالتكلف والاسراف والمجافاة لطبيعة اللغة فاننا أيضا نصف مذهب ابن تيمية ومن تابعه مثل ابن قيم الجوزية وغيرهما بالجمود وعدم الدقة اذ يرى أن تقسيم اللفظ الى حقيقة ومجاز تقسيم حادث بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، وقد جاء الصواب فيما ذهب اليه ، لأن الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ استعمل كلمتى الحقيقة والمجاز بما يشتمل عليه المجاز من مجاز مرسل واستعارة تحقيقية وتمثلية كما فى كتابه الحيوان » (٢) فأما كون العرب لم تقسم لغاتها الى حقيقة ومجاز ، وكونها لم تميز بين هذين اللفظين فى كلامهم فانه لا ينهض دليلا على نفى المجاز ، لأن المجاز موجود فى لغتهم منذ نشأت ونمت وازدهرت يستعملونه فى شعرهم ونثرهم وخطبهم ، واذا لم يسم بهذا الاسم ، لأنه مصطلح علمى شأنه شأن بقية المصطلحات فى النشوء والتطور والتحديد الدقيق ، وأما عدم ذكرهم للفظى الحقيقة والمجاز فى القرون الأولى من عصر ازدهار اللغة فلكون العلوم لم تحدد بعد ولم تميز مصطلحاتها ، لأنهم كانوا ينطقون اللغة بالسليقة والفطرة ، ويدركون مزايا التعبير بأذواقهم الناضجة دون حاجة الى التقنين ووضع الضوابط والتقسيمات ، وأما كون المجاز لم يوجد فى كلام الخليل وسيبويه ، فانهما ليسا بصدد بيان الحقيقة من المجاز لأن دراستهما لغوية نحوية ، وقد كان سيبويه يطلق عليه ، لفظ التوسع

---

(١) الصواعق المرسلة لابن قيم الجوزية ص ٢٨٥ ط دار البيان — عابدين .

(٢) الحيوان ٥/٢٥ — ٢٨ .

فى القول ، وخلاصة القول : أن كلا الرأيين قد بعدا عن الصــــواب ، وأن اللغة تشتمل على الحقيقة كما تشتمل على المجاز ، وأن الحقيقة فيها أكثر من المجاز وليس العكس كما ذهب ابن جنى ٠٠ يقول ابن فــارس : والحقيقة أكثر الكلام واكثر آيات القرآن وشعر العرب ٠

١ — المجاز المرسل — لم يتحدد هذا المصــطلح عند ابن جنى وانما ذكر أمثلة تندرج تحته ، وكان مضطربا فى تحديد علاقاته التى عرفت بعد ، فعقد بابا فى الاكتفاء بالسبب من المسبب ، وبالمسبب من السبب ، بدأه بقوله : هذا موضع من العربية شريف لطيف وواسع لمتأمله كثير ، وكان أبو على يستحسنه ويعنى به منه قوله تعالى : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله » وتأويله — والله أعلم — فاذا أردت قراءة القرآن فاكتفى بالمسبب الذى هو القراءة من السبب الذى هو الارادة » (١) فالعلاقة هنا المســببية وهى اطلاق المسبب وارادة السبب فيكون اللفظ المذكور مسببا عن المعنى المراد المحذوف لفظه ، لأن الارادة الشىء عادة مؤذنة بقرب فعله ، فقراءة القــرآن تأتى عقب الارادة مباشرة بدون فاصل زمنى ، يقول الزمخشرى : فان قلت : لم عبر عن ارادة الفعل بلفظ الفعل ؟ قلت : لأن الفعل يوجد عند القصد والارادة بغير فاصــل وعلى حســـبه فكان منه بســبب قوى وملابســـة ظاهرة » (٢) ومنه قوله تعالى : « اذا قمتم الى الصـــلاة ٠٠ » الآية أى اذا أردتم القيام الى الصلاة » فحذفت الارادة التى هى سبب فى القيام واكتفى به عنها ، وقد جعل منه قوله تعالى : (فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) أى فضرب فانفجــرت فاكتفى بالمســـــبب الذى هو

---

(١) الكشاف ٢/٤٢٨ ٠
(٢) الخصائص ٣/١٧٣ ٠

الانفجار من السبب الذى هو الضرب » (١) ومما يؤكد ما ذكرناه من قوة الارتباط بين السبب والمسبب وأن وجود أحدهما كاف عن ذكر الآخر لقرب زمن الارادة من زمن مباشرة الفعل ما نراه من السر البلاغى لجملة السبب المحذوفة هنا وهو الدلالة على سرعة امتثال المأمور للآمر وأن اتباعه له كان بحيث لا حاجة الى أن يقال : « فضرب » لأن الضرب كأنه قد ثبت واستقر بحيث لا حاجة الى ذكره ، لأن المأمور فى الآية هو موسى عليه السلام وهو ليس ممن يشك فى سرعة امتثاله ، وقد استقيت هذا الفهم من تفسير الزمخشرى لقوله تعالى : « وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه ان اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا » اذ يقول : فان قلت: فهلا قيل فضرب فانبجست قلت : لعدم الالباس وليجعل الانبجاس مسببا عن الايحاء بضرب الحجر للدلالة على أن الموحى اليه لم يتوقف عن اتباع الأمر وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة الى الافصاح به » (٢) .

وفى الاكتفاء بالسبب عن المسبب لم يكن دقيقا فى توضيحه وذكر أمثلته فقد خلط بينه وبين الكناية والاستعارة وعلاقة أخرى من علاقات المجاز المرسل وهى « اعتبار ما سيكون » ففى قول الشاعر :

فان تبخل سدوس بدرهميها ... فان الريح طيبة قبول

يقول : أى أن بخلت تركناها وانصرفنا عنها فاكتفى بذكر طيب الريح المعين على الارتحال عنها » وواضح أن الريح الطيب ليس سببا فى الرحيل ، وانما هو كناية عنه ، وكقوله تعالى : « كانا يأكلان الطعام »

---

(١) الخصائص ٣/١٧٤ .
(٢) الكشاف ٢/١٢٤ .

معتبرا أن الأكل سبب لقضاء الحاجة ومن أمثلة الاستعارة التى عدها من قبيل اطلاق السبب وارادة المسبب قول الشاعر ٠

فان تعافوا العــدل والايمان   فــان فى أيمــاننا نيرانــا

يقول : يعنى سيوفا ، أى فانا نضربكم بسيوفنا فاكتفى بذكر السيوف من ذكر الضرب بها ، فالسيوف لم تذكر هنا وانما استـعار النيران لها ، وفى قوله تعالى (انى أرانى أعصر خمرا) يقول : وانما يعصر عنبا يصيــر خمرا ، فاكتفى بالمسبب الذى هو الخمر من السبب الذى هو العنب ، وهو من المجاز باعتبار ما سيكون وليس باعتبار المسببية ، لأن العنب ليس من شأنه أن يتحول الى خمر من تلقاء نفسه حتى يكون سـببا له ، ولذلك فهو يعود الى تصـحيح العلاقة فى هذا المثال فى المحتســب » (١) وفى قول الفرزدق :

قتلت قتيلا لم ير الناس مثله   أقبلــه ذا تومتين مســورا (٢)

يقول : وانما قتل حيا يصير بعد قتله قتيلا فاكتفى بالمســبب من السبب وواضح أن القتيل ليس مسببا عن الحياة أى أن الحياة ليســت سببا فى قتله ، وانما عبر عن الحى بالقتيل باعتبار ما سيؤول اليه ، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم : « من قتل قتيلا فله سلبه » ٠

كل هذا يدل على أن فكرة المجاز المرسل لم تكن قد استقرت بعد فى ذهن ابن جنى ، وانما ظلت مضطربة ، وكان حريصــا على ألا يطلق كلمة المجاز على هذه الأمثلة حتى لا يقع فى التناقض اذ هو يرى المجـــاز فقط

---

(١) أثر النحاه فى البحث البلاغى ص ٣٢٣ والمحتسب ١/٣٤٤ ٠
(٢) التومة : اللؤلؤة ، والمسور : لابس السوار ٠

ما توافر فيه الشروط الثلاثة ومنها التشبيه ، وهذا النوع لا يقـوم عـلى التشبيه » (١) .

المجاز العقلى — تحدث ابن جنى عن لون منه وهو التجوز فى النسبة بين المبتدأ والخبر كما لو كان الخبر مصـدرا حمل على المبتدأ ووصف به مثل قول الشاعر : فانما هى اقبال وادبار . يقول ابن جنى « انما ساغ ذلك — أى الوصف بالمصدر — لأنه أراد المبالغة ، وأن يجعله هو نفس الحدث لكثرة ذلك منه ، ويرى أن هذا الوجه هو الأقوى ، ويجوز وجه آخر وهو على حذف مضاف أى ذات اقبال وادبار ، ولكن الوجه الأول أصـنع من هذا وألطف (٢) ، وقد استفاد عبد القاهر من كلام ابن جنى هذا بل وجد فيه روح عبارته اذ يقول تعقيبا على قول الخنساء السابق : «لم ترد بالاقبال والادبار غير معناهما حتى يكون المجـاز فى الكلمة ، وانما المجـاز فى أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر كأنها تجسـمت من الاقبال والادبار ، وليس أيضا على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ، وان كانوا يذكرونه منه ، اذ لو قلنا : أريد : انما هى ذات اقبال وادبار أفسدنا الشعر على انفسنا ، وخرجنا الى شىء مغسول والى كلام عامى مرذول » ، (٣) وأشار الى التجوز فى النسبة الاضافية ، والى التجوز فى الاسناد الى الزمان ، ولم يزد فيهما شيئا عما قاله سيبويه .

التشبيه — أدخل ابن جنى التشبيه المحذوف الأداة فى باب المجاز فيقول فى قولهم : أنت الأسـد وكفك البحر ، فهذا لفظه لفظ الحقيقة

---

(١) أثر النحاة فى البحث البلاغى ٣٢٢ ، ٣٢٣ .
(٢) الخصائص ٢/٢٠٣ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٩٣ .

ومـذاهب المجاز والاتساع ، وتحدث عن التشبيه المقلوب في (باب : من غلبة الفروع على الأصول) يقول فيه : « هذا فصل من فصـــول العربية طريف تجده في معاني العرب كما تجده في معاني الاعراب ، ولا تكاد تجد شيئا من ذلك الا والغرض فيه المبالغة فمما جاء فيه ذلك للعرب قـــول ذي الرمة :

ورمل كأوراك العـذارى قطعته   اذا ألبسته المظلمات الحنـادس

أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعا ، والفرع أصلا ، وذلك أن العادة والعرف في نحو هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء ألا ترى الى قوله :

ليلى قضـــيب تحته كثيب   وفي القـلاد رشـــأ ربيب

وانما يريد نصف « ليلى » الأعلى كالقضيب ، وتحته ردف مثل الكثيب فقلب ذو الرمة العادة والعرف في هذا ، فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء وهذا كأنه يخرج مخرج المبالغة ، أي قد ثبت هذا الوضع ، وهـذا المعنى لأعجاز النساء ، وصار كأنه الأصل فيه ، حتى شبه به كثبان الأنقاء »(١) فقد أشار ابن جني الى الغرض من قلب التشبيه وهو المبالغة في الوصف وحديثه فيه لم نجده عند من سبقه ، وهو نتاج دراسات نحوية في جعل الأصل فرعا ، والفرع أصلا .

الاستعارة - تحدث ابن جني عن الاستعارة ، فقال : يقال قد بنى فلان بأهله ، وذلك أن الرجل كان اذا أراد الدخول بأهله بنى بيتا من أدم و قبة أو نحو ذلك من غير الحجر والمدر ثم دخل بها فيه فقيل لكل داخل بأهله هو بان بأهله ، وقد بنى بأهله ونحو من هذه الاستعارة في هذه الصـــناعة استعارتهم ذلك في الشرف والمجد قال لبيد .

---

(١) الخصائص ٢/١٧٧ .

فبنى لنا بيتا رفيعا سمكه فسما اليه كهلها وغلامها (١)

وتناول ابن جنى ما يسمى بالاستعارة فى الحروف ، وسماه التضمين

ويرى أن هذا الباب خال من الدقة والصنعة عند من سبقه من اللغويين والنحاة لأنه لا يعنيهم فيه الا أن يقولوا ، وضع هذا الحرف مكان ذاك وكفى ولم يصلوا الى دقة الصنعة لصنعة فيه ، ولم يميزوا المواضع التى يصح فيها استعمال الحروف بعضها مكان بعض ، ومن ثم فانه هو الذى وضع له الرسوم والحدود التى تضبطه فيقول : « ان الفعل قد يضمن معنى فعل آخر ، وكان أحدهما يتعدى بحرف ، والآخر بآخر فان العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه ايذانا بأن هذا الفعل فى معنى ذلك الآخر فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ماهو فى معناه وذلك كقوله عز اسمه : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم » وأنت لا تقول : « رفثت الى المرأة ، وانما تقول : رفثت بها أو معها ، لكن لما كان الرفث هنا فى معنى الافضاء وكانت تعدى « أفضيت » بالى كقولك : أفضيت الى المرأه جئت بالى مع الرفث ايذانا واشعارا أنه بمعناه ، وذكر أنه فصل من العربية لطيف حسن يدعو الى الأنس بها والفقاهة فيها » (٢) .

وتحدث ابن جنى عن ألوان بلاغية أخرى منها « القصر » وأشار الى فائدته عند توضيحه للمثل المشهور عن العرب « شرأهرذاناب » فانما ابتدئ « بشر » وهو نكرة لأنه فى معنى النفى ، والنفى من مسوغات الابتداء بالنكرة ، أى ما أهرذاناب الاشر » (٣) وفائدته التوكيد ، لأن الأمر يعنيه

---

(١) الخصائص ١/٣٩ ، ٤٠ .
(٢) الخصائص ٢/٣١٠ .
(٣) الخصائص ١/٣١٩ .

ويهمه ولذلك عظم الشر بتنكيره عند نفسه أو عند مستمعه ، وقدمه لشدة عنايته به واهتمامه ، وقد استفاد عبد القاهر من كلام ابن جنى فى مبحث تقديم النكرة .

وتحدث أيضا عن عطف الخاص على العام وذكر السر البلاغى له ، وتحدث عن « مثل » وأنها تجيء فى الكلام لغرض التوكيد والتثبيت نحو قولك « مثلك لا يفعل القبيح » لأنه أدخله فى جماعة لا تفعل القبيح فيكون أوكد فى نفى القبح عنه ، وتحدث عن التقديم والتأخير ما يجوز منه وما يقبح وما يكثر وما يقل ، وما يقبله القياس ومالا يقبله ، وما يجوز للضرورة وهذه كلها مباحث نحوية ، وان كان قد أشار فى المحتسب الى أهمية تقديم المفعول للعناية بشأنه ، وهو مسبوق فى هذا بسيبويه وان كان يرى أن العناية تقوى وتضعف بحسب الحالات ، فجعلها درجات متفاوته .

وتحدث عن بعض الأساليب التى تخرج عن مقتضى الظاهر كوضع المفرد موضع الجمع أو وضع المثنى موضع الجمع .

وتناول ابن جنى بعض الوان البديع كالتجريد والسجع والتجنيس واللف والنشر ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف بل انه أفرد بابا خاصا للتجريد (١) ووصفه بالطرفة والحسن ورأى أن أستاذه أبا على الفارسى — رحمه الله — كان مولعا به ، وقد تقصى ما ذكره أبو على فيه وجمعه فى هذا الباب ويعترف بأن الفضل فى التسمية ترجع اليه ، واستشهد له بأمثله كثيرة من الشعر والآيات القرآنية والتجريد عندهما قد يكون بمن أو بالباء أو بفى ، وذكر فائدته البلاغية ، وتحدث عن السجع (٢) وبين أثره

---

(١) الخصائص ٢/٤٧٣ .
(٢) الخصائص ١/٢١٦ .

فى النفس ولذة السامع به وارتياح الأذن له ، ومن ثم يسهل حفظه فى القلب بخلاف ما اذا عرى الكلام منه فان النفس لا تهش له ولا تطرب لسماعه ، وتحدث عن التجنيس وهو أن يتفق اللفظان ويختلف المعنى أو يتقارب .

وحديثه عن اللف والنشر لم يضف فيه جديدا على ما قاله المبرد بل سار على نهجه واقتبس منه ، وتحدث عن تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وقد اعترف بأنه مسبوق من العلماء بالحديث عنه كابن الأعرابى وثعلب ، وقد تناوله من قبل سيبويه وابن قتيبة وابن المعتز ، ولكن ابن جنى يبين فائدة هذا الاسلوب اذ فيه تكرار للمدح وتأكيد له ، ونقل عن ثعلب قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وهكذا كان ابن جنى له اليد الطولى فى تطور البحث البلاغى على نحو ما ذكرنا مما جعل كثيرا من علماء البلاغة يتأثر به وينقل عنه .

الباب الثانى

من جهود المفسرين فى البحث البلاغى

الفصل الأول : البلاغة عند أبى عبيده

الفصل الثانى : البلاغة عند الفراء

الفصل الثالث : البلاغة عند ابن قتيبة

الفصل الرابع : البلاغة عند القاضى عبد الجبار

الفصل الخامس : ألوان من بلاغة الزمخشرى

الفصل الأول

أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (١)

المتـــــوفى ســـــنة ٢٠٩هـ

هو أبو عبيده معمر بن المثنى التيمى تيم قريش أو تيم بنى مرة على خلاف بينهم ، ولد فى سنة ١١٠هـ ، أخذ النحو والشعر والغريب عن أبى عمرو بن العلاء ، وعن أبى الخطاب الاخفش ، وعيسى بن عمر الثقفى ، يقول عنه الجاحظ « لم يكن فى الأرض خارجي ولا جماعى أعلم بجميع العلوم من « أبى عبيدة » .

ومن اشهر مؤلفات أبى عبيده كتاب « مجاز القرآن » الذى ألفه ليرد به على ابراهيم بن اسماعيل الكاتب الذى سأله عن قوله تعالى : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » وانما يقع الوعد والوعيد بما عرف مثله وهذا لم يعرف » يريد السائل ان يتبين صحة هذا الوصف ، لأن رؤوس الشياطين لم تعرف ولم يرها أحد فى الواقع المشاهد فيجيب أبو عبيدة على هذا التساؤل اجابة مقنعة أعجبت الحاضرين فى مجلس الفضل بن الربيع واستحسنها السائل فقال أبو عبيدة : « انما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضـــاجعى   ومسنونة زرق كأنياب أغـوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكن لمـا كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به فاستحسن الفضل هذا البيان واستحسنه ابراهيم بن اســـماعيل الكاتب ثم قال أبو عبيدة وعزمت فى ذلك اليوم أن أضع كتابا فى القرآن فى مثل هذه واشباهه ، وما يحتاج اليه من علمه ، فلما رجعت الى البصرة عملت كتابى الذى سميته المجاز » .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ١٩٥٨/١٩ .

وهذا ما عرف بعد بالتشبيه الخيالي الذي يتصور في الوهم ، فرؤوس الشياطين ، وان كانت غير موجودة ولم تقع تحت حواس الناس في الواقع الا أنها صارت رمزا لكل ما يهول ويخيف ، واستدل أبو عبيدة ببيت امرىء القيس ليبين ان هذا الوصف والتشبيه في النظم القرآني انما جاء على سنن العرب وطريقتهم في التعبير .

وقد بدأ أبو عبيدة كتابه بمقدمة بين فيها أن القرآن أنزل بلسان عربي مبين لقوله تعالى : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » وأن السلف من الصحابة – رضوان الله عليهم – الذين أدركوا وحي القرآن الى النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا في حاجة الى أن يسألوا عن معانيه ، لأنهم كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص ، وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الاعراب ومن الغريب والمعاني » (١) .

فالغرض الذي يرمي اليه أبو عبيدة من كلامه هذا ان الصحابة في صدر الاسلام كانوا يدركون خصائص البيان القرآني وما تهدف اليه ألفاظه وتراكيبه وأنها على النمط الذي جاء في كلام العرب على ألسنة فصحائهم وبلغائهم ، وذلك لنضج ملكاتهم ولسلامة ذوقهم وقوة سليقتهم ، ومن ثم لم يكونوا في حاجة الى أن يسألوا عن معانيه هل يوجد لها نظير في كلام العرب أولا يوجد ، ولكن لما ضعفت الملكات وتسرب اللحن الى الألسنة والفساد الى الذوق نتيجة اختلاط العناصر المختلفة من الأعاجم بالعرب وتمازج الثقافات بالثقافة العربية أحس الناس بحاجتهم الى السؤال عن معاني القرآن وعما يوجد مثله في كلام العرب ، وكان هذا حافزا لأبي عبيدة

---

(١) مجاز القرآن ١/٨ .

الى أن يتناول ما فى القرآن من أوجه الاعراب والمعانى التى تفهم من الفاظه وتراكيبه وأن يبين أنها انما جاءت على سنن العرب وطريقتهم فى التعبير ٠

ولذا فان المجاز عند ابى عبيدة ليس بمعناه الاصطلاحى الذى استقر عليه البلاغيون وانما بمعناه اللغوى وهو الطريق والممر الذى يتوصل منه الى فهم كتاب الله دفاعا عنه وعن أساليبه ، وأنها لا تخرج عن طريقة العرب فى التعبير والبيان ، ولذلك كان يأتى بالآية أو بالجملة أو باللفظة يبين مجازها أى معناها أو تفسيرها ويستشهد لها بما أثر عن العرب من المنظوم والمنثور مما هو على طريقتها فى التعبير والبيان ولذلك كان يأتى بالآية أو بالجملة أو باللفظة يبين مجازها أى معناها أو تفسيرها ويستشهد لها بما أثر عن العرب من المنظوم والمنثور مما هو على طريقتها فى التعبير والبيان وفى أثناء ذلك كانت له اشارات بلاغية قيمة فى عصره انتفع بها من جاءوا بعده ، ويمثل هذا الكتاب مرحلة هامة من مراحل النشوء والتطور البلاغى فى وقت لم تكن فيه مصطلحات البلاغة قد حددت بعد ، وسنتناول بلاغته من خلال تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم وايراده للأمثلة والتطبيقات من كلام العرب نظمه ونثره ٠

أولا : النظر فى المفردات :

تناول أبو عبيده بعض المفردات بالتفسير والبيان سواء من حيث مادتها أو من حيث صيغتها ، واستشف منها بذوقه واحساسه اللغوى ما توحى به هذه المفردات من لطائف المعانى فى سياق النظم القرآنى ففى قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا » يقول : عوجا مكسورة الأول لأنه فى الدين ، وكذلك فى الكلام والعمل ، فاذا كان شىء قائم نحو الحائط والجذع فهو عوج مفتوح الأول » (١) فاللفظ الواحد قد يتغير مدلوله بسبب تغير حركة من حركات

---

(١) مجاز القرآن ٩٨/١

حروفه فعوج بكسر الفاء مختص بعدم استقامة المعانى دون الأعيان وعوج بفتح الفاء مختص بعدم استقامة الأعيان دون المعانى ، وقد استفاد منه الزمخشرى فى تفسيره عند قوله تعالى : قرآنا عربيا غير ذى عوج » فيقول : « فان قلت : فهلا قيل : مستقيما أو غير معوج ؟ قلت : فيه فائدتان : احداهما نفى أن يكون فيه عوج قط كما قال : « ولم يجعل له عوجا » والثانية أن لفظ العوج مختص بالمعانى دون الأعيان » (٢) بل اننا نجد الزمخشرى ينفذ ببصيرته الواعيه وذوقه الناضج الى السر البلاغى وراء نقل استعمال الكلمة من المعانى المختصة بها الى الأعيان ومدى ملاءمتها للسياق فيقول فى قوله تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » : فان قلت : قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا العوج بالكسر فى المعانى والعوج بالفتح فى الأعيان ، والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين ؟ قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع فى وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون ، وذلك أنك لو عمدت الى قطعة أرض فسويتها وبالغت فى التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة واتفقتم على أنه لم يبق فيها عوج قط ثم استطلعت رأى المهندس فيها ، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج فى غير موضع ، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ، ولكن بالقياس الهندسى فنفى الله عز وجل ذلك العوج الذى دق ولطف عن الادراك اللهم الا بالقياس الذى يعرفه صاحب التقدير والهندسة وذلك الاعوجاج لما لم يدرك الا بالقياس دون الاحساس لحق بالمعانى فقيل عوج بالكسر » (٢) ويدرك أبو عبيدة دلالة صيغة المبالغة فى قوله تعالى : « قوامين لله شهداء بالقسط » فيقول : أى قائمين بالعدل يقومون

---

(١) الكشاف ٣٩٦/٣

(٢) الكشاف ٥٥٣/٢ وانظر البلاغة القرآنية : ٢١٦ .

به ويدومون عليه » (١) فالعدول عن الفعل الى الوصف الدال على المبالغة يدل على دوام القيام بالعدل والثبات عليه ٠

ويتنبه أبو عبيده الى وضع المصدر موضع الصفة وان كان لا يرشدنا الى السر البلاغى الذى يفهم منه فيقول عند قـــوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله » : فالعرب تجعل المصادر صفات فمجاز البر هاهنا مجاز صفة لمن آمن بالله ، وفى الكلام ولكن البار من آمن بالله » (٢) ففى العـــدول عن الصفة الى المصــــــدر مبالغة فى الوصف بالبر ، فكأن من اتصف بهذه الصفات من الايمان بالله واليوم الآخر ٠٠ الخ الآية » قد تمحض فيه البر وتجسم فيه كما فى قول الشاعر : فانما هى اقبال وادبار ٠

ويبين ما جاء على لفظين لاختلاف قراءات الأئمة كما فى قوله تعالى : « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » يقول : وقرأها آخرون « فتثبتوا » (٣) وهى قراءة عبد الله بن مسعود والتثبت والتبين متقاربان وهما طلب الثبات والبيان والتعرف » (٤) ٠

دلالات التراكيب :

١ – الالتفات – أشار أبو عبيدة الى الالتفات وان كان لم يسمه باسمه فيقول : ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه الى مخاطبة الغائب قول الله تعـالى : « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » أى بكم ، ومن مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد قال :

---

(١) مجاز القرآن ١/١٥٦ ٠
(٢) مجاز القرآن ١/٦٥
(٣) مجاز القرآن ١/١٣
(٤) الكشاف ٣/٥٦٠ ٠

« ثم ذهب الى أهله يتمطى أولى لك فأولى » (١) وتحدث عن الالتفات أيضا في كتاب النقائض بين جرير والفرزدق في أثناء شرحه لبيت جرير وهو :

أقول وقد طالت لذكراك ليلتي اجدك لا تسرى لنا بى نجـومها

يقول : معناه : هو اجد منك ياليلة . خاطبها ثم رجع عن المخــاطبة فقال : ما تسرى نجومها طولا على » (٢) فالالتفات هنا من الخطــاب الى الغيبة ، ولم يذكر أبو عبيدة بقية صــور الالتفات وهى الانتقال من التكلم الى الخطاب أو من الخطاب الى المتكلم ، ومن الغيبة الى التكلم أو من التكلم الى الغيبة ، لأن للالتفات ست صور تحدث عن اثنتين منها .

٢ ـ وتحدث عن لون آخر من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وهو التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى كما فى قوله تعالى : « وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يســتنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » يقول : « وهبت » فى موضع (تهب) والعرب تفعل ذلك . قال : انا يسمعوا طاروا بها فرحا .. أى يطيروا (٣) وتنبه أبو عبيــدة الى ما فى الآية أيضا من الالتفات وهو الانتقال من الخطاب الى الغيبة ثم الرجوع الى الخطاب فقال : والعرب قد تخاطب فتخبر عن الغائب والمعنى للشــاهد ، فترجع الى الشاهد فتخاطبه قال عنترة :

شطت مزار العاشقين فأصــبحت عسرا على طلابك ابنة مخـرم

وتوضــيح الالتفــات فى الآية : هو أن الله تعــالى خاطب نبيه بقوله : « ياأيها النبى انا أحللنــا لك أزواجك .. الى قوله : « وبنــات خالاتك اللاتى هاجرن معك » ثم عدل عن هــذا الخطــاب الى الغيبــة فى

(١) مجاز القرآن ١/١١ .
(٢) النقائض : ١١١ .
(٣) مجاز القرآن ٢/١٣٩ .

قوله : تعالى : « وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسـها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها » ثم رجـع الى الخطاب ثانية فى قوله : خالصة لك من دون المؤمنين » ولم يوضح أبو عبيده السر البلاغى الالتفات مكتفيا بأنه من طرق العرب فى التعبير كما هى عادته وكما هو منهجه . والزمخشرى يوضح لنا السر البلاغى له فيقول : « فان قلت : لم عدل عن الخطـاب الى الغيبة فى قوله تعالى « نفسـها للنبى ان أراد النبى » ثم رجع الى الخطاب ؟ قلت : للايذان بأنه مما خص به وأوثر ، ومجيئه عـلى لفظ النبى للدلالة على أن الاختصاص تكرمه له لأجل النبوة » وتكريره : تفخيم له وتقرير ، لاستحقاقه الكرامة لنبوته (١) .

٣ ـ وتحدث أبو عبيدة عن وضع الجمع موضع الواحد ، ووضـع الواحد موضع الجمع ، وهو أيضا من خروج الكلام على خـلاف مقتضى الظاهر ، فيرى أن اللفظ قد يكون للجمع والمعنى يقع عـلى الواحد ، وقد يكون اللفظ للواحد والمعنى يقع على الجمع ففى قوله تعالى : الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم » يقول : وقع المعنى على رجـل واحد ، والعرب تفعل ذلك ، فيقول الرجل : فعلنا كذا وفعلنا ، وانما يعنى نفسه ، وفى القرآن : « انا كل شىء خلقناه بقدر » . والله هو الخالق » (١) .

ويقول عند قوله تعالى : « وحسن أولئك رفيقا » : أى رفقاء والعرب تلفظ بلفظ الواحد والمعنى يقع على الجمع قال العباس بن مرداس :

فقلنا اسـلموا انا أخـوكم فقد برئت من الاحن الصـدور

وفى القرآن « يخرجكم طفلا ، والمعنى : أطفالا » (٢) .

---

(١) الكشاف ٣/٢٦٨ .
(٢) مجاز القرآن ١/١٣٤ .

٤ ـ وتحدث أبو عبيدة عن ما عرف عند البــلاغيين بالقلب فيقول : والعرب تريد الشيء فتحوله الى شيء من سببه ، يقولون : اعرض الحوض على الناقة ، وانما تعرض الناقة على الحوض ، ويقــولون : هذا القميص لا يقطعني ، ويقولون : أدخلت القلنسوة فى راسى ، وانما أدخلت رأسك فى القلنســوة وفى القرآن : « ما ان مفــاتحه لتنوء بالعصــبة » أى ما ان العصبة لتنوء بالمفاتح أى تثقلها » (١) والقلب : هو أن يجعل جزء من الكلام مكان آخر ويجعل الآخر مكانه على وجه يثبت حــكم كل منهما للآخر ويجب أن يتضمن القلب اعتبارا لطيفا حتى يكون ذا فائدة فاذا قلت : عرضــت الناقة على الحوض كان قلبا ، لأن الأصل أن يقال : عرضت الحوض على الناقة لأن المعروض عليه يجب ان يكون ذا اختيار ليتسنى له قبول المعروض عليه أو رده ، والناقة هى التى يتصور فيها الاختيار فتشرب من الحوض ان رغبت فى ذلك أو ترفض الشرب ان رغبت عنه ، ولا يتصــور شيء من ذلك فى الحوض ، وعلى هذا بقية الأمثلة .

ـ التقديم والتأخير :

أشار ابو عبيدة الى التقديم والتأخير مبينــا أنه من طرق العرب فى التعبير ، ولم يبين أسراره ودواعيه فلم يزد على قوله : هذا مقدم ومؤخــر عند التمثيل به ففى قوله تعالى : « فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » يقول : مقدم ومؤخر ، مجازه : كذبوا فريقا ، ويقتلون فريقا ، وفى قوله تعــالى « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله » يقول: مقدم ومؤخر ، لأن الاستعاذه قبل القراءة » (٢) والبلاغيون المتأخرون لم يروا فيه تقديما ولا تأخيرا ، لأنه على

---

(١) مجاز القرآن ١/٦٥ .
(٢) مجاز القرآن ١/٣٦٨ .

تقدير الارادة أى اذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله ، وعلى هذا يكون الكلام مستقيما من غير حاجة الى تقديم وتأخير ، وجعلوه من باب المجاز المرسل وعلاقته المسببية أى أن القراءة مسببة عن الارادة فسميت باسمها • وجعل أبو عبيدة قوله تعالى « خلق الانسان من عجل » من المقدم والمؤخر فقال : « خلق العجل من الانسان » وهو العجلة ، والعرب تفعل هذا اذا كان الشيء من سبب الشيء » (١) بدأوا بالسبب أى أن الانسان سبب فى العجلة وهى مسببة عن الانسان فقدم السبب على المسبب •

الاستفهام :

تحدث أبو عبيدة عن الاستفهام حديثا فيه نوع من التفصيل والتحديد ينم عن ذوقه وتفهمه لهذه الأساليب ، والافصاح عن بعض أغراضه البلاغية التى استقرت عند البلاغيين المتأخرين ، فيرى أن الاستفهام قد يكون فى معنى الخبر كما فى قوله تعالى : (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذهم لا يؤمنون » يقول أبو عبيدة « هو اخبار خرج مخرج الاستفهام لأن المعنى : انذارك اياهم وعدم انذارك سواء » (٢) فما قرره أبو عبيدة فى هذا الموضع هو ما استقر عليه البلاغيون ، فالزمخشرى يرى أن الهمزة وأم جردتا لمعنى الاستواء ، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأسا واستشهد بكلام سيبويه فقال : قال : سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، يعنى أن هذا جرى على صورة الاستفهام ، ولا استفهام ، كما أن ذلك جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء »(٣)

---

(١) مجاز القرآن ٢/٣٨ .

(٢) مجاز القرآن ١/٣١ .

(٣) الكشاف ١/١٥٢ ، ١٥٣ .

ويوضح أبو عبيدة خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي الى معان أخرى تفهم من السياق منها :

النهى عن الفعل والتهديد به والتحذير منه ·

كما فى قوله تعالى : « أأنت قلت للناس اتخـذونى وأمى الهين من دون الله » يقول أبو عبيدة : هذا باب تفهيم وليس باستفهام عن جهل ليعلمه وهو يخرج مخرج الاستفهام ، وانما يراد به النهى عن ذلك ، ويتهدد به ، وقد علم قائله أكان ذلك أم لم يكن ، ويقول الرجـل لعبده : أفعلت كذا ؟ وهو يعلم أنه لم يفعله ، ولكنه يحذره ·

وقال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

ولم يستفهم ، ولو كان استفهاما ما أعطاه عبد الملك مائة من الابل برعاتها » (١) أراد أبو عبيدة أن يقرر فى الأذهان أن هذا ليس استفهاما حقيقيا ، لأن الاستفهام الحقيقى هو طلب حصول صـورة الشىء فى ذهن المتكلم ، والمتكلم هنا هو رب العزة وهو يعلم أنه لم يقله ولكنه أراد أن يقرره بأنه لم يقل لهم هذا ليكون اقراره حجة دامغة على النصـارى الذين ادعوا الوهية المسيح وأمه ، تعالى الله عما يدعون علوا كبيرا ، وفيه تحذير وتهديد لهم كما قال أبو عبيدة ·

افادة معنى النفى كما فى قوله تعـالى : « هل يجـزون الا ما كانوا يعملون » يقول أبو عبيدة مجازها هنا مجاز الايجاب ، وليس باسـتفهام

---

(١) مجاز القرآن ١/١٨٤ ·

مجازه : ما يجزون الا ما كانوا يعملون » (١) يقصد أبو عبيدة بالايجاب ما يفهم من النفى والاستثناء من أن الجزاء يكون بالعمل وحده ·

وقد يستفاد مع النفى معنى التقرير كما فى قوله تعالى « هل يستويان مثلا » بعد قوله « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والسميع والبصير » · يقول أبو عبيدة « ليس موضع هل هاهنا موضع الاستفهام ، ولكن موضعها ههنا موضع الايجاب أنه لا يستويان » (٢) وموضع تقرير وتخبير أن هذا ليس كذلك يريد أبو عبيدة بالايجاب أن السؤال وضع موضع الجواب، فلو أن سائلا · استفهم على الحقيقة فى هذه الحال فقال · « هل يستويان مثلا » لقيل فى الجواب : لا يستويان ·

وفى قوله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة : « أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون » يقول أبو عبيدة : مجاز الألف ههنا مجاز الايجاب والاخبار والتقرير وليست بألف الاستفهام بل هى تقرير للذين عبدوا الملائكة » (٣) فالخطاب وان كان للملائكة الا أن القصد منه تقريع الكفار وتوبيخهم على ضلالهم على طريقة قولهم : اياك أعنى واسمعى ياجارة ·

وقد يكون الاستفهام بمعنى التحقيق كما فى قوله تعالى : هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » أى قد أتى على الانسان ·»

الأمر :

واذا كان الاستفهام قد خرج عن معناه الحقيقى الى معان وأغراض أخرى بلاغية فان الأمر أيضا يخرج عن معناه الحقيقى وهو « طلب الفعل ممن هو دونك على جهة الاستعلاء » الى معان وأغراض بلاغية ، أشار أبو عبيدة

(١) مجاز القرآن ٢/١٥٠ ·
(٢) مجاز القرآن ١/٢٨٧ ·
(٣) مجاز القرآن ٢/١٥٠ ·

الى واحد منها وهو افادة التهديد والوعيد عند قوله تعالى : « فتمتعوا فسوف تعلمون » يقول : مجازه مجاز التوعد والتهدد ، وليس بأمر طاعة ولا فريضة » (١) انما هو على طريقة قوله تعالى : « اعملوا ماشئتم » أى أفعلوا ما تهواه نفوسكم من الكفر والالحاد في آيات الله فستترون جزاء فعلكم . لأن الله مطلع عليها ومسجلها عليكم ، فليس المراد ظاهر الأمر وهو أمرهم بالكفر والالحاد انما هو توعد وتهديد .

المجاز بالحذف : أشار أبو عبيدة الى بعض أنواعه مبينا سببه وهو اختصار الكلام وتخفيفه لعلم المستمع بالمحذوف فتحدث عن حذف الخبر ، وحذف جملة القول .

فأما حذف الخبر فأشار اليه في قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » يقول : هما مرفوعان كأنهما خرجا مخرج قولك : « وفى القرآن السارق والسارقة ، أو وفى الفريضة السارق والسارقة » (٢) ، ويقول في موضع آخر : والعرب تقتصر على أحد هذين الاسمين ، فأكثره الذى يلى الفعل قال عمرو بن امرىء القيس :

نحن بما عندنا وأنت بما عنـــ ـــدك راض والرأى مختلف (٣)

تقدير الخبر المحذوف من الجملة الأولى « راضون » وذلك لدلالة الخبر المذكور فى الجملة الثانية عليه وهو «راض» وحذف الموصوف في قوله تعالى : « أن اعمل سابغات » أى دروعا واسعة طويلة » (٤) وأشار الى حذف المضاف فى قوله تعالى : « واشربوا في قلوبهم العجل » يقول : أى حب

---

(١) مجاز القرآن ٢/١٢٢ .
(٢) مجاز القرآن ٢/٦٦ .
(٣) مجاز القرآن ١/٣٩ .
(٤) مجاز القرآن ٢/١٤٣

العجل سقره حتى غلب عليهم مجازه مجاز المختصر ،وفي قوله تعالى:«واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها يقول : فهذا محذوف فيه ضمير مجازه : واسأل أهل القرية ومن في العير » (١) وفي الحذف مبالغة في المعنى كما يبدو لمن تأمله لأن بني اسرائيل قد ألفوا عبادة العجل حتى تمكن حبه في قلوبهم ، وفي الآية الثانية افادة العموم ٠

وتحدث عن حذف جملة جواب الشرط في قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » مجازه مجاز المكفوف عن خبره ثم استؤنف فقال : « بل لله الأمر جميعا » فمجازه : لو سيرت به الجبال لسارت ، أو قطعت به الأرض لتقطعت ، ولو كلم به الموتى لنشرت والعرب تفعل هذا لعلم المستمع به استغناء عنه واستخفافا في كلامهم » (٢) وتعرض أبو عبيدة لحذف جملة القول في مواضع كثيرة منها ما ذكره في قوله تعالى : « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم » العرب تختصر لعلم المخاطب بما أريد به ، فكأنه خرج مخرج قولك : « فأما الذين كفروا فيقول لهم أكفرتم بعد ايمانكم ، فحذف هذا واختصر الكلام » (٣) ٠

وفي قوله تعالى : «ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا » يقول : والعرب تختصر الكلام ليخففوه لعلم المستمع بتمامه فكأنه في تمام القول ، ويقولون : « ربنا ما خلقت باطلا » ٠

وأشار أبو عبيدة الى حذف جملة الحال في قوله تعالى « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما » فيقول : مجاز « دعانا لجنبه» مجاز المختصر الذي فيه ضمير كقولك : دعانا وهو مضطجع لجنبه) يتضح

---

(١) مجاز القرآن ١/٨ ٠
(٢) مجاز القرآن ١/٣٣٢
(٣) مجاز القرآن ١/١٠٠ ، ١٠١

مما تقدم أن أبا عبيدة يرى أن الحذف من طرق العرب في التعبير ، وذلك للايجاز والاختصار ، والتخفيف لعلم المستمع بالمحذوف وبمكانه من السياق .

التكرار - تحدث عنه أبو عبيدة وذكر البلاغي له وهو التوكيد كما في قوله تعالى : « اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين يقول : أعاد الرؤية في الآية ، وهو من مجاز المكرر للتوكيد . وفي قوله تعالى : « أولى لك فأولى » أعاد اللفظ وكرره للتوكيد ، ومنه قوله تعالى: « فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة » (١) وقد سبق أبو عبيدة بالحديث عن التكرار في كتاب سيبويه ..

الاستئناف - أشار اليه أبو عبيدة - وهو من مواضع الفصل - في قوله تعالى : « ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لأنفسهم » يقول : ثم استأنف الكلام فقال : « انما نملي لهم ليزدادوا انما » فكسرت ألف انما للابتداء ، فانما أبقيناهم الى وقت آجالهم ليزدادوا انما » (٢) واتضح الاستئناف في هذه الآية عند الزمخشري اذ يقول : وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها ، كأنه قيل : ما بالهم لا يحسبون الاملاء خيرا لهم ؟ فقيل : انما نملي لهم ليزدادوا اثما » (٣) .

ويبين أبو عبيدة دلالات متنوعة لبعض الأفعال ومواقعها المناسبة في التراكيب فيقول في قوله تعالى : « لم يكد يراها » : لباب كاد مواضع : موضع للمقارنة ، وموضع للتقدير والتأخير ، وموضع لا يدنو لذلك وهو لم يدن لأن يراها ولم يرها فخرج مخرج لم يرها ولم يكد، وقال في موضع المقاربة: ما كدت أعرف الا بعد انكار ، وقال في الدنو : كاد العروس أن يكون

---

(١) مجاز القرآن ١/١٢ .
(٢) مجاز القرآن ١/١٠٩
(٣) الكشاف ١/٤٨٢

أميرا » (١) يفهم من كلام أبى عبيدة أن « كاد » فى هذه الآية موضعها موضع التقديم والتأخير أى لم يرها ولم يكد وهو يفيد المبالغة فى نفى الرؤية أى لم يقرب أن يراها ، فضلا عن أن يراها ، وأشار أبو عبيدة الى ما عرف باسم الكلام المنصف فى قوله تعالى : « وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » فيقول : قال قوم قد يكتلم بهذا من لا يشك فى دينه ، وقد علموا أنهم على هدى وأولئك فى ضلال مبين ، فيقال : هذا وان كان كلاما واحدا على وجه الاستهزاء » (١) .

ثانيا : مباحثه فى علم البيان :

١ – التشبيه والتمثيل – لم يتضح فى ذهن أبى عبيدة الفرق بين التمثيل والتشبيه ، وانما هما عنده بمعنى واحد ، فهما لفظان مترادفان ، ويطلقهما احيانا على ما عرف باسم الاستعارة التمثيلية ففى قوله تعالى : « فأتى الله بنيانهم من القواعد » يقول : « مجازه مجاز المثل والتشبيه والقواعد الأساس اذ ستأصلوا شيئا قالوا هذا الكلام » (٢) وهو من الاستعارة التمثيلية ، لأن التشبيه انما وقع فى الحال والأمور المنتزعة « يعنى أنهم سووا منصوبات ليمكروا بها الله ورسوله فجعل الله هلاكهم فى تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وهلكوا » (٣) .

وقد تجتمع الكناية مع التشبيه كما فى قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » يقول : « كناية وتشبيه » (٤) شبهن بالمحارث تشبيهها لما يلقى فى

---

(١) مجاز القرآن ٢/١٤٨
(٢) مجاز القرآن ١/٣٩٥ .
(٣) الكشاف ٢/٤٠٧ .
(٤) مجاز القرآن ١/٨٠ .

أرحامهن من النطف التي منها النسل(١) أما الكناية فهى فى الجملة التى بعدها وهى قوله تعالى : « فأتوا حرثكم أنى شئتم » .

وقد يطلق التمثيل فقط على بعض الصور ، منها ما ذكره عند قوله تعالى « فردوا أيديهم فى أفواههم » اذ يقول : « مجازه مجاز المثل وموضعه موضع كفوا عما أمروا بقوله من الحق ولم يؤمنوا به ، ولم يسلموا ، ويقال رد يده فى فمه أى أمسك اذا لم يجب » (٢) هذه الآية من استعارة التمثيلية مما يدل على أنه كان لا يفرق بين التشبيه والتمثيل وبينهما وبين الاستعارة التمثيلية ، لأن بيان الفروق بينهما كان فى مرحلة متأخرة عندما نضج البحث البلاغى وازدهر .

واذا نظرنا فى كتاب النقائض بشرح أبى عبيدة فاننا نجد الصورة التشبيهية فيه أوضح مما فى كتابه مجاز القرآن ، فنراه يذكر أركان التشبيه الأربعة وهى المشبه ، والمشبه به ، والوجه ، والأداة من خلال شرحه لأبيات الكتاب ففى قول جرير .

كأن رسوم الدار ريش حمامة   محاها البلى فاستعجمت أن تكلما

يقول : شبه الدار بريش حمامة لاختلاف لونها (٣) .

وفى قول البعيث يهجو جريرا :

الا حييا الربع القواء وسلما   وربعا كجثمان الحمامة أدهما

---

(١) الكشاف ١/٣٦٢ .
(٢) مجاز القرآن ١/٣٣٦ .
(٣) النقائض ١/٧٣

يقول : شبه الربع وما فيه من لون الرماد والدمنه وأثر مصب اللبن وأثر بياض الأرض بريش القمرية لما فيه من السواد والبياض (١) ·

بل أشار الى التشبيه المقيد من خلال شرحه للبيت من غير ان يذكر لفظه التقييد ففى قول الشاعر :

يمشون فى حلق الحديد كما مشت   حرب الجمال بها الكحيل المشعل

يقول : شبه الرجال لعظمهم ولون الحديد عليهم بالجمال المهنوءة بالقطران (٢) ·

٢ - الأستعارة - لانكاد نعثر على لفظ الاستعارة فى مجاز القرآن وان كنا نجد تحليلا لها فى بعض المواضع كما فى قوله تعالى : « ولما سكت عن موسى الغضب » يقول : أى سكن ، لأن كل كاف عن شيء فقد سكت عنه (٣) ويطلق التشبيه على بعض صور الاستعارة كما يطلق التمثيل على بعض صور الاستعارة التمثيلية كما مضى ففى قوله تعالى : « فمنهم من يمشى على بطنه » يقول : فهذا من التشبيه ، لأن المشى لا يكون على البطن انما يكون لمن له قوائم . فاذا خلطوا ماله قوائم بما لا قوائم له جاز ذلك كما يقولون : أكلت لبنا ، ولكن يقال : أكلت خبزا » (٤) أما فى كتاب النقائض فاننا نجده يطلق لفظ الاستعارة فى بعض المواضع منها ما ذكره فى شرح بيت الفرزدق ·

لا قوم أكرم من تميم اذ غدت   عوذ النساء يسقن كالآجال

قوله : عوذ النساء هن اللاتى معهن أولادهن ، والأصل فى عوذ الابل التى معها أولادها ، فنقلته العرب الى النساء وهذا من المستعار ، وقد تفعل العرب ذلك كثيرا · (٥) وفى قول جرير :

---

(١) النقائض ٤٢/١ ·

(٢) النقائض ١٨٣/١

(٣) مجاز القرآن ٢٢٩/١

(٤) مجاز القرآن ٦٨/٢

(٥) النقائض ٣٧٥/١

واللؤم قد خطم البعيث وأرزمت   أم الفرزدق عند شر حوار

يقول : أرزمت يعنى : حنت ، وهو حنين الناقة فاستعاره من الناقة وصيره لأم الفرزدق ، وقد تفعل العرب ذلك كثيرا يعنى أن أم الفرزدق حنت عند شر مولود » (١) وأصل الاستعاره فى هذين البيتين هى فى نقل الأوصاف الخاصة بالابل الى النساء .

وأشار الى وضع بعض حروف الجر مكان بعض مما عرف بعد ذلك بالاستعارة فى الحروف فيقول فى قوله تعالى : « لأصلبنكم فى جذوع النخل » معناه على جذوع النخل (٢) المجاز المرسل — تحدث أبو عبيدة عما عرف بعد ذلك باسم المجاز المرسل ففى قوله تعالى : « وأرسلنا السماء عليهم مدرارا » يقول : مجاز السماء هاهنا مجاز المطر يقال : مازلنا فى سماء أى فى مطر ، وما زلنا نطأ السماء أى أثر المطر . ومجاز أرسلنا امطرنا .. » (٣) وهو مجاز مرسل علاقته المجاورة لكون المطر ينزل من جهة السماء .

وفى قوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » يقول : أى بقوة فهذه الاشارة تفيد أن اليد استعملت فى معنى القدرة لأن اليد سبب فى القوة فتكون مجازا مرسلا علاقته السببية .

المجاز العقلى — يقول أبو عبيدة فى تفسير قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا » له مجازان أحدهما : أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم فى موضع الفاعل . والمعنى أنه مفعول . لأنه ظرف يفعل فيه غيره لأن النهار لا يبصر ولكنه يبصر فيه فالذى ينظر ، وفى القرآن « فى عيشة راضية ، وانما يرضى بها الذى يعيش فيها » (٤) فأشار

---

(١) النقائض ١/٣٣٤ .
(٢) مجاز القرآن ١/١٨٦
(٣) مجاز القرآن ١/٤٦
(٤) مجاز القرآن ١/٢٧٩

أبو عبيدة الى علاقة المجاز فى الآية وهى الزمانية بقوله : لأنه ظرف يفعل فيه غيره » فقد وصف النهار بالابصار على المجاز ، لأن النهار لا يبصر ، وانما يبصر فيه الناس مطالب أرزاقهم ومكاسبهم ، وفى الآية الثانية أسند ماحقه ان يسند الى المفعول الى الفاعل ، لأن العيشة تكون مرضية ، لا راضية ويقول فى موضع آخر : « والنهار مبصرا » مجازه مجاز ما كان العمل والفعل فيه لغيره أى يبصر فيه ، ألا ترى أن البصر انما هو فى النهار ، والنهار لايبصر ، كما أن النوم فى الليل ولا ينام الليل ، فاذا نيم فيه قالوا ، ليله نائم ونهاره صائم قال جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطى بنائم (١)

الكناية : تحدث عنها أبو عبيدة وذكرها بلفظها فيقول فى قوله تعالى « أو جاء أحد منكم من الغائط » كناية عن اظهار لفظ قضاء الحاجة فى البطن وكذلك قوله تعالى « أو لمستم النساء » كناية عن الغشيان » (٢) والضمير عند أبى عبيدة يسميه كناية فيقول عند قوله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن .. الآية » : « من » تقع على الواحد وعلى الجميع والذكر والأنثى ، ولفظها لفظ الواحد ، فجاء الأول من الكناية على لفظ «من» وان كان المعنى يقع على الجميع ، ثم جاء الآخر من الكناية على معنى الجميع فقال : ولنجزينهم أجرهم .. (٣) .

وجملة القول ، أن كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة كان له أثر كبير على كثير من العلماء فكانت اشاراته للألوان البلاغية فيه منارا أهتدى به من سلك طريق البحث البلاغى بعده .

---

(١) مجاز القرآن ٩٦/٢
(٢) مجاز القرآن ١٥٥/١
(٣) مجاز القرآن ٣٦٨/١ .

الفصل الثاني

البلاغة عند الفراء

هو ابو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي نسبة الى الديلم وهو اقليم في البلاد الفارسية ، وقد سمى بالفراء قيل : لأنه كان يخيط الفراء أو يبيعها ، وقيل : لأنه كان يفرى الكلام أى يحسن تقطيعه وتفصيله وقد بلغ الفراء منزلة عالية بين علماء عصره حتى بذهم جميعا ، ولذلك ، فانه يعد زعيم المدرسة الكوفية في النحو بعد الكسائى يقول عنه ثعلب لولا الفراء لضاعت العربية ٠ وقد ترك مؤلفات كثيرة منها : كتاب المذكر والمؤنث ، والمقصور والممدود ، والمصادر في القرآن ، والوقف والابتداء ، ومعاني القرآن ٠

ومن أهم مؤلفاته كتاب معاني القرآن ، وقد تتبع فيه تفسير القرآن سورة سورة فيبدأ بسورة الفاتحة فالبقرة حتى ينتهى الى آخر سورة الناس ، ويشرح ما فى الآيات من أوجه الاعراب والقراءات وتوجيهها توجيها لغويا أو نحويا ، يفسر غريب الألفاظ ، ويبين أسباب النزول أحيانا ويأتى بالشاهد الشعرى أو المثل أو ما أثر عن العرب من فصيح الكلام وفى أثناء ذلك كانت له ملاحظات بلاغية قيمة انتفع بها من جاءوا بعده وسنتناول ما اشتمل عليه هذا الكتاب من مباحث بلاغية سواء ما يتصل منها بعلم المعانى أو البيان أو البديع لنقف على مدى ما خلفه من أثر فى تطور البلاغة ٠

أولا : مباحثه فى علم المعانى :

١ ــ من أغراض الخبر ــ لاحظ الفراء ما يستفاد من الخبر عند تقوله قوله تعالى : (قد علم كل أناس مشربهم) : فان القائل يقول : « وما

---

(١) انظر فى ترجمته : مراتب النحويين ٨٦ ، طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ١٤٣ ٠

حاجة القوم الى أن يعلموا مشاربهم ، ونحن نرى الانهار قد أجريت لقـوم بالمن من الله والتفضيل على عبادة ، ولم يقل : قد علم كل أناس مشربهم لغيرهم ؟ وانما كان ذلك — والله أعلم — لأنه حجر انفجرت منه اثنتا عشرة عينا على عدد الأسباط ، لكل سبط عين ، فاذا ارتحـل القوم أو شربوا ما يكفيهم عاد الحجر كما كان وذهبت العيـون ، فاذا احتاجوا انفجـرت العيون من تلك المواضع ، فأتى كل سبط عينهم التى كانوا يشربون منها(١) فالخبر هنا قد أفاد أن لكل سبطا عينا تخصهم فلا ينبغى ان يتجاوزوها الى عيون غيرهم من الأسباط الآخرين حتى تسود المساواة ويعم الأمن والعدل فيهم ·

٢ — صور خروج الكلام على غير مقتضى الظاهر

أ — الالتفات — تحدث الفراء عن الالتفات وذكره باسمه ، لان هـذا المصطلح قد عرف فى عصره عند الأصمعى كما بينا ، ففى قوله تعالى : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين » يقول : كما قال تعالى : « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » أى أنه يجوز الالتفات من الخطاب الى الغيبة فقـال أولا : كنتم ، ثم قال : بهم ، فعبر بالخطاب ثم بالغيبة على طريق الالتفات ، وفى الآية الأولى قال أولا : « قد كان لكم » على سبيل الخطاب ثم قال : « يرونهم » على سبيل الغيبة » (٢) فالخطاب فى قوله : « قد كان لكم » للمشركين من قريش انتقل منه الى الغيبة فى قوله « يرونهم » والمراد : يرى المشركون المسـلمين مثلى عدد المشركين حتى يقع الرعب فى قلوبهم تأييدا ونصرة للرسول ومن معه من المسلمين والالتفات كما ذكر البلاغيون يجعل الكلام أكثر تطرية للسامع

---

(١) معانى القرآن ١/٤١ ·
(٢) معانى لقرآن ١/١٩٥

ويجدد نشاطه ، ويزيل الملل والسـآمة عنه ، وله فوائد أخرى تفهم من السياق وفقا لما يقتضيه المقام .

وأشار الى الانتقال من الغيبة الى الخطاب فى قوله تعالى : « وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » معناه كان لهم جزاء ، وكان سعيهم مشكورا » فرجع من الغيبة الى الخطاب »(١) ولعل السر البلاغى الذى يفهم من الالتفات هنا بجانب ما ذكر هو أن رب العزة جعلهم فى ساحة الحضور تكريما لهم ، وخاطبهم ، لأنهم لما أقبلوا عليه فى الدنيا بالطاعة وفعل الخيرات أقبل عليهم فى الآخرة بالجزاء وشكر سعيهم للاهتمام بشأن الجزاء وتفخيمه .

ب - التعبير عن الماضى بلفظ المستقبل - وضحه الفراء فى قوله تعالى فلم تقتلون أنبياء الله من قبل » لأنه لا حظ تناقضا فى الظاهر بين عجز الجملة وصدرها ، ومن ثم فسره بما يزيل هذا التناقض وبين أنه أسلوب عربى يقع فى كلامهم كثيرا فقال : يقول القائل : انما تقتلون للمستقبل فكيف قال : « من قبل » ونحن لا نجيز فى الكلام أنا أضربك أمس ؟ وذلك جائز اذا أردت بتفعلون الماضى ، ألا ترى أنك تعنف الرجل بما سلف من فعله ، فتقول : ويحك لم تكذب ؟ لم تبغض نفسك الى الناس ؟ ، ومثله قوله تعالى « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، ولم يقل : ما تلت الشياطين وذلك عربى كثير فى الكلام ، فلذلك صلحت « من قبل » مع قوله « فلم تقتلون أنبياء الله » ؟ وليس الذين خوطبوا بالقتل هم القتلة انما قتل الأنبياء أسلافهم الذين مضوا ، فتولوهم على ذلك ورضوا به ، فنسب

---

(١) معانى لقرآن للفراء ٣/٢٢٥ .

اليهم » (١) والعرب انما تعبر عن الماضى بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة فى الذهن ، ومن ثم جرى القرآن على نمط أساليبهم وتعبيراتهم ، والصورة الماضية هنا شنيعة وهى قتل الأنبياء فأراد الله أن يستحضرها فى أذهانهم ليدلهم على بشاعة هذا الفعل وعظم ذنب مرتكبيه فعدل عن الماضى الى المضارع وعلى هذا النحو أيضا قوله تعالى « ففريقا كذبوا وفريقا تقتلون » لم يقل : وفريقا قتلتم لهذا الغرض أيضا وأشار الفراء الى أن الخطاب فى قوله تعالى « فلم تقتلون أنبياء الله » ليس لمن باشر الفعل ، ولكن لما تابعوهم فى ذلك ورضوا بفعلهم ، وبعضهم قد هم أن يفعل مثل فعلهم نسب اليهم ، فقد حاولوا قتل النبى صلى الله عليه وسلم فعصمه الله منهم وكف أيديهم عنه ، لأن الله تعالى خاطبه بقوله : « والله يعصمك من الناس » .

ويوضح الفراء أن المضارع قد يكون فى معنى الماضى بدليل دخول « رب » عليه اذا انها لا تدخل الا على الماضى ، وذلك لنكتة بلاغية وهى أن اخبار الله بالوعد والوعيد حق لا ريب فيه فكأنه حاصل مشاهد أى أنه بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه يقول الفراء فى قوله تعالى : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » : يقال : كيف دخلت « رب » على فعل لم يكن ، لأن مودة الذين كفروا انما تكون فى الآخرة ؟ فيقال : ان القرآن نزل وعده ووعيده وما كان فيه حقا فانه عيان فجرى الكلام فيما لم يكن منه كمجراه فى الكائن ، ألا ترى قوله عز وجل « ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ، « ولو ترى اذ فزعوا » كأنه ماض وهو منتظر لصدقه فى المعنى وأن القائل يقول : اذا انهى أو أمر فعصاه المأمور : أما والله لرب ندامة لك تذكر قولى فيها ، لعلمه أنه سيندم ، فقول الله عز وجل أصدق

---

(١) معانى القرآن للفراء ١/٦١ .

من قول المخلوقين » (١) ولم يتنبه الفراء الى الى أمر آخر فى الآية وهو أن رب التى وضعت للتقليل قد استعملت فى هذه الآية للتكثير أى فى ضــد معناها أى أنه استعير اللفظ الذى ضع للتقليل فى موضــع التكثير ، لأن ندمهم سيكثر ويعظم يوم القيامة ، والنكتة البلاغية من وراء هذا التعبير هو أن الندامة على هذا لو كانت قليلة لوجب أن يتجنب ما يؤدى اليها فكيف وهى كثيرة فصــار فيه من معنى المبالغة ما ليس فى التكثير لو وقع هاهنا وهو من باب الاستعارة فى الحرف .

جـ - استعمال لفظ الجمع فى معنى الواحد - فى قوله تعالى : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات » يقول الفراء : أراد النبى فجمــع كما يقال فى الكلام للرجل الواحد : أيها القــوم كفوا عنا أذاكم ، ومثله الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » الناس : واحــد معروف كان رجلا من أشجع يقال له : نعيم بن مسعود » (٢) نسب الفعل الى الناس فى تثبيط المسلمين ، ونعيم هو الذى قام به وهو فرد من الناس ، وذلك لأن غيره من الناس قد رضى بفعله وفرح له كالمنافقين فكأنهم اشتركوا معه فى تثبيط المسلمين فنسب الفعل اليهم على نحو ما بينا فى وجه الخطاب فى قوله تعالى « فلم تقتلون أنبياء الله » .

د - القلب - أشار الفراء الى ما عرف فى المعنى باســم القلب فى قوله تعالى : « ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » قال : ذكر أنها تدخل فى دبر الكافر فتخرج من رأسه فذلك ســلكه فيها ، والمعنى ثم اسلكوا فيه سلسلة » ولكن العرب تقول : أدخلت رأسى فى القلنسوة ، وأدخلتها فى رأسى ، ويقال : الخاتم لا يدخل فى يدى ، واليد هى التى فيه

---

(١) معانى القرآن ٢/٨٢ .
(٢) معانى القرآن ٢/٢٣٧ .

تدخـــل » (١) وللعلماء آراء متباينة فى القلب منهم من قبله مطلقا لأنه مما يورث الكلام حسنا وملاحة ، ويثبت المعنى فى ذهن السامع نتيجة لاعمال الفكر فيه ، وهذا هو رأى السكاكى ومنهم من رده مطلقا لأنه عكس المطلوب مما يؤدى الى الوقوع فى اللبس، ومنهم من فصل فقال انه ان تضمن اعتبارا لطيفا يؤدى الى قوة المعنى قبل والا رد ، وهذا الأخير هو رأى جمهـــور البلاغيين وممن رفضه سيبويه والآمدى يقول سيبويه : تقول : أدخلت فى رأسى القلنسوة ، والجيد أدخلت فى القلنسوة رأسى قـال الشاعر :

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه ... وســـائره باد الى الشمس أجمع

فقد كان الوجه فيه أن يقول : مدخل رأســـه الظل ، لأن الرأس هو الداخل فى الظل ، والظل هو موضع الدخول ، وحذا حذوه الآمدى بل كان أكثر تصريحا من ســـيبويه فنراه يؤول ما جاء منه فى القرآن ويخطئه فى الشعر ، أما الفراء فالظاهر من كلامه أنه لا يرفضه انما يجيزه على أنه من طرق العرب فى التعبير ٠

٣ — التقديم والتأخير — على الرغم من أن سيبويه قد ذكر الغـرض من التقديم فى مواضع كثيرة من كتابه ولكن الفراء لم يتابعه فيما ذكر ، بل لم يشر الى أى غرض من أغراض التقـديم ، وانما اكتفى بقوله هذا مقـــدم ومؤخر ففى قوله تعالى : « اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ٠٠ » يقول : يقال : هذا مقدم ومؤخر ، والمعنى فيه انى رافعك الى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد انزالى اياك فى الدنيا ، فهذا وجه ٠ وقد يكون الكلام غير مقدم ولا مؤخر فيكون معنى متوفيك : قابضك كما تقول : توفيت مالى من فلان : قبضته من فلان ، فيكون لتوفى على أخذه ورفعه اليه من غير

---

(١) معانى القرآن ١٨٢/٣ ٠

موت » (١) . وقد تأثر الزمخشري بالفراء عند تفسيره لهذه الآية ونقل عنه الوجه الثاني .

ونهج الفراء في بحثه للتقديم والتأخير منهج أبي عبيدة في مجاز القرآن ولم يخرج عما قاله فيه ففي قوله تعالى : « فكذبوه فعقروها » يقول الفراء يقول القائل : كيف كذبوه فعقروها ؟ فيبين أنه على التقديم والتأخير لأن العقر وقع بالتكذيب ، وإذا وقع الفعلان معا جاز تقديم أيهما شئت ، من ذلك : أعطيت فأحسنت ، وان قلت : أحسنت فأعطيت كان بذلك المعنى لأن الاعطاء هو الاحسان ، والاحسان هو الاعطاء كذلك العقر هو التكذيب ، فقدمت ما شئت وأخرت الآخر » (٢) يريد الفراء أن العقر وقع بسبب التكذيب ، فقدم السبب على المسبب ، وهذا ما صرح به أبو عبيدة في قوله تعالى « خلق الانسان من عجل » مجازه مجاز خلق العجل من الانسان وهو العجلة ، والعرب تفعل هذا اذا كان للشيء من سبب الشيء بدأوا بالسبب .

٤ ـ الاستفهام ـ تحدث الفراء عن الاستفهام ، وانه يخرج عن أصل وضعه لمعان أخر بينها من خلال تفسيره ، وهي الأمر ، والتعجب والنفي ، والتهويل التعظيم ، التقرير ، والخبر ، والتوبيخ ، وغير ذلك أما افادته الأمر ففي قوله تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب ، والأميين أأسلمتم » يقول الفراء : « أأسلمتم » : استفهام ومعناه أمر ، ومثله قوله تعالى : « فهل أنتم منتهون » استفهام ، وتأويله : انتهوا ، أو لاترى أنك تقول للرجل : « هل أنت كاف عنا » ؟ معناه : اكفف » (٣) فالأمر استفيد من الاستفهام نافيه

(١) معاني القرآن ١/٢١٩ .
(٢) معاني القرآن ٣/٣٦٩ .
(٣) معاني القرآن ١/٢٠٢ .

من الحث على الفعل والحض عليه كأنه يأمره به لأن الاسلام فيه صـلاحهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وكذلك الانتهاء عن الفعل فى قوله : « فهل أنتم منتهون » ومنه أيضا قوله تعالى : « وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون »

وقد يفيد الاستفهام معنى التعجب كما فى قوله تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » يقول الفراء على وجه التعجب والتوبيخ لا على الاســتفهام المحض أى ويحكم كيف تــكفرون ؟! وهو كقوله : « فأين تذهبون » (١) .

وقد يفيد الاستفهام معنى النفى كما فى قوله تعالى : « كيف يكون للمشركين عهد » يقول الفراء : معناه : ليس للمشركين عهد ، ومنه قوله تعالى « ومن يغفر الذنوب الا الله » يقول : ما يغفر الذنوب أحد الا الله فجعل على المعنى وهو فى القرآن فى غير موضع » (٢)ويستدل الفراء على افادة الاســتفهام معنى النفى بدخـــول البـــاء الزائدة فى خبر الجملة الداخلة عليها حرف الاستفهام وهو « هل » ، لأن دخول الباء على الخبر لا يستقيم الا بعد النفى فاستدل بقول الفرزدق :

يقول : اذا اقلولى عليها وأقردت   ألا هـــل أخو عيش لذيذ بـــدائم

فأدخل الباء على الخبر بعد هل مما يؤكد افادتها معنى النفى كقـولك ماأنت بقائل . وأيضا الاستثناء المفرغ فى قوله تعالى « ومن يغفر الذنوب الا الله » لا يســـتقيم الا على افادة « من » معنى النفى ، وبهذا يتحقق معنى القصر .

---

(١) معانى القرآن ١/٢٣ .
(٢) معانى القرآن ١/٢٣٤ .

ـ ويفيد الاستفهام أيضا معنى التعظيم ، كما في قوله تعالى : « ماذا يستعجل منه المجرمون » يقول الفراء : ان شئت عظمت أمر العذاب فقلت بماذا استعجلوا » (١) أى أن العذاب الذى يقع بهم سيكون عظيما مهولا فلماذا يستعجلون وقوعه ، ويذكر الفراء معنى آخر للاستفهام من هذه الآية وهو التعجب فيقول : وان شئت جعلت ماذا استفهاما محضا على جهة التعجب كقوله : ويلهم ماذا أرادوا باستعجال العذاب » ؟ ويبدو أنه لايمنع أن يكون الاستفهام حقيقيا على أصل وضعه وافادته معنى آخر كالتعجب ، لأنه وصف الاستفهام بالمحضية ، وهذا خلط فى الفهم لأن علماء المعانى قرروا أن التعجب من الأغراض البلاغية التى يفيدها الاستفهام المجازى لا الحقيقى . وقد تأثر الزمخشرى بالفراء فى هذا الموضع فبين أنه يفيد التعجب فقال : ويجوز أن يكون معناه التعجب ، كأنه قيل : أى شىء هول شديد يستعجلون منه » (٢) .

وينبه الفراء الى أن الاستفهام قد يكون فى معنى الخبر فيقول فى قوله تعالى : « فتصبح الأرض مخضرة » رفعت « فتصبح » ، لأن المعنى فى « ألم تر »؟ معناه خبر ، كأنك قلت فى الكلام : اعلم أن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض وهو مثل قول الشاعر :

ألم تسأل الربع القديم فينطق فهل اخبرنك اليوم بيداء سملق »(٣)

ى قد سألته فنطق ، ولو جعلته استفهاما وجعلت الفاء شرطا لنصبت واستدل الفراء على أن الاستفهام فى معنى الخبر من الحركة الاعرابية على الفعل الواقع بعد الفاء ، فقد ورد فى الآية والبيت مرفوعا مما يدل على

(١) معانى القرآن ٤٦٧/١ .
(٢) الكشاف ٢٤٠/٢ .
(٣) معانى القرآن ٢٢٩/٢ .

أن الاستفهام فى الجملة السابقة ليس على حقيقته ، ولو كان على حقيقته لنصب الفعل الواقع بعد الفاء ، لأنه ينصب فى جواب الأشياء الستة ومنها الاستفهام .

أشار الفراء الى افادة معنى التوبيخ من الاستفهام كما فى قوله تعالى « أصطفى البنات على البنين » يقول : استفهام وفيه توبيخ لهم » (١) وهو انكار لهم على جهة التوبيخ والاستبعاد ، والواقع أن الانكار فى الآية على جهة التكذيب أى لم يكن هذا الفعل من الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا أى لم يحدث منه تعالى أن خصهم بالبنين ، وخص نفسه بالبنات .

٥ - الأمر - أشار الفراء الى بعض الأغراض البلاغية التى يخرج اليها الأمر وهى التوبيخ والتهديد والتهكم ، فأما التوبيخ ففى قوله تعالى : « وليتمتعوا فسوف يعلمون » قال : قرأها عاصم والاعمش على جهة الأمر للتوبيخ بجزم اللام » (٢) فالفراء وجه القراءة توجيها بلاغيا وهى القراءة بسكون اللام فى « وليتمتعوا » حتى تكون لام الأمر التى تجزم الفعل المضارع ، والظاهر أن الأمر هنا على هذه القراءة ليس للتوبيخ كما ذهب الفراء انما هو للتهديد والوعيد أى فسوف يعلمون عاقبة هذا التمتع من المصير المؤلم الذى ينتظرهم يوم القيامة .

وأشار الى افادة التهديد من الأمر فى آية أخرى قريبة فى المعنى من الآية السابقة وهى قوله تعالى : « قل تمتع بكفرك قليلا » .

يقول : فهذا تهدد وليس بأمر محض ، وأشار فى آية أخرى الى افادة معنى التهديد ، وهى مثل الآية التى بين أنها تفيد التوبيخ وهى قوله تعالى :

---

(١) معانى القرآن ٢/٣٩٤ .
(٢) معانى القرآن ٢/٣١٩ .

« فتمتعوا فسوف تعلمون » فقال : انها تفيد التهديد وليس بأمر محض » (١) مما يدل على اضطرابه فى تحديد المعانى .

وأشار الى افادة التوبيخ من الأمر ايضا فى آية اخرى قرر العلماء أنها لافادة التهكم وليست للتوبيخ كما فى قوله تعالى : « ذق انك أنت العزيز الكريم » .

يقول : ومعناه — فيما نرى والله أعلم — أنه توبيخ أى ذق فانك كريم كما زعمت ولست كذلك . (٢) .

٦ — الحذف :

تحدث عنه الفراء فى مواطن كثيرة من تفسيره ، والضابط الذى جعل عليه أمر الحذف فى كثير من مواضعه هو أن يكون المحذوف معلوما فى ذهن المخاطب أى لابد من وجود دليل أو قرينة للمخاطب ترشده الى المحذوف وتدل على مكانه ، وبحثه فى هذا الموضوع لا يخرج عما قاله أبو عبيدة ، فلا يرى فى الحذف معنى بلاغى أكثر من الايجاز والاختصار فأشار الى حذف الخبر — وحذف المضاف — وحذف الجملة سواء كانت جملة سببية أو جملة القول أو جملة الجواب .

— فأما حذف الخبر فيرى أنه اذا اتفق أمران فى معنى فانه يكتفى بأحدهما عن الآخر كما فى قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » وكما فى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عنـ ـدك راض والرأى مختلف (٣)

---

(١) معانى القرآن ٢/٤١٦ .
(٢) معانى القرآن ٣/٤٤ .
(٣) معانى القرآن ١/٤٣٤ .

لم يقل « راضون » وقد استشهد البلاغيون بالبيت على حذف المسند للاحتراز عن العبث مع ضيق المقام وتقدير المحذوف فى الآية الكريمة أن يقال : والله أحق ن يرضـوه ورسوله كذلك » وسر الحـذف هنا : هو الاحتراز عن التكرار غير المفيد ، وللدلالة على أن ارضاء الرسول من رضـا الله تعالى ، فهما أحق بالارضاء ، قال تعالى «ومن يطع الرسول فقد أطاع الله».

— حذف المضاف — نبه الفراء على أنه يحذف كثيرا فى كلام العـرب ففى قوله تعالى : « وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم » يقول : أراد حب العجل ، ومثل هذا مما تحذفه العرب كثير ، قال الله : « واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ، والمعنى : سـل أهل القرية وأهـل العير » (١) .

وأشـار الفراء الى حـذف الجملة اذ يرى أن جملة القول تحـذف كثيرا ففى قوله تعالى : « والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم : معناه يقولون : أخرجوا » ومنه قوله تعـالى : « واذ يرفع ابراهيم القـواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا » معناه : يقولان ربنا تقبل منا وهو كثير ، فقس بهذا ماورد عليك (٢) .

— وفى قوله تعالى : (واذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » يقول الفراء : معناه والله أعلم — فضرب فانفجرت فعرف بقوله : « فانفجرت » أنه قد ضرب فاكتفى بالجواب لأنه قد أدى عن المعنى ، فكذلك قوله : « أن اضرب بعصاك البحر فانفلق » ومثله فى الكلام أن تقول : انا الذى أمرتك بالتجارة فاكتسبت الأمـوال

---

(١) معانى القرن ٦١/١ .
(٢) عانى القرآن ٦١/١ .

فالمعنى : فتجرت فاكتسبت » (٢) فالجملة المحذوفة هنا سبب فى حدوث جملة جواب الشرط ، وهى مسببة عنها فكتفى بالمسبب عن السبب ، يفهم هذا من كلام الفراء وان كان لم يذكر السبب والمسبب اذ يقول : « فاكتفى بالجواب ، لأنه قد أدى عن المعنى » ومن ثم فقد برزت شخصيته فى هذا الموضع فلم نجد مثل هذا التحليل عند سابقيه لاسيما فى حذف الجملة ، وقد ذكر الزمخشرى السر البلاغى للحذف فى هذه الآية فيقول : « فان قلت : فهل قيل فضرب فانفجرت ؟ قلت : لعدم الالباس ، وليجعل الانفجار مسببا عن الايحاء بضرب الحجر للدلالة على أن الموحى اليه لم يتوقف عن اتباع الأمر ، وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة الى الافصاح به » (٢) يعنى أراد أن يبين سرعة امتثال المأمور للآمر ، وقوة الارتباط الوثيق بين السبب والمسبب ، فاذا وجد أحدهما دل على وجود الآخر .

وتحدث عن حذف جواب الشرط فى مواطن كثيرة من تفسيره ففى قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم » يقول الفراء : متروك الجواب ، لأنه معلوم المعنى ، وكذلك كل ما كان معلوم الجواب فان العرب تكتفى بترك جوابه ، ألا ترى أن الرجل يشتم صاحبه فيقول المشتوم : أما والله لولا أبوك ، فيعلم أنه يريد : لشتمتك ، فمثل هذا يترك جوابه ، وقد قال بعد ذلك فبين جوابه فقال : « لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » وما زكى منكم من أحد أبدا » فذلك يبين لك المتروك(٣) فالفراء يبين أن ذكر الجواب فى آيتين : واحده منها قبل هذه الآية التى حذف فيها الجواب والأخرى بعدها يدلان على الجواب المحذوف وتقديره : لمسكم من جزاء تسامحكم فى اتهام المؤمنين عذاب عظيم » .

---

(١) معانى القرآن ١/٤٠ ، ٤١ .
(٢) الكشاف ٢/١٢٤ .
(٣) معانى القرآن ٢/٢٤٧ .

٧ — الفصل والوصل :

تحدث الفراء عن الفصل والوصل فأشار الى نوع من أنواع الفصل وهو ترك الواو لكون الجملة الثانية بيانا للأولى لكمال الاتصال بينهما ففى قوله تعالى : « ومن يفعل ذلك يلق آثاما يضاعف له العذاب » يقول : فالآثام فيه نية العذاب قليلة وكثيرة ، ثم فسره بغير الواو فقال : يضاعف له العذاب يوم القيامة » .. الا ترى أنك تقول ، عندى دابتان : بغل وبرزون، ولا يجوز عندى دابتان وبغل وبرزون ، وانما نريد تفسير الدابتين ، بالبغل والبرذون ، ففى هذا كفاية عما نترك من ذلك فقس عليه » (١) ونلاحظ أن الخليل قد سبق الفراء فى الحديث عن الفصل فى هذه الآية كما بينا سابقا واذا كان الخليل يرى أن الجملة الثانية وقعت بدلا من الأولى فهما متقاربان فى التفسير .

وأشار الفراء الى ما عرف عند المتأخرين باسم شبه كمال الاتصال « الاستئناف » الذى يستوجب الفصل أيضا ، ففى قوله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم .. الآية بين كيف اتصلت بالآية التى بعدها وهى : التائبون العابدون الحامدون .. الآية فيقول : والاستئناف بعد الآيات حسن ومنه هذه الآية التى استؤنف فيها بالرفع (٢) .

ويتنبه الفراء الى ضرورة وجود الربط والالتئام بين الجمل فى النظم القرآنى كما فى قوله تعالى : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » يقول : فان قال قائل : كيف انصرف من العذاب الى أن قال : (وان يوما عند ربك » فالجواب فى ذلك أنهم استعجلوا العذاب فى الدنيا فأنزل الله على نبيه « ولن يخلف الله وعده » أى فى أن ينزل بهم العذاب فى الدنيا ، فقوله : « وان يوما عند

---

(١) معانى القرآن ٢/٦٨ ، ٦٩ .
(٢) معانى القرآن .

ربك » من عذابهم أيضا فهو متفق فى أنهم يعذبون فى الدنيا والآخرة »(١)
أراد ان يبين وجه الصلة والارتباط بين الاخبار عن طول اليوم عند الله وبين
استعجالهم للعذاب فبين أن ما ينتظرهم من العذاب فى الآخرة أقوى واشد من
عذابهم فى الدنيا الذى يستعجلونه وهو واقع بهم لامحالة ، فبينهما ارتباط
وثيق وهو الجمع بين عذبهم فى الدنيا والآخرة ..

٨ ــ التكرار

التكرار نوع من أنواع الاطناب ، وهو يقرر المعنى فى النفوس ويثبتها
فى الصدور ، وله مواقع تختص به وفقا للسياق وما يقتضيه المقام ، وقد
عرض الفراء لبعض صورة ما يتعلق منها بتكرار الحروف والجمل فمن تكرار
الحرف ما ذكره عند قوله تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا
لا نضيع أجر من أحسن عملا » فيقول : « انا لا نضيع » مثل قول الشاعر :

ان الخليفة ان الله سربله　　　سربال ملك بها تزجى الخواتيم

كأنه فى المعنى : انا لا نضيع أجر من عمل صالحا ، فترك الكلام
الأول واعتمد على الثانى بنية التكرير » (٢) ولم يبين الفراء السر البلاغى
للتكرار فى هذا الموضع ، وذلك لأن غرضه أن يكشف عن المعنى الذى يفهم
من الآية ، والذى به يستقيم الكلام من حيث الصحة النحوية ، ونادرا ما
ينفذ ببصيرته الى بعض الأسرار البلاغية فأنت لا تقول : ان محمدا انه فى
الدار الا على جهة التكرار والتوكيد وحسن التكرار للفصل بين أن الاولى
والثانية باسم ان المشتمل على جملة الصلة ، وهو أوقع من اجتماعهما وهو
مذهب سيبويه ، ومنه قوله تعالى : « أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما

---

(١) معانى القرآن ٢/٢٢٩ .
(٢) معانى القرآن ٢/١٤٠ .

أنكم مخرجون » فحسن التوكيد للفصل بين أن الاولى والثانية بالظرف » ولذلك يقول الفراء عند تفسيره لهذه الآية : « اعيدت « أنكم » مرتين ومعناهما واحد الا أن ذلك حسن ، لما فرقت بين أنكم وبين خبرها باذا»(١)

– واما تكرر الجمل فقد عرض له الفراء وذكر السر البلاغى الذى يفهم منه عند قوله تعالى : « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » ، والكلمة قد تكررها العرب على التغليظ والتخويف ، فهذا من ذاك ومن التغليظ ما كرر فى سورة « الكافرون » (٢) فالمقام فى السورتين يقتضى التكرير للتهديد والانذار ، هو ما ذهب اليه الفراء .

– عطف الخاص على العام – تعرض الفراء للون آخر من ألوان الاطناب وهو ما عرف عند البلاغيين باسم عطف الخاص على العام ، ففى قوله تعالى : « فيها فاكهة ونخل ورمان » يقول بعض المفسرين : ليس الرمان ولا النخل بفاكهة ، وقد ذهبوا مذهبا ، ولكن العرب تجعل ذلك فاكهة فان قلت : فكيف أعيد النخل والرمان ان كانا من الفاكهة ؟ قلت : ذلك كقوله ، « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » وقد أمرهم بالمحافظة على كل الصلوات ، ثم أعاد العصر تشديدا لها ، كذلك أعيد النخل والرمان ترغيبا لأهل الجنة ، ومثله قوله فى الحج « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض . ثم قال وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب (٣) ولعل السر البلاغى وراء عطف النخل والرمان على الفاكهة مع أنهما منها ، هو بيان

---

(١) معانى القرآن ٢/٢٩٤ .
(٢) معانى القرآن ٣/٢٨٨ .
(٣) معانى القرآن ٣/١١٩ .

فضلهما ومزيتهما كأنهما جنسان آخران ، وذلك لأن ثمر النخل فاكهة وغذاء ، وثمر الرمان فاكهة ودواء ، فلما لهما من هاتين المزيتين عن سائر أنواع الفاكهة خصا بالذكر وعطفا على الفاكهة .

- التذييل - ألمح الفراء الى ما عرف عند البلاغيين المتأخرين باسم التذييل من خلال توجيهه لبعض القراءات ، ففي قوله تعالى : « ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين » يقول : كسر ألفها أحب الى من فتحها ، لأن فى قراءة عبد الله : « وان الله مع المؤمنين » فحسن هذا كسرها بالابتداء ، ومن فتحها أراد : ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت يريد لكثرتها ، ولأن الله مع المؤمنين .. » (١) وقد تأثر به صاحب الكشاف فى ترجيح قراءة الكسر على قراءة الفتح فقال : وقرىء بالكسر ، وهذه أوجه ويعضدها قراءة ابن مسعود .. » (٢) والعلة فى ترجيح هذه القراءة عند الفراء والزمخشرى هو ما تفيده الجملة على قراءة الكسر من التذييل فتكون مؤكدة لمفهوم الجملة السابقة ، لأنه يفهم منها أن الله تعالى يمد المسلمين بأسباب النصر مهما قل عددهم ، لأنه تعالى معهم يؤيدهم ويمنحهم القوة والثبات والصبر ، ويتخلى عن الكافرين فيخذلهم وينصر المؤمنين .

الاطناب بالتوكيد :

تحدث الفراء عن ما عرف بعد باسم الاطناب بالزيادة أو التوكيد فيقول فى قوله تعالى : « ولا طائر يطير بجناحيه » : فان الطائر لا يطير الا بجناحيه وهو كقولك المرجل : كلمته بفى ، ومشيت اليه على رجلى ابلاغا فى الكلام وفى قوله تعالى : « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى

---

(١) معانى القرآن ١/٤٠٧ .
(٢) الكشاف ٢/١٥٠ .

الصدور يقول الفراء : والقلب لا يكون الا فى الصدور ، وهو توكيد مما تزيده العرب على المعنى المعلوم ، كما قيل : فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ، والثلاثة والسبعة معلوم أنهما عشرة ومثل ذلك نظرت اليك بعينى ، ومثله قول الله : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، وفى قراءة عبد الله : « ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة أنثى » فهذا أيضا من التوكيد » (١) فقد بين الفراء أن هذا مما يزاد فى الكلام للتوكيد مبالغة فى المعنى ، ولم نجد مثل هذا التحليل عند من سبقه من العلماء ، فقد تعرض لهذا اللون أبو عبيدة عند حديثه عن التكرار ولم يكن دقيقا حيث جعله من المكرر للتأكيد ، ومن ثم يمكننا أن نقول أن الفراء خطا بهذا اللون من الاطناب خطوة واسعة مهدت الطريق لمن جاء بعده .

— الكلام المنصف — عرض الفراء لما عرف باسم الكلام المنصف ، وجعله من توجيه الكلام الى أحسن مذاهبه فيقول فى قوله تعالى : (وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » : أى انا لضالون أو مهتدون ، وانكم أيضا لضالون أو مهتدون ، وهو يعلم ان رسوله المهتدى ، وان غيره الضال فأنت تقول فى الكلام للرجل : ان احدنا لكاذب ، فكذبته تكذيبا غير مكشوف وهو فى القرآن وفى كلام العرب كثير أن يوجه الكلام الى أحسن مذاهبه اذا عرف » (٢) وهذا أسلوب رائع من أساليب الحوار والجدل يتميز بقوة الحجة والاقناع ، لأنه يستدرج الخصم الى الحق ويقوده الى الانصاف وكما يقول الزمخشرى : وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال

---

(١) معانى القرآن ٢/٢٢٨ .
(٢) معانى القرآن ٢/٣٦٢ .

أو منـاف قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك ، يفهم من قول الفراء « فكذبته تكذيبا غير مكشوف » الاشارة الى التعريض بكذبه ٠

ـ الاستدراج ـ وهو من الأساليب البليغة التى يعتمد عليها أيضا فى اقناع الخصم المعاند فيقول فى قوله تعالى : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى » انما قال هذا ربى استدراجا للحجة على قومه ليعيب آلهتهم بأنها ليست بشىء ، وأن الكوكب والقمر والشمس أكبر منها ولسن بآلهة ٠ (١) ٠

ثانيا : مباحثه فى علم البيان :

١ ـ التشبيه :

ذكرنا فيما سبق أن الخليل تحدث عن التشبيه حديثا ساذجا بعيدا عن الصورة الفنية له التى تحدد أبعاده وتأثيره فى النفس وانما كان عرضه له من خلال تحليله لمسائل النحو ، فلم يصب الغرض حتى يكون ذا تأثير فيمن بعده ، وتحدث عنه سيبويه أيضا ، وكانت نظرته للتشبيه أوسع قليلا من نظرة الخليل له ، ولكن لم يكن له تأثير كاف على البلاغيين من بعده أيضا فقد أشار الى المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ، ووجه الشبه فذكر فى كتابه مرارا « أن الشىء يشبه بالشىء وليس مثله فى جميع أحواله وسترى ذلك فى كلامهم كثيرا » أما أبو عبيدة فكان أكثر ادراكا للصورة التشبيهية من سيبويه ليس فى كتابه مجاز القرآن وانما فى كتاب النقائض أثناء شرحه لأبيات الفرزدق وجرير ، فوضح أركان التشبيه الأربعة وأشار الى التشبيه المقيد فان الفراء قد انفرد بالتنبيه على أمر هام فى التشبيه وهو أنه لا يشترط التطابق بين المشبه والمشبه به فى العدد اذا كان التشبيه للفعل لا لأعيان الأشخاص والأجسام ، ويجب التطابق اذا كان

---

(١) معانى القرآن ١/٣٤١ ٠

التشبيه للفعل لا لأعيان الأشخاص والأجسام ويجب التطابق اذا كان القصد من التشبيه أعيان الرجال ، وضح فكرته هذه فى قوله تعالى : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا » فقال : « فانما ضرب المثل والله أعلم للفعل لا لأعيان الرجال ، وانما هو مثل للنفاق فقال : مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، ولم يقل : الذين استوقدوا » ، وهو كما قال الله تعالى : « تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت » وقوله : « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » فالمعنى — والله أعلم — الا كبعث نفس واحدة ، ولو كان التشبيه للرجال لكان مجموعا ، كما قال : « كأنهم خشب مسنده » أراد القيم والأجسام ، وقال : كأنهم اعجاز نخل خاوية فكان مجموعا اذ أراد تشبيه أعيان الرجال . فأجر الكلام على هذا ، وان جاءك تشبيه جمع جمع الرجال موحدا فى شعر فأجزه كقولك : ما فعلك الا كفعل الحمير وما أفعالكم الا كفعل الذئب فابن على هذا ثم تلقى الفعل فتقول : ما فعلك الا كالحمير وكالذئب » (١) .

ويتحدث الفراء عن التشبيه حديثا يوضح فيه أبعاد التشبيه لم نجده عند من سبقه ، فيقول فى قوله تعالى : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق .. الآية » : أضاف المثل الى الذين كفروا ثم شبههم بالراعى ولم يقل كالغنم ، والمعنى — والله أعلم — مثل الذين كفروا كمثل البهائم التى لا تفقه ما يقول الراعى أكثر من الصوت ، فلو قال لها ارعى أو اشربى لم تدر ما يقول لها . فكذلك مثل الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن وانذار الرسول فأضيف التشبيه الى الراعى ، والمعنى — والله أعلم — فى المرعى ، ويبدو من كلام الفراء أن التشبيه والتمثيل عنده مترادفان لا فرق بينهما وقد أشار الفراء الى وجه الشبه مع ذكر طرفى التشبيه كما فعل أبو عبيدة

---

(١) معانى القرآن ١/١٥ - ١٦ .
(٢) معانى القرآن ١/٩٩ .

فيقول فى قوله تعالى : فى قوله تعالى : « طلعها كأنه رؤس الشـــياطين » شبه طلعها فى قبحه برءوس الشياطين ، لأنها موصوفة بالقبح وان كانت لاترى . وأنت قائل للرجل كأنه شيطان اذا استقبحته » (١) وهذا وجه من أوجه ثلاثة ذكرها الفراء والقبح هو الوجه المشترك الذى يجمع بين الطرفين كما يفهم من كلامه .

٢ - الاستعارة :

سبق أن بينا أن الخليل ألمح الى الاستعارة المكنية ونقله عنه سيبويه فى كتابه وتحدث سيبويه عن الاستعارة فى حروف الجر ، وجعلها من باب الاتساع الذى اتسع لدخول كثير من المسائل البلاغية بما فيها ألوان المجاز وتحدث أبو عبيدة عن الاستعارة فى شرحه لكتاب النقائض . ونص عـــلى لفظها فى اربعة مواضع . وكلها لا تفيد أكثر من نقـــل اللفظ من شىء الى شىء آخر كأن ينقل اللفظ الخاص بالحيوان الى الانسان فيوصف به . منها ماذكره أثناء تعليقه على قول جرير :

والللؤم قد خطم البعيث وأرزمت ... أم الفرزدق عند شر حـــوار

يقول : أرزمت بمعنى حنت . وهو حنين الناقة فاســـتعاره من الناقة فصيره لأم الفرزدق ، وقد يفعل العرب ذلك كثيرا » (٢) .

أما الفراء فقد كان أكثر تفصيلا وتوضيحا لمعنى الاستعارة وان كان لم ينص على لفظها كما فعل أبو عبيدة ، فقد بين أنها قائمة على التشـــبيه ونبه على حذف المشبه وبقاء المشبه به كما فى الاستعارة التصريحية ، ففى قوله تعـــالى : (وانهما لبـــامام مبين) يقول : بطريق لهم يمرون عليها فى

(١) معانى القرآن ٢/٣٨٧ .
(٢) النقائض .

أسفارهم ، فجعل الطريق اماما ، لأنه يؤم ويتبع » (١) فشبه الطريق بالامام في أن كلا منهما يؤتم ويتبع ، وحذف المشبه وهو الطريق ·

المجاز العقلي :

تحدث عنه الفراء حديثا يكشف عن جوانبه ويوضح مفهومه ، وقد استفاد من دراسات السابقين كسيبويه وأبي عبيدة ، وكان أكثر منهما عمقا ففي قوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم » يقول ربما قال القائل : كيف تربح التجارة وانما يربح الرجل التاجر ؟ وذلك من كلام العرب « ربح بيعك وخسر بيعك » فحسن القول بذلك لأن الربح والخسران انما يكونان في التجارة فعلم معناه · ومثله من كلام العرب : هذا ليل نائم ، ومثله من كتاب الله « فاذا عزم الأمر » وانما العزيمة للرجال ، ولا يجوز الضمير الا في مثل هذا ، فلو قال قائل : قد خسر عبدك لم يجز ذلك أن كنت تريد أن تجعل العبد تجارة يربح فيه ، أو يوضع ، لأنه قد يكون العبد تاجرا فيربح أو يوضع ، فلا يعلم معناه اذا ربح هو من معناه اذا كان متجوزا فيه ، فلو قال قائل : قد ربحت دراهمك ودنانيرك ، وخسر بزك ورقيقك كان جائزا لدلالة بعضه على بعض » (٢) فالفراء يشير الى القرينة الدالة على المجاز والمصححة له بقوله : « لأن الربح والخسران انما يكونان في التجارة ، فعلم معناه » اى ان التجارة محل للربح والخسران ، فهناك علاقة بين الربح والتجارة وهي مصححة للتجوز ، وهي المكانية اى ان الربح مكانه التجارة فعلم معناه اما اذا التبس المراد فلا يصح التجوز كما لو قلت : قد خسر عبدك

---

(١) معاني القرآن ٢/٩١ وانظر : اثر النحاة في البحث البلاغي ص ١٥٧ ·

(٢) معاني القرآن ١/١٤ ، ١٥ ·

فان العبد قد يكون تاجرا فيربح او يخسر ، وان كان العبد قد يكون تجارة الا أنه ليس فى اللفظ دلالة على أنه تجارة ، وكأن الفراء قد غاب عنه دلالة الحال ، التى اشار اليها الزمخشرى بقوله : فان قلت : هل يصح ربح عبدك ، وخسرت جاريتك على الاسناد المجازى: قلت: نعم اذا دلت الحال (١).

الاسناد الى الفاعلية : كما فى قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : «لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم » يقول : كأنك قلت لا معصوم اليوم من امر الله ، وقوله : من ماء دافق معناه : مدفوق وقوله فى عيشة راضية معناها مرضية وقول الشاعر .

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

معناه : المكسو : نستدل على ذلك أنك تقول : رضيت هذه المعيشة ولا تقول . رضيت ، ودفق الماء ولا تقول ، دفق ، وتقول كسى العريان ولا تقول كسا » (٢) .

الاسناد الى المفعولية : أشار اليه فى قوله تعالى : « انه كان وعده مأتيا » يقول : لم يقل آتيا . وكل ما أتاك فانت تأتيه ، الا ترى انك تقول : أتيت على خمسين سنة وأتت على خمسون سنة ، وكل ذلك صواب » (٣) .

وأشار أيضا الى التجوز فى النسبة الاضافية كما فى قوله تعالى : « بل مكر الليل والنهار ، وهو فى المعنى للآدميين كما تقول : نام ليلك . وعزم الأمر انما عزمه القوم فهذا مما يعرف معناه فتتسع به العرب » (٤)

---

(١) الكشاف ١/١٩٢ .
(٢) معانى القرآن ٢/١٥ ، ١٦ .
(٣) معانى القرآن ٢/١٧٠ .
(٤) معانى ٢/٣٦٣ .

المجاز المرسل : أشار الفراء الى ما عرف عند البلاغيين المتأخرين باسم المجاز المرسل أشارة خاطفة فى قوله تعالى : « وجعلنا لهم لسان صدق عليا » أى ثناء حسنا . (١)

التجوز فى حروف الجر : أشار اليه الفراء عند قوله تعالى : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » يقول : يصلح على فى موضع فى ، وانما صلحت (فى) لأنه يرفع فى الخشبة فى طولها فصلحت « فى » وصلحت « على » ، وقد قال الله : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ومعناه فى ملك سليمان (٢) والفراء يتعرض للقراءات فى تفسيره ويرجح قراءة على أخرى مبينا علة هذا الترجيح ، ويستند الى احساسه وذوقه فيه ، ونحن نفسر هذا الاحساس والذوق بأنه يشير الى غرض بلاغى ففى قوله تعالى : « ثلاث عورات لكم » يقول : قرىء بالنصب والرفع ، والرفع فى العربية أحب الى ، واخترت الرفع ، لأن المعنى _ والله أعلم _ هذه الخصال وقت العورات ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، فمعها ضمير يرفع الثلاث ، كأنك قلت : هذه ثلاث خصال » (٣) والرفع أحب الى الفراء من النصب ، لأن الآية على قراءة الرفع خبر لمبتدأ محذوف ، وجملة « ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » صفة لثلاث عورات فى محل رفع ، والجملة كلها أى « ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » مقررة ومؤكدة لمعنى ما سبق على سبيل الطرد والعكس ، لدلالة الكلام الأول على الأمر بالاستئذان فى الأوقات المخصوصة بالمنطوق ، ودلالة هذا الكلام عليه بالمفهوم ، لأن رفع

---

(١) معانى القرآن ٢/١٦٩ .
(٢) معانى القرآن ٢/١٨٧ .
(٣) معانى القرآن ٢/٢٩٠ .

الجناح في غير هذه الأوقات يؤذن بثبوته في تلك الأوقات ، وعلى هذا فصل بين الجملتين لكمال الاتصال لكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى .

وأشار الفراء الى المشاكلة وان كان لم يذكرها بلفظها ، ففي قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » يقول : « فالعدوان من المشركين في اللفظ ظلم في المعنى ، والعدوان الذي أباحه الله ، وأمر به المسلمين انما هو قصاص ، فلا يكون القصاص ظلما ، وان كان لفظه واحدا ، ومثله قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ، وليست من الله على مثل معناها من المسيء لأنها جزاء » (١) وهذا تحليل جيد من الفراء انتفع به الدارسون بعده اذ يرى أن الاعتداء على الظالمين ليس عدوانا ، وأنما هو قصاص ، والسيئة من الله ليست بمعنى الاساءة وانما هي بمعنى المجازاة وهذه هي المشاكلة التحقيقية وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا .

أما الفرع الثاني من المشاكلة وهي المشاكلة التقديرية ونعني بها ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تقديرا فقد ذكره الفراء في قوله تعالى « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » يقول : صبغة الله هنا معناها الختانة عند المسلمين . وقد أمر محمد عليه السلام بذلك أسوة باختتان ابراهيم عليه السلام وهي في مقابل صبغة النصارى أولادهم حيث كانوا يغمسونهم في الماء عند ولادتهم تطهيرا لهم ، فلفظ الصبغة لم يتقدم في الحقيقة ، وانما تقدم معناه فقط وهو الحالة المعهودة في النصارى عند الولادة فكأن اللفظ وان لم يتقدم تحقيقا فقد تقدم تقديرا » (٢) .

---

(١) معاني القرآن ١/١١٧ .

(٢) معاني القرآن ١/٨٢ ، ٨٣ وانظر : أثر النحاة في البحث البلاغي ص ١٦٤ .

الفواصل القرآنية – تنبه الفراء الى جمال تناسق آيات القرآن الكريم في كثير من السور بالترافق بين الكلمات في رؤوس الآيات مما يؤدى الى التلاؤم بينها ، ورتابة الايقاع الصوتى الذى يحدث فى النفس هزة ، وفى القلب ارتياحا ، ولم نجد هذا اللون عند أبى عبيدة وان كان ماثلا فى أذهان الناس منذ القدم بدليل ما أثر عنهم من منظوم الكلام ومنثوره ، الا أنه لا يتطاول الى دقة النظم وجودة السبك وجمال الايقاع الذى نجده فى القرآن الكريم ٠

والفراء يوجه القراءات بما يتلاءم مع هذا الايقاع الصوتى الجميل فيرجح قراءة على آخرى لهذا الغرض ويصف شعوره واحساسه بها قائلا : « أنها أحب الى » لموافقتها رؤوس الآيات ، ففى قوله تعالى : « والليل اذا يسر » يقول : وقد قرأ القراء « يسرى » باثبات الياء ، و (يسر) بحذفها ، وحذفها أحب الى لمشاكلتها رؤوس الآيات ، (١) ٠

وفى قوله تعالى « أ اذا كنا عظاما نخرة » يقول حدثنى مندل عن مجاهد عن ابن عباس أنه قرأ ناخرة ، وقرأ أهل المدينة « نخرة » ، وناخرة اجود الوجهين فى القراءة ، لآن الآيات بالألف ، ألا ترى أن ناخرة ٠ والحافرة والساهرة أشبه بمجئ التنزيل ، والناخرة والنخرة سواء فى المعنى » (٢) فأنت تراه قد رجح القراءة التى تتفق مع الفواصل القرآنية وتتلاءم معها مادام المعنى لم يتغير ، فجانب المعنى يجب مراعاته أولا ٠

وقد يعدل النظم القرآنى من صيغة الى صيغة أخرى لتوافق الفواصل واتساقها كما فى قوله تعالى : « من ماء دافق » يقول أهل الحجاز : افعل

(١) معانى القرآن ٢
(٢) معانى القرآن ٢

لهذا من غيرهم أن يجعلوا المفعول فاعلا إذا كان فى مذهب نعت، كقول العرب هذا سر كاتم ، وهم ناصب ، وليل نائم وعيشة راضية ويقول : وأعان على ذلك أنها توافق رؤوس الآيات التى هى معهن » (١) وفى قوله تعـالى : كذبت ثمود بطغواها » يقول : أراد بطغيانها الا أن الطغوى أشكل برؤوس الآيات فاختـير لذلك . الا ترى أنه قال : « وآخر دعواهم أن الحمد لله » ومعناه : آخر دعائهم »(٢) ففى الآية الأولى عدل عن صيغة مفعول الى صيغة فاعل لأجل الايقاع المنسجم مع بقية الفواصل فى آيات السورة ، وفى هـذا العدول أسند ما للمفعول الى الفاعل على المجاز العقلى ، وفى الآية الثـانية عدل عن صيغة فعلان الى فعلى لهذا لغرض أيضا وهو توافق الفواصل .

وقد يحذف المفعول لوضـوحه ولعلم المخاطب به ولتوافق رؤوس الآيات أيضا كما فى قوله تعالى : « آلم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى يقول : « ان قوله عز وجل « فأغنى » و « فآوى » يراد به فأغناك فآواك جرى على طرح الكاف لمشاكلة رؤوس الآيات ولأن المعنى معروف . (٣) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الفراء يعد رائـدا فى هذا الفن ، لأنـه فتح الباب للأخذ والرد والمناقشة فيه ما بين مؤيد ومعارض ، لأن موضوعه يتصل بقضية الاعجاز البيانى للقرآن الكريم فذهب بعضهم الى نفى السجع من القرآن الكريم ، ورأى تسمية ما يوجد على نمط فى القرآن « فواصل » . لأن الفواصل بلاغة والأسجاع عيب وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها ، ومن أجل ذلك يتضح فيها الاستدعاء والتكلف

---

(١) معانى القرآن ٣/٢٥٥ .
(٢) معانى القرآن .
(٣) معانى القرآن .

بخلاف الفواصل فانها تنزل فى مكانها المناسب لها ذهب الى هذا الرأى الرمانى (١) وتابعه الباقلانى (٢) والذى حدا بالباقلانى الى متابعة رأى الرمانى هو أن النبى صلى الله عليه وسلم ذم السجع عندما قال للذين جاءوا وكلموه فى شأن الجنين وهو : كيف نعرى من لاشرب ولا أكل ولا صاح فاستهل اليس دمه قد يطل » فقال عليه السلام : أسجعا كسجع الكهان . ويضاف الى ذلك وجه آخر كان دافعا للباقلانى الى القول بنفى السجع من القرآن وهو شيوعه فى عصره واتهام الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر مرة وآخرى بأنه كاهن وكل من الشاعر والكاهن لا يعجزه الاتيان بالسجع فى الكلام ، وعلى هذا لا يثبت الاعجاز فى القرآن الذى يحرص على اثباته ٠

ويرى أبو هلال أن السجع والازدواج ليس عيبا فى القرآن وعقد لهما فصلا فى كتابه يقول فيه « كذلك جميع ما فى القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف فى تمكن المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الحلاوة والطلاوة لما يجرى مجراه من كلام الخلق » (٣) ثم ذكر أمثلة للسجع فى القرآن وفى الحديث الشريف ، وأمثلة أخرى من السجع المتكلف ، ومن سجع الكهان ، ولو كان السجع كله مذموما عنده صلى الله عليه وسلم لقال : « اسجعا » وسكت ، ولكنه قيده بالسجع الذى يشبه سجع الكهان المتكلف فالانكار منه صلى الله عليه وسلم منصب على السجع المقيد بهذا القيد ٠ ثم ان السجع قد جاء كثيرا فى كلامه صلى الله عليه وسلم ، فكيف يذمه وينكره ، ويأتى به فى كلامه كقوله عليه السلام « أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا

---

(١) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن الكريم ص ٨٩ ٠
(٢) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٧٠ ٠
(٣) الصناعتين ٠

الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصـــلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » فأبو هلال يخالف الرماني والباقلاني في نفي السجع من القرآن ، ولا يرى فيه عيبـا ما دام قد وقع موقعـه في تمكين المعنى وصفـاء اللفظ واصابة الغرض ·

ويذهب الى هذا الرأى ابن سنان الخفاجي وابن الأثير فيرى الأول أن ما جاء منه في القرآن محمود لأنه جاء تابعا للمعاني ، وعقد ابن الأثير فصلا مطولا في كتابه « المثل السائر » ذهب فيه الى أن السجع لا عيب فيه ، وقد جاء أكثر القرآن مسجوعا بل ان السورة كلها تأتي مسجوعة ·

ونرى أن السجع لا عيب فيه ما دام وقع في موقعه المناســب بدون تكلف ، ولا فرق بين تسميته سجعا وبين تسميته فواصل ، والرسول صلى الله عليه وسلم انما نهى عن السجع المتكلف الذى يشبه سجع الكهان · ولم ينه عن السجع المطبوع الذى أملاه المعنى بدليل وقوعه في القرآن الكريم وفي حديثه صلى الله عليه وسلم ·

وعلى هذا يمكننا ان نقول ان الفراء قد تحدث عن ألوان بلاغية كثيرة منها : أغراض الخبر ، وصور خروج الكلام على غير مقتضى الظاهر كالالتفات والتعبير عن الماضي بلفظ المستقبل وعاكسه واستعمال لفظ الجمع في معنى الواحد ، والقلب ، وتحدث عن التقديم والتأخير ، والاستفهام وأغراضه · والأمر وأغراضه البلاغية أيضا ، وعن الحذف بأنواعه ، والفصل والوصل ، والتكرار ، وعطف الخاص على العام ، والتذييل · والاطناب بالتـــوكيد ، والكلام المنصف ، والإستدراج ، والتشبيه ، والاستعارة ، والمجاز المرسل · والمجاز العقلي ، والتجـاوز في حروف الجـر ، وتوجيه القراءات القرآنية لأغراض بلاغية ، والمشاكلة ، والفواصل ·

وقد تأثر كثير من العلماء بـــكتاب معاني القرآن منهم من أخـذ منه وأغفل الاشارة اليه · وعلى هـذا فانه قد أضـاف الى البحث البلاغي بعض اللبنات التي أسهمت في بناء صرح البلاغة العربية ·

الفصل الثالث

البلاغة عند ابن قتيبة في « تأويل مشكل القرآن »(١)

هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم المروزي ، ولد في سنة ٢١٣ هـ ونشأ ببغداد التي كانت حينئذ عامرة بأعلام العلماء في كل الفنون ، ومن ثم تطلعت نفسه منذ شبابه الى العلم والمعرفة ، فحضر مجالس العلماء واستفاد منهم في مختلف العلوم والفنون ، ومن هؤلاء الأعلام الذين تتلمذ لهم : والده مسلم بن قتيبة ، ومحمد بن سلام الجمحي ، وأحمد بن سعيد اللحياني ، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني ، وأبو عثمان الجاحظ ، وأبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي .. وغيرهم كثير .

وهو من أهل السنة الثقات المناضلين عن مذهبهم ، فجرد قلمه للدفاع عنهم بكل ما أوتي من الحجة والمنطق ، والقول البليغ المؤثر ، ضد المذاهب الكلامية الأخرى لا سيما مذهب المعتزلة ، وكان يميل المذهب البصري ، ولكنه لم يكن متعصبا له بل مزج بين المذهب البصري والكوفي في آرائه النحوية ، وله مؤلفات عديدة منها : غريب القرآن وغريب الحديث ، وتأويل مختلف الحديث ، وتأويل مشكل القرآن ، وكتاب الأنوار ، وكتاب عيون الأخبار ، وأدب الكاتب ، والشعر والشعراء والمعاني الكبير ، والمسائل والأجوبة في الحديث واللغة،وغير ذلك كثير وقد استفاد من علمه وتتلمذ له عدد كبير منهم أحمد ابنه ، وأبو بكر محمد بن خلف المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩ هـ ، وعبد الله بن جعفر بن درستويه وأبو بكر أحمد بن الحسين الدينوري . وأحمد بن مروان المالكي ت ٢٩٨ هـ وتوفى ابن قتيبة في سنة ٢٧٩ هـ في خلافة المعتمد .

---

(١) انظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ١١/٤٨ ، ٥٧ ، وانباه الرواة ٢/١٤٧ .

أما كتابه « تأويل مشكل القرآن » فقد ألفه للرد على الطاعنين والملحدين الذين أثاروا الشكوك والمطاعن فى القرآن الكريم ، فسرد مطاعنهم على اختلاف أنواعها من اختلاف القراءات والخطأ فى أوجه الاعراب وما يوهم ظاهره التناقض وغير ذلك وردعليهم ، وفند مزاعمهم فيما أثاروا وأبطل حججهم . وقد أعانه على ذلك ما يتمتع به من سعة فى العلم . وغزارة فى البيان . وحس مرهف . وذوق مستنير ، وبصر بمواقع الكلام ، ويحدثنا عن منهجه فى مقدمة كتابه فيقول :

« .. فأحببت أن انضح عن كتاب الله ، وأرمى من ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين الساطعة وأكشف للناس ما يلبسون فألفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن ، مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة فى الشرح والايضاح ، وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لامام مطلع على لغات العرب ، لأرى به المعانه موضع المجاز ، وطريق الامكان من غير أن أحكم فيه برأى أو اقضى عليه بتأويل ، ولم يجز لى أن أنص بالاسناد الى من له أصل التفسير . اذ كنت لم اقتصر على وحى القوم حتى كشفته ، وعلى ايمائهم حتى أوضحته ، وزدت فى الألفاظ ونقصت ، وقدمت وأخرت ، وضربت لذلك الأمثال والأشكال حتى يستوى فى فهمه السامعون » (١) .

وقد سار ابن قتيبة على مذهب أهل السنة فى تفسير الآيات القرآنية التى تحتوى على تشبيه يتصل بذات الله مثل قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ، « وقالت اليهود يد الله مغلولة » وقوله تعالى : « وسع كرسيه السموات والأرض » ، « الرحمن على العرش استوى » .. وغير ذلك .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٣ .

فكان يعقب على هذه الآيات وما شابهها بما يفيد ترك هذه الأوصـــاف على ظاهرها ، ولكنه يرد علمها الى الله تعالى ، لأننا لا ندرى كنه هذه الصفات ولا ابعادها ، ولا كيفيتها (١) ، يتضح هذا من قوله : (ولما رأى قـوم من الناس افراط هؤلاء فى النفى عارضوهم بالافراط فى المثيل ، فقـــالوا بالتشبيه المحض ، وبالأقطار والحدود ، وحملوا الألفاظ الجائية فى الحديث على ظاهرها .. وكلا الفريقين غالط ، وعدل القول فى هذه الاخبار أن نؤمن بما صح منها بنقل الثقات لها ، فنؤمن بالرؤية والتجلى ، وأنه عـلى العرش استوى ، وبالنفس واليدين ، من غير أن نقول فى ذلك بكيفية أو حد ، أو نقيس على ما جاء مالم يأت ، ونرجو أن نكون فى ذلك القول والعقد عـلى سبيل النجاة غدا ان شاء الله . (٢)

أما حديثه عن البلاغة فقد تناول منها مســائل كبيرة يدخل معظمها تحت باب المجاز ، فتحدث عن المقام وما يقتضيه من الكلام على حسب الحال لان الافتنان فى الكلام من عادة العرب ومنهجها فى خطبها فيقول :« فالخطيب من العرب اذا ارتجل كلاما فى نكاح أو حمالة أو تحضيض أو صلح ، أوما اشبه ذلك - لم يأت به من واد واحد بل يفتن فيختصر تارة ارادة التخفيف ويطيل تارة ارادة الافهام ، ويكرر تارة ارداة التوكيد ، ويخفى بعض معانيه حتى يغمض على اكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين ويشير الى الشىء ويكنى عن الشىء ، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل ، وكثرة الحشد ، وجلالة المقام » (٣) .

---

(١) انظر : أثر النحاة فى البحث البلاغى ١٧٥ .
(٢) اختلاف اللفظ ٤٥ ، ٤٧ .
(٣) تاويل مشكل القرآن ص ١٣ .

وتحدث ابن قتيبة أيضا عن فائدة الخبر حين وصف القوم الذين طعنوا فى القرآن بقصور العلم وسوء النظر ، لأنهم نفوا الفائدة عن بعض الأخبار التى وردت فيه ، منها قوله تعالى : « وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم ذات الشمال » فقالوا : وما فى هذا الكلام من الفائدة ؟ وما فى الشمس اذا مالت بالغداة والعشى عن الكهف من الخبر ؟ ، وأى معنى ألطف مما أودع الله هذا الكلام ؟، وانما أراد عز وجل أن يعرفنا لطفه للفتية وحفظه اياهم فى المهجع واختياره لهم أصلح المواضع للرقود ، فأعلمنا أنه بوأهم كهفا فى مقنأة الجبل - أى لا تصيبه الشمس - لأنها تزور عن مكانهم وتستديره طالعة وجارية وغاربة ، ولا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرها ، وتلفحهم بسمومها ، وتغير ألوانها ، وتبلى ثيابهم » (١) .

والمجاز عند ابن قتيبة قد اتسع فشمل كثيرا من مسائل البلاغة وهو الذى كثرت فيه أغلاط الناس ، « لأنهم خلطوا بين ما هو مجاز ، وما هو حقيقة لذا كانت هذه المسائل التى يشتمل عليها المجاز من الأمور المشكلة التى يجب أن يبين فيها وجه التأويل فيقول : « وللعرب المجازات فى الكلام ، ومعناها : طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم والتأخير ، والحذف ، والتكرار ، والاخفاء ، والاظهار ، والتعريض والافصاح ، والكناية والايضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص ، مع أشياء كثيرة ستراها فى أبواب المجاز ان شاء الله » (٢) ومما تجدر الاشارة اليه أن المجاز عند ابن

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٩ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٢٠ ، ٢١ .

قتيبة وإن كان قد اتسع مدلوله لدخول كل هذه الألوان البلاغية الا أنه ضاق عما كان عليه عند أبى عبيدة ، لأنه انحصر عند ابن قتيبة فى المدلول البيانى الذى عبر عنه بقوله « ومعناها : طرق القول ومآخذه ، فخرج منه : ما عبر عن المعنى والتفسير مما وجد عند ابى عبيدة »

الاستعارة — اتسع مدلولها عنده فشمل ألوانا بلاغية كثيرة منها المجاز المرسل ، والتشبيه البليغ ، والكناية ، والمشاكلة ، والمبالغة والاستعارة المفيدة · وغير المفيدة ، بأنواعها التصريحية الأصلية والتبعية والمكنية والتمثيلية ، فبدأ حديثه عنها بقوله : « فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة ، اذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاورا لها أو مشكلا »فيقولون للبنات نوء ، لأنه يكون عن النوء عندهم ، ويقولون للمطر سماء ، لأنه من السماء ينزل قال الشاعر ·

اذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا (١)

وهنا يدخل فى باب المجاز المرسل الذى علاقته المحلية أو السببية ، لأن السماء لا تسقط ، وانما يسقط ما فيها من الأمطار التى هى سبب فى نمو النبات واستشهد به البلاغيون أيضا على لون بديعى عرف باسم « الاستخدام » وهو أن يراد بلفظ — له معنيان — أحدهما ثم يراد بضميره المعنى الآخر ، فأراد بالسماء الغيث بقرينة « نزل » ثم أعاد عليها الضمير فى « رعيناه » مريدا منه معنى آخر هو « النبات » على طريق المجاز المرسل الذى علاقته السببية ، لأن الغيث سبب فى النبات ، والقرينة لفظ « رعيناه » ·

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٣٥ .

ومن الاستعارة أيضا ما عرف باسم المجاز المرسل الذى علاقته المحلية أو الآلية كاللسان يوضع موضع القول ، لأن القول يكون به ، قال الله عز وجل حكاية عن ابراهيم — عليه السلام — « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » أى ذكرا حسنا قال الشاعر :

انى اتتنى لسان لا أسر بها ... من علو لا عجب منها ولا سخر

أى أتانى خبر لا أسر به (١) .

فاللسان فى الآية يراد به الذكر الحسن من باب اطلاق اسم المحل على الحال ، وقد يكون من باب تسمية الشىء باسم آلته ، لأن اللسان هو آلة الكلام ، ونحو هذا يقال فى البيت .

وأطلق الاستعارة أيضا على ما عرف بالتشبيه البليغ كما فى قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » أى مزدرع لكم كما تزرع الأرض ، ومنه قوله تعالى هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » (٢) وقد أطلق الزمخشرى المجاز على الآية الأولى فقال : « فيها مواضع حرث لكم ، وهذا مجاز شبههن بالمحارث تشبيها لما يلقى فى أرحامهن من النطف التى منها النسل بالبذور » (٣) ولعله أطلق المجاز هنا باعتبار حمل المشبه به على المشبه فيكون اطلاقه على صورة التشبيه من باب التساهل وعدم الالتزام برأى المحققين . . »

والمشاكلة عنده أيضا من الاستعارة فيقول فى قوله تعالى : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » : يريد الختان فسماه صبغة ، لأن النصارى

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٤١ .
(٣) الكشاف ٣٦٢/١ .

كانوا يصبغون أولادهم فى ماء ، ويقولون : هذا طهره لهم كالختان للحنفاء فقال « صبغة الله » أى الزموا صبغة الله لا صبغة النصارى أولادهم وأراد بها ملة ابراهيم عليه السلام » (١) والمشاكلة عرفها البلاغيون بقولهم : « هى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديرا » فما ذكره ابن قتيبة من اللون الثانى وهو الوقوع التقديرى ، أما اللون الأول وهو الوقوع التحقيقى فقد جعله من المجازاة عن الفعل بمثل لفظه والمعنيان مختلفان نحو قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » هى من المبتدىء سيئة ، ومن الله عز وجل جزاء » (٢) وعلى هذا التفسير يكون قد جمع بين المشاكلة والجناس فقد اتحد اللفظان واختلف معنى كل منهما فسيئة الأولى بمعنى الاعتداء ، والسيئة الثانية بمعنى الجزاء والعقاب ، وهذا هو الجناس

وجعل من الاستعارة ما عرف باسم الاستعارة اللفظية أو الاستعارة غير المفيدة التى هى من باب التوسع اللغوى ، لأنها تجرى بين الأسماء التى تتحد أجناس مسمياتها كالشفة والمشفر والجحفلة ، والقدم والحافر والأظلاف .. الخ ففى قوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر » يقول : أى كل ذى مخلب من الطير ، وكل ذى حافر من الدواب ، وسمى الحافر ظفرا على الاستعارة كما قال الآخر وذكر ضيفا طرقه :

فما رقد الولدان حتى رأيته ... على البكر يمريه بساق وحافر

فجعل الحافر موضع القدم ، والعرب تقول للرجل : هو غليظ المشافر تريد الشفتين ، والمشافر للابل » (٣) .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٤٩ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٢٧٧ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

وأشار الى ما عرف باسـم الاسـتعارة المكنية فيقول : « ويقولون: ضحكت الأرض ، اذا أنبتت ، لأنها تبدى عن حسـن النبات ، وتنفتق عن الزهر كما يفتر الضاحك عن الثغر (١) ·

وأشار أيضا الى ما عرف بعد باسم الاستعارة التصريحية الأصـلية والتبعية فى قوله تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس أى كان كافرا فهديناه ، وجعلنا له ايمانا يهتدى به سبل الخـير والنجاة كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها أى فى الكفر ، فاسـتعار الموت مكان الكفر والحياة مكان الهداية ، والنور مكان الايمان » (٢) ·

وأشار أيضا الى ما عرف بعد باسم الاستعارة التمثيلية كما فى قوله تعالى « وقدمنـا الى ما عملوا من عمل فجعلنـاه هباء منثـورا يقول : « أى قصدنا ـ لأعمالهم وعمدنا لها ، والأصل أن من أراد القدوم الى موضع عمد له وقصده » (٣) ·

وقد تأثر به الزمخشرى فى تفسيره لهذه الآية :

ومن الاستعارة قوله تعالى : « وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » يعنى جنته سماها رحمة ، لأن دخـولهم اياها كان برحمتـه (٤) والكناية عنـده من الاسـتعارة كما فى قوله تعالى : « ولكن لاتواعدوهن سرا » أى نكاحا ، لأن النكاح يكون سرا ولا يظهر فاسـتعير له السر » (٥) وهو فى الحقيقة كناية عن الجماع أو عن الوعد الصريح بالنكاح

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٣٦ ·
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٤٠ ·
(٣) تأويل مشكل القرآن ١٣٨ ·
(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٤٥ ·
(٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٤١ ·

وهو مراد ابن قتيبة بدليل أنه قال فى قوله تعالى : « لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا » أصل اللهو : الجماع فكنى عنه باللهو ، كما كنى عنه بالسر ، ثم قيل المرأة لهو لأنها تجامع قال امرؤ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وألا يحسن اللهو أمثالى

اى النكاح ، ويروى ايضا : وألا يحسن السر أى النكاح • (١)

وقد تجتمع الكناية مع التعريض فيلتقيان فى المعنى كما فهم من قوله . « والعرب تستعمل التعريض فى كلامها كثيرا فتبلغ ارادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح ، ويعيبون الرجل اذا كان يكاشف فى كل شيء ، ويقولون لا يحسن التعريض الا ثلبا » (٢) •

وتحدث ابن قتيبة عن ألوان بلاغية تدخل تحت ما عرف باسم « اجراء الكلام على غير مقتضى الظاهر منها : الالتفات ، وعده من باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه فقال : ومنه أن يخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب ، وخطاب الغائب للشاهد فالأول كقوله عز وجل : « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها » والثانى : كقول الهزلى :

ياويح نفسى كان جدة خالد وبياض وجهك للتراب الأعفر

أشار ابن قتيبة الى صورتين من الالتفات فقط وهما الانتقال من الخطاب للغيبة ومن الغيبة للخطاب •

وتحدث عن التعبير عن المضارع بلفظ الماضي فقال : « ومنه أن يأتى الفعل على بنية الماضى وهو دائم أو مستقبل كقوله تعالى : « واذ قال الله

---

(١) تاويل مشكل القرآن ص ١٦٣ •
(٢) تاويل مشكل القرآن ص ٢٦٣ •

ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله » أى وإذ يقول الله يوم القيامة يدلك على هذا قوله سبحانه « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » وقوله : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » يريد : يوم القيامة فلا تستعجلوه لأنه سيأتى قريبا . (١) .

وتحدث عن الجمع الذى يراد به واحد واثنان كقوله تعالى : « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » فالمراد بالمؤمنين واحد واثنان فما فوق ، وقوله تعالى « أن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما » وهما قلبان .

ومنه واحد يراد به جمع كقوله تعالى : « هؤلاء ضيفى فلا تفضحون » ومنه وصف الجميع بصفة الواحد نحو قوله تعالى : « والملائكة بعد ذلك ظهير » (٢) فنراه يكثر من ذكر الأمثلة فى هذه المواضع ، لكنه لا يعلق عليها بما يفيد سر بلاغتها .

وتعرض ابن قتيبة للقلب وهو يتسع عنده فيشمل ما يتصل منه باللغة وهو أن يوصف الشىء بضد صفته للتطير والتفاؤل كقولهم للديغ سليم تطيرا من السقم وتفاؤلا بالسلامة ، أو للمبالغة فى الوصف كقولهم : للغراب أعور لحدة بصره ، أو للاستهزاء كقوله تعالى « انك لأنت الحليم الرشيد » (٣) فوصف الكفار شعيبا عليه السلام بالحلم والرشد وأرادوا ضدهما وهو السفه والغواية وهو من الاستعارة التهكمية ، ومن الاستهزاء قوله تعالى : « لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون » وهو من خروج الأمر عن معناه الحقيقى الى معنى آخر مجازى وهو

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٩٥ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ١٨٥ .

التهكم ، وهذا كله راجع للتضاد فى الالفاظ ، ويشمل ما يتصل منه بالبلاغة وهو ما ذكره بقوله : « ومن المقلوب أن يتقدم ما يوضحه التأخير ، ويؤخر ما يوضحه التقديم كما فى قوله تعالى « ولا تحسبن الله مخلف وعده رسله » أى مخلف رسله وعده ، لأن الاخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل ، فتقول أخلفت الوعد وأخلفت الرسل ، وكذلك قوله تعالى : « فأنهم عدو لى الا رب العالمين » أى فانى عدو لهم ، لأن كل من عاديته عاداك ومنه قول الشاعر :

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه ... وسائره باد الى الشمس أجمع

أراد مدخل رسه الظل فقلب ، لأن الظل التبس برأسه ، فصار كل واحد منهما داخلا فى صاحبه ، والعرب تقول : اعرض الناقة على الحوض تريد اعرض الحوض على الناقة ، لأنك اذا أوردتها الحوض اعترضت بكل واحد صاحبه ، (١) ومنه قول رؤبة ٠

ومهمه مغبرة أرجاؤه ... كأن لون أرضه سماؤه

وكان الوجه أن يقول : كأن لون سمائه من غبرتها لون أرضه ، فقلب لأن اللونين استويا » (٢) وقد تضمن القلب فى هذا البيت اعتبارا لطيفا يؤدى الى قوة المعنى وهو المبالغة فى وصف لون السماء بالغبرة لأنه جعلها الأصل فى انتشار الغبرة حيث جعلت السماء مشبها به ، وبهذا قبله جمهور البلاغيين ٠

وذكر ابن قتيبة نوعا من القلب سماه المقلوب على الغلط وبين أنه لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله عز وجل ، لأن الله لا يغلط ولا يضطر ولعله يقصد أبا عبيدة فى تفسيره لقوله تعالى : « ومثل الذين كفروا كمثل

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٩٣ ، ١٩٤ ٠

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٩٧ ٠

الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء » حيث قال : وقع التشبيه بالراعى فى ظاهر الكلام والمعنى للمنعوق به وهو الغنم » (١) ويوضح ابن قتيبة خطأ هذا الرأى ، والصواب أن يقال : « ومثل الذين كفروا ومثلنا فى وعظهم كمثل الناعق بما لا يسمع ، فاقتصر على قوله : « ومثل الذين كفروا » وحذف « ومثلنا » ، لأن الكلام يدل عليه ، ومثل هذا كثير فى الاختصـــار . فيكون علة هذا القلب الاختصار ، وليس الغلط ، لأنه لا يجـوز فى كتاب الله ، بخلافه فى الشعر ، لأن الشعراء تقلب اللفظ ، وتزيل الكلام على الغلط أو على طريق الضرورة للقافية أو لاستقامة وزن البيت .

وتحدث عن تكرار الكلام والزيادة فيه ــ فالقرآن نزل بلسان العرب وعلى مذاهبهم فى التكرار ، لارادة التوكيد والافهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار ارادة التخفيف والايجاز ، لأن افتنان المتكلم والخطيب فى الفنون وخروجه عن الشىء الى شىء أحسن من اقتصاره فى المقام على فن واحد،وذكر أمثلة له كثيرة منها قوله تعالى « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » وقوله : « فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا » أولى لك فـأولى ، وأما تكرار « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فانه عدد فى هذه السورة نعماءه واذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه ، ثم أتبع ذكر كل خلة وصفها بهذه الآية ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ليفهمهم النعم ويقررهم بها » (٢) وقد نقل هذا الكلام أبو هلال العسكرى فى الصناعتين .

وتحدث عن تكرار المعنى بلفظين مختلفين ، وذلك لاشـــباع المعنى

(١) تاويل مشكل القرآن ص ١٩٩ .
(٢) تاويل مشكل القرآن ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

والاتساع فى الألفاظ ، وذلك كقول القائل امرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر والأمر بالوفاء هو النهى عن الغدر وأدخل فى هذا النوع ماعرف بعد من عطف الخاص على العام كقوله سبحانه : « فيهما فاكهة ونخل ورمان » ، والنخل والرمان من الفاكهة فافردهما عن الجملة التى أدخلهما فيها لفضلهما وحسن موقعهما ، وقوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » وهى منها فأفردها بالذكر ترغيبا فيها وتشديدا لأمرها » (١) .

وأما الزيادة فى التركيد فذكر ابن قتيبة أمثلة كثيرة لها ، منها قوله تعالى : « يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم » ، لأن الرجل قد يقول بالمجاز كلمت فلانا ، وانما كان ذلك كتابا أو اشارة على لسان غيره ، فأعلمنا أنهم يقولون بأفواههم أى بالسنتهم وكذلك قوله : يكتبون الكتاب بأيديهم ، لأن الرجل قد يكتب بالمجاز ، وغيره الكاتب عنه » (٢) وهكذا فالتأكيد بالزيادة هنا لدفع توهم التجوز .

وتحدث ابن قتيبة عن الاستفهام وخروجه عن معناه الحقيقى الى معان أخر كالتقرير والتعجب والتوبيخ ، ففى حديثه عن « هـل » التى هى من حروف المعانى يبين أنها للاستفهام وقد تدخلها معان أخر كالتقرير والتوبيخ فالتقرير والتوبيخ كقوله تعالى : « هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء » ؟ وقد تأتى بمعنى « قد » كقوله تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر » أى قد أتى ، وقد تكون بمعنى « ما » فى قوله تعالى : « هـل ينظرون الا

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٤٠ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٢٤١ .

تأويله » ، وقوله : « فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » (١) وتحدث عن المجاز العقلي ، وجعله من باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه فقال : « ومنه أن يجيء المفعول به على لفظ الفاعل كقوله تعالى : « لا عاصم » - ماء دافق - عيشة راضية - حرما آمنا - آية النهار مبصرة .. الخ وقد يأتي الفاعل بلفظ المفعول به وهو قليل كقوله : انه كان وعده مأتيا » أي آتيا ، (٢) وقوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم) وانما يربح فيها ، ولم يضف فيه شيئا عما ذكره السابقون .

وتحدث عن خروج الأمر عن معناه الحقيقي الى معان أخر تفهم من السياق منها : التهديد كقوله تعالى : « اعملوا ما شئتم » والتأديب مثل : واهجروهن في المضاجع ، والاباحة مثل فكاتبوهم ان علمتم فيهن خيرا ويأتي على لفظ الأمر وهو فرض كقوله : « فاتقوا الله » وأقيموا الصلاة(٣)

وأشار ابن قتيبة الى بعض الألوان البديعية منها : ما عرف باسم تأكيد المدح بما يشبه الذم كما في قوله تعالى : « وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » فقال : « ليس ينقمون شيئا ، ولا يعرفون من الله الا الصنع الجميل وهذا كقول الشاعر :

ما نقم الناس من أمية الا ... م أنهم يحلمون ان غضبوا
وأنهم سادة الملوك فلا ... تصلح الا عليهم العرب

وهذا ليس مما ينقم ، وانما أراد أن الناس لا ينقمون عليهم شيئا ، وكقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

أي ليس فيهم عيب .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٥٣٨ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٢٩٦ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٨٠ .

وعرض ابن قتيبة لحسن الابتداء وقد تأثر بالأصمعي فيه فنقل عنه قوله : لم يبتدىء أحد مرثية أحسن من قول أوس بن حجر :

أيتهـا النفس أجملي جزعا ... ان الذى تحذرين قد وقعا

وقد تعرض ابن قتيبة لألوان بلاغية أخرى منها : التقديم والتأخير ، ولم يزد فيه عما قاله السابقون ، ومنها : الحذف والاختصار ، فتحدث عن حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ، وحذف الفعل ، وحذف جواب الشرط ، وحذف جواب القسم ، وحذف الصفة .

الفصل الرابع

البلاغة عند القاضي عبد الجبار (١)

هو أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمذانى الأسد أبادى ، ولد فى ضواحى مدينة همذان باقليم خراسان وقد ولاه الصاحب بن عباد قضاء الرى وقزوين ، وكان فى ابتداء حاله يذهب فى الأصول مذهب الأشعرية ، وفى الفروع مذهب الشافعى ، فلما حضر المجالس وناظر ونظر عرف الحق فانقاد له فأصبح معتزليا بل انتهت اليه رياسة المعتزلة حتى صار شيخها وعالمها غير مدافع ، وقد برع فى علوم شتى منها : علم الكلام ، وعلم الفقه والتفسير وأصول الفقه والحديث ، وقد أبلى القاضى عبد الجبار بلاء حسنا فى الدفاع عن الاسلام ضد خصومه من الدهريين ومنكرى النبوة ، والثنوية ، والنصارى، واليهود ، والصابئة وأصناف الملاحدة . ومن أهم أساتذته أبو هاشم الجبائى المعتزلى فقد عنى بآرائه وأبيه أبى على عناية كبيرة ذكر كثيرا منها فى كتبه وخاصة كتاب المغنى ، ومن أشهر تلامذته : أبو رشيد النيسابورى وأبو يوسف القزوينى ، والشريف المرتضى ، وأبو حسين البصرى . ومن أهم كتبه وآثاره العلمية .

الأمالى فى الحديث ، وتثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ، وتنزيه القرآن عن المطاعن ، ومتشابه القرآن ، وشرح الأصول الخمسة ، وفضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، المغنى فى ابواب التوحيد والعدل ، ورسالة فى علم الكيمياء .

---

(١) انظر ترجمته : طبقات الشافعية ٣/٢١٩ ، ومعجم البلدان لياقوت ٤/٩٨١ وطبقات المفسرين للسيوطى ص ١٦ طبع ليدن ، وشذرات الذهب ٣/٢٠٣ .

ومما تجدر الاشارة اليه أن المعتزلة أسهموا بنصيب موفور فى الدفاع عن الاسلام ضد المذاهب الفاسدة والملاحدة والمعتقدات الباطلة منهم الروافض الذين أدخلوا على الاسلام كل ما هو غريب عنه من آراء ومعتقدات كدرت صفاءه وزيفت تعاليمه ، اذ كانوا أخطر الفرق فى الاسلام،والمجبرة، والحشوية ،والدهريون ، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أخذوا يحاربون العقيدة ، ويشككون فى الدين ، ويثيرون مسألة الناسخ والمنسوخ والمتناقض من الأحاديث الضعيفة ، والمتشابه من آى القرآن الكريم ، فكان لابد من مواجهة هؤلاء بالحجج النيرة والبراهين الساطعة لدحض مفترياتهم وبيان ضلالهم ، فاقبلوا على تعلم الفلسفة اليونانية ، وعلى علوم اللغة ينهلون منها لكى يواجهوا خصومهم بالمنطق والحجة والجدل ، وبالتعبير المؤثر البليغ الذى نراه فى خطبهم ومناظراتهم ، يقول الجاحظ : « ان كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء » .

وبرز منهم علماء فى التفسير يقفون عند المتشابه فى الآيات يؤولونها وفق مذهبهم ويبينون المراد منها ، ويستدلون عليها بالآيات المحكمة التى تتفق مع مذهبهم ، وقد اعتمدوا على العقل والمنطق فى التأويل ، والتوفيق بين الآيات التى تناقض مذهبهم ، واعتمدوا أيضا على اللغة ودلالة الفاظها وتراكيبها واللجوء الى المجاز وسائر ألوان المعانى والبيان فى الانتصار لمبادئهم الاعتزالية .

وعلى رأس المعتزلة القاضى عبد الجبار ، وسنتناول أهم الألوان البلاغية التى تحدث عنها فى كتابيه « متشابه القرآن » والمغنى فى أبواب التوحيد والعدل لاسيما الجزء السادس عشر منه الخاص باعجاز القرآن .

اولا : البلاغة فى « متشابه القرآن »

تناول عبد الجبار بعض الألوان البلاغية من خلال تفسيره لآيات المتشابه فى القرآن وتأويلها بما يتفق مع القواعد والأصول التى بنى عليها المعتزلة مذهبهم وهى خمسة — التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن الألوان البلاغية التى تاولها :

١ — صيغة الأمر والأغراض البلاغية المستفادة منه بخروجه عن معناه الحقيقى الى معان أخرى تفهم من خلال النظم ويدل عليها السياق وهى التقرير والتقريع ، والتهديد والتقريع ، والتوبيخ والتقريع · وسرعة الاستجابة ففى قوله تعالى : « انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » يقول : الأمر فى الآية ليس على جهة الالزام والتكليف بل هو على جهة التقرير والتقريع وذلك انه تعالى بين انه خص آدم عليه السلام بأن علمه الأسماء ليكون معجزا ، فأراد أن يبين للملائكة أن هذا الاختصاص يوجب نبوته ، فقررهم بقوله : « أنبؤنى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » على ذلك

والظاهر أن الأمر فى الآية للتعجيز بقرينة كون المأمور يعلم أن الآمر عالم بذلك ، فليس هذا من التكليف بالمحال كما ظنه بعض المفسرين

ويبين عبد الجبار أن هذا المعنى وغيره من معانى الأمر استفيد من نظم الكلام وسياقه بما يتقدم منه وما يتأخر ، فيجب أن ننظر فى دلالة النص كله ، ولا تكتفى بدلالة صيغة الأمر مقطوعة عن السياق الذى وردت فيه فيقول : « وصيغة الأمر قد ترد ولا تكون أمرا بل تكون تهديدا وتقريعا ، وتقريعا واباحة ويعلم حاله بما يتقدم من الكلام يتأخر ، وقد بينا أن صدر الكلام يدل على تقريع وليس بأمر · وقوله تعالى من بعد « قال يآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنباهم بأسمائهم قال ألم اقل لكم انى أعلم غيب السموات

والأرض ، وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون » يدل جميعه على أن الغــرض بالأول هو التقرير ، لأنه لو كان تكليفا لكان لا يتغير حاله بأن يخبرهم آدم عليه السلام بالأسماء ، ولم يكن لقوله تعالى عنـــد ذلك « انى أعلم غيب السموات والأرض » معنى ، واذا حمل على أنه تقرير يحسن موقعه » (١) .

ويستفاد التهديد والتقريع من صيغة الأمر وهى الفعل المضـــارع المقترن بلام الأمر فى قوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » يقول عبد الجبار : « ظاهره يقتضى أنه أمر بالكفر ، وهــذا ليس بقول لأحد ، فلابد أن يكون المراد به التهديد والتقريع .. كما يقول أحدنا لغلامه ، وقد بين له الشىء الذى يلزمه التمسك به ، ويضره العدول عنه : ان سلكت ما أقوله .. والا فاعمل ما شئت على طريق التهديد وهــو ظاهر » (٢) وهذا مبنى على معتقدهم فى عدل الله بأنه لا يريد الشر ولا يامر به ، وانما أطلق لخلقه حرية الارادة فى الفعل واختيارهم له فالله لم يشأ لهم الكفر ولم يأمرهم به على الحقيقــة فيــكون تكليفا والزاما ، وانما ذلك على سبيل التهديد والتقريع بأنهم ان أرادوا الكفر واختاروه فسيلقوا جزاءهم الذى أعده الله لهم يوم القيامة وهو ما ذكره الله بقوله : « انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها .. الآية .

ويستفاد التقريع والتوبيخ من الأمر فى قوله تعـــالى : « فذرهم فى غمرتهم حتى حين » يقول القاضى عبد الجبار : « نبه تعالى بهذا الكلام عــلى التقريع والتوبيخ للعقاب المنتظر الذى دل عليه بقوله : « حتى حين » فزجر بذلك الكافر عن كفره ، وانما سمى ذلك غمرة لاستيلائه على القلب ، ولانه

(١) متشابه القرآن للقاضى عبد الجبار ص ٨١ ، ٨٢ ط دار التراث .
(٢) متشابه القرآن ص ٧٥ ، ٤٠ .

غمر سائر افعاله وتخليه فصار العقاب أولى به » (١) وهذا مبنى على اعتقاد المعتزلة في عدل الله الذى يترتب عليه أن يفعل ما هو أصلح لعباده وأنفع لهم ، وهى نظرية مشهورة عندهم تعرف بنظرية الصلاح والأصلح ، فظاهر قوله ، « فذرهم فى غمرتهم يقتضى الأمر بتخليتهم وما يختارون من الجهل والكفر ، وهذا هو الواجب على الرسول عليه السلام فلا يجوز أن يقهرهم على ذلك ، وهذا متفق مع قواعدهم الاصولية أما مالا يتفق فان فى ظاهر الأمر فى الآية ما يدل على أنه تعالى يخلى العبد والجهل وأنه يفعل الأفعال لا لصلاح الخلق ، ومن ثم قال عبد الجبار ان الأمر فيها على سبيل التقريع والتوبيخ .

وقد يراد من الأمر سرعة الاستجابة كما فى قوله تعالى : « واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » يقول : يعنى أنه يكون من دون تراخ ومعاناة ومشقة وأنه فى حدوثه بأيسر مدة بمنزلة قول القائل « كن » والعرب قد تذكر القول وتريد به سرعة الاستجابة كما يقول قائلهم : « وقالت له العينان سمعا وطاعة فأراد الله بهذا الكلام بيان اقتداره واستحالة المنع عليه بخلاف سائر القادرين » الذين يحتاجون الى زمان فى الأفعال ويصح عليهم المنع (٢) .

٢ - الاستفهام يبدو أن الاستفهام وما يفيده من الأغراض البلاغية لايتعارض مع المبادىء والأصول الاعتزالية فى الظاهر ، لذلك نجد عبد الجبار لم يتعرض له فى آيات المتشابه الا فى آية واحدة وهى قوله تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » ؟ فيذمهم ويوبخهم ، ويؤكد

---

(١) متشابه القرآن ص ٥١٦ .

(٢) متشابه القرآن ص ١٠٨ .

ذلك بذكر نعمة الله عليهم ، وهم مع ذلك كالظروف لا يفعلون ، وانما يفعل فيهم » (١) والاستفهام فى الآية غرضه البلاغى الانكار التوبيخى .

٣ – الاعتراض : تحدث عنه عبد الجبار ونقل ماذكره أبومسلم محمد بن بحر الأصفهانى المعتزلى فى تفسيره المسمى « جامع التأويل فى تفسير القرآن» عند قوله تعالى : واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان » فقال « انهم اتبعوا ماكذبوا فيه على سليمان وعلى ما أنزل على الملكين ، فعطف « بما أنزل على الملكين » على « ملك سليمان » من حيث اجتمعا فى أن الشياطين كذبوا عليهما جميعا ، وان كان أحدهما انقطع عن الآخر بكلام تخللهما ، وذلك غير ممتنع فى اللغة ، وقوله عز وجل « وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » كلام تخلل هاتين الجملتين مستقل بنفسه ، يدل على تنزيه سليمان ، وأن الشياطين كفروا ، وكذبوا بما كذبوا به عليه ، وقال : يجب تنزيه الملكين عن السحر والقول به وتليمه ، ويجب تنزيه الملكين عما حكته الشياطين كما يجب تنزيه سليمان عن ذلك ، وأن يقال فى الملكين انهما كالأنبياء فى انه ما نزل عليهما ، ولا انزلا الا الحق ، وما علما الا الدين والشرع » (٢) فالغرض البلاغى من الاعتراض فى هذه الآية هو تنزيه سليمان عليه السلام مما نسب اليه من السحر الذى روجته الشياطين ، حتى اعتقدته اليهود وقالوا ما كان سليمان الا ساحرا فأراد المولى عز وجل أن يبرىء ساحته من هذه الأباطيل التى الصقتها الشياطين بملكه وتبعهم اليهود فى ذلك .

---

(١) متشابه القرآن ص ٧٠ .
(٢) متشابه القرآن ص ١٠٢ .

٤ - التأكيد - تحدث عبد الجبار عما عرف باسم الاطناب بالتأكيد ، فى بعض الآيات التى يوهم ظاهرها اثبات الجوارح لله سبحانه وتعالى فنفى أن تكون على ظاهرها ، وانما هى مؤولة ، منها قوله تعالى : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما » فيقول فى تأويلها : « قد ثبت ان ذكر الأيدى هو على طريق التأكيد نحو قول القائل لغيره : « ذلك بما جنته يداك ، وان كانت الجناية بالقول والكلام ، فالمراد به ما جنيته » (١) فكذلك المراد بهذه الآية ٠

٥ - ايجاز القصر - أشار القاضى عبد الجبار الى ايجاز القصر فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » فقال فى تفسير « لما يحييكم » : أراد به المبالغة فى الجهاد لكيلا يقوى العدو فيقدم عليهم بالقتل ، فيكون ذلك احياء فى المعنى،ويقارب قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » (٢) يعنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم اذا دعاهم الى الجهاد فى سبيل الله فهو لا يدعوهم الى ما فيه هلاكهم ، وانما يدعوهم الى ما فيه حياتهم وحياة أولادهم وذريتهم ، لأن فى كسر شوكة العدو بالقتل عن طريق الجهاد اضعافا له فلا يقوى على قتلهم فيكون ذلك سببا فى حياتهم ، ثم ان من استشهد من المسلمين فى هذا الجهاد يصير الى حياة باقية يرزق فيها من النعيم الدائم الذى أعده الله له يؤيده قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فقد تضمن قوله : « لما يحييكم حياتهم فى الدنيا وحياة ذريتهم بسبب اضعاف عدوهم ، وحياة من استشهد منهم فى الآخرة ، وقد تأثر

---

(١) متشابه القرآن ص ٥٧٩ ٠

(٢) متشابه القرآن ص ٣٢٢ ٠

الزمخشرى بالقاضى عبد الجبار عند تفسيره لهذه الآية فيقول : « وقيل لمجاهدة الكفار ، لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم كقوله : « ولكم فى القصاص حياة » - وقيل : للشهادة لقوله « بل أحياء عند ربهم » (١) .

٦ - التشبيه - بين عبد الجبار أن الحواس والآلات التى خلقها الله فى الانسان لتكون منافذ الفهم والادراك لما لم ينتفع بها ولم توصله للغاية التى خلق من أجلها كأنها معدومة ، وكأنهم قد سلبوها أى يشبه ممن له هذه الحواس ولكنه لم ينتفع بها فيما يؤدى الى الغاية بمن سلب منه هذه الحواس فيقال : انه أصم أعمى وقد طبع على قلبه ، وهذا فى القرآن كثير منها قوله تعالى : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون » يقول عبد الجبار : قد بينا ان المراد بذلك تشبيه حالهم لشدة تمسكهم بالكفر واخراجهم أنفسهم من أن ينتفعوا بما يسمعون ويبصرون ، من أنا يكونوا بمنزلة السميع البصير ، فجعل مثلهم كمثل الناعق والمنعوق ، وجعل سبيلهم سبيل الأصم ، ونبه بذلك على أنهم ليسوا بهذه الصفة ، وان المراد عدو لهم عن طريقة الانتفاع بما كلفوه » (٢) وهو يرد بذلك على المجبرة الذين ينفون أى اختيار للعبد ،لأنهم تعلقوا بظاهر هذه الآية فى الدلالة على أن الكافر كالممنوع من الايمان ، ولو كان الله عز وجل قد منعه من الايمان كما منع الأصم عن استماع الصوت لوجب الا يذم وألا يوبخ ، ولكن هذا القول من الله توبيخ له وذم اذ ان الله لم يمنعه من الايمان ، وانما ترك الايمان باختياره .

---

(١) الكشاف ٢/١٥٢ .
(٢) متشابه القرآن ص ١١٦ .

ومنه أيضا قوله تعالى « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » يصف المولى — عز وجل — الكفار بذلك تشبيها بمن هذه حاله من حيث حل محله فى أنه لا ينتفع بما يسمع ويبصر فيتفكر فيه ويعقل ، وان كان أهل اللغة اذا ذكروا البيان وأوضحوا الحجة فعدل المخاطب عن معرفته قالوا فيه : انه بهيمة ، وهو حمار مطبوع على قلبه لا يعقل ولا يبصر رشده ، ويقال : انهم لشدة تمسكهم بالكفر صاروا كأنهم منعوا أنفسهم من الانتفاع بما يسمعون ويبصرون ويعقلون ٠ (١)

وعلى هذا المنوال قوله تعالى : « الذين كانت أعينهم فى غطـــاء عن ذكرى » فانه لا يمكن حمله على ظاهره ، لأنه يوجب اثبات غطاء لأعينهم ، والمعلوم خلافه فاذن يجب أن يحمل على التشبيه من حيث لم ينتفعوا بما رأوا على ما بيناه فى الختم والطبع » (٢) ومنه قوله تعالى : « واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا » ظاهره يقتضى أنه لا يسمع ، ولا اثبات الوقر فى أذنيه ، لأنه تعالى : شبهه بمن هذا حاله ، لا أنه أثبته بهذه الصفة فالمراد هو تشبيه حالهم من حيث أعرضـــوا عن الاستدلال بما سمعوا بحال من لا يسمع للوقر والصمم (٣) ٠

ويبدو أن التمثيل والتشبيه عنده مترادفان اذ يقول فى تفسير قوله تعالى ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب » المراد به التمثيل والتشبيه كما بينا مرارا ٠ وفى قـوله تعالى : « أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى » : المراد به أيضـــا التمثيل

---

(١) متشابه القرآن ص ٣٢١ ؟
(٢) متشابه القرآن ص ٤٧٩ ٠
(٣) متشابه القرآن ص ٥٥٨ ؟

والتشـــبيه لحالهم بحال الأعمى والأصم ٠٠ وقد شرحنا ، وانما شبهوا بمن ذلك حاله فى الحقيقة وثبوته فيهـــا لا يمنع من الايمان ، لأن الأصـــم والأعمى لا يمتنع عليهما الايمان ، ولا يستحيل فيهما التكاليف ٠

٧ ـ المجاز المرسل : أشار اليه وان كان لم يسمه بهذا الاسم ، ففى قوله تعالى « ان الذين يأكلون أموال اليتـامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا » يقول : « انما يأكلون فى بطونهم نارا » تفخيما لهذا الأمر وتعظيما لموقع الجناية فيه على جهة العاقبة ، كأنه تعالى قال : انه وان كان طيبا فى الحال لذيذا فمن حيث يؤدى الى النار كأنه بهذه الصفة فى الحال » (١) وعلاقة هذا المجاز : اعتبـــار ما يكون أى ما يؤول اليه أمـــرهم كما ذكر البلاغيون المتأخرون ٠

٨ ـ الاستعارة : أشار الى ما عرف باســـم الاســـتعارة التصريحية الأصلية والتبعية ففى قوله تعـــالى : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهـــم من الظلمات الى النور » يقول : استعمل الظلمات والنور فى الكفر والايمان على المجاز (٢) ولم يبين نوع المجاز ، فلم يذكر الاستعارة بلفظها مع أنها مصطلح ذكر قديما منذ عهد الجاحظ كما بينا سابقا ، وفى قوله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » يقول : نور : يعنى الكتاب ، وســـماه نورا على جهة التشبيه لما كان يهتدى به من حيث كان دليلا كما يهتدى بالنور فى ظلم الليل » (٣) فذكر التشبيه الذى تبنى عليه الاستعارة ، ولم يذكرها بلفظها ٠

---

(١) متشابه القرآن ص ١٧٨ ٠
(٢) متشابه القرآن ص ١٣٢ ٠
(٣) متشابه القرآن ص ٢١٩ ٠

وتحدث عن لام العاقبة التى فسرت فيما بعد بالاستعارة فى الحرف ، وذلك لتأييد قضيـــة اعتزالية وهى أن الله يريد الخير ، ولا يريد الشر فالله يريد من الكفار أن يؤمنوا ، وهم لا يرجعون عن كفرهم ، لأنهم أحرار الارادة ففى قوله تعالى « ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لأنفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما » يقول : هذه اللفظة أى اللام فى قوله تعالى «ليزدادوا اثما » قد يراد بها العاقبة كما تدخـــل بمعنى « كى » فى الكلام ، وقد قال تعالى « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحـــزنا من حيث كان الى ذلك مصيره ، ... ويقول : لأنه تعالى : لو مد لهم فى العمر لأجل ذلك لكان ظالما لهم ، لأنه أراد أن يكفروا ويدخلوا النار ، وكيف يصح ذلك وهو يرغب فى الايمان بكل وجوه الترغيب ، ويزجر عن الكفر بكل وجوه الزجر (١) . وفى قوله تعالى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس » قال : يجب أن يحمل الكلام على أن المراد به العاقبة ، فكأنه قال : ولقد ذرأناهم ، والمعلوم أن مصيرهم وعاقبة حالهم دخول جهنم لسوء اختيارهم ، وهذا كقوله تعالى « ليكون لهم عدوا وحزنا » (٢)

وذكر عبد الجبار مقياسا للفرق بين لام العاقبة ، ولام العلة هو أن الكلام فيهما على تقدير محذوف ، ولكنه لو برز مع لام العاقبة لم يستقم الكلام ووجد فيه تناقض ، بخلاف ما اذا برز مع لام العلة فانه يستقيم ، ولا تناقض فيه . ففى قوله تعالى « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها » يقول : أراد سبحانه وتعالى أن عاقبة أمرهم أن يمكروا فى القرى

---

(١) متشابه القرآن ص ١٧٥ .
(٢) متشابه القرآن ص ٦٢٩ .

التى اسكنهم الله تعالى فيها كقوله تعالى « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » ولا يجوز أن يكون تعالى يجعلهم أكابر ليمكروا ويعصوا ، وقد قال تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » يبين ذلك أنه متى أبرز المحذوف من الكلام وكشف لم يستقم على ظاهره ، فلو قال تعالى : « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ، وأمرناهم ألا يمكروا فيها ليمكروا ، لكان ذلك يتناقض ، وهذا مما لابد من تقديره ، لأنه لا يجوز أن يكون غرضه تعالى أن لايمكروا بأن يجعلهم فى القرى أكابر ، فأما ماذكرناه فلو أبرز فيه المحذوف لاستقام بأن يقال : « وما خلقت الجن والانس وأكملت عقولهم وأمرتهم بالعبادة الا ليعبدون » فالكلام يستقيم على هذا وينتظم فعلى هذه الطريقة يجب أن يحمل ما يراد به العاقبة ومفارقته لما يراد به الاقدام على ذلك الفعل ، وهذا واضح » (١) وعلى هذ النحو كثرت فى تفسيره لام العاقبة لتأييد مذهبه الاعتزالى ٠

٩ - المبالغة - تحدث عن المبالغة فى الصفة ، والمبالغة فى العدد بكثرته ففى قوله تعالى : « وهو القاهر فوق عبادة » يقول : « انه نبه فى الكلام على ما أراد بقوله : « وهو القاهر » ثم ذكر ما يقتضى بيان حاله فى ذلك فقال : فوق عباده وهذا كقوله « يد الله فوق أيديهم » ، ومتى قيل هذا القول فى بعض الأوصاف فالمراد به المبالغة فى الوصف » (٢) وهو يرد على المجسمة الذين يجوزون المكان على الله تعالى، ولو حملت الآية على ظاهرها لوجب كونه فى السماء فقط ، وينقض ما تقدم من استدلاتهم على أنه فى السموات والأرضين ٠

---

(١) متشابه القرآن ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ٠
(٢) متشابه القرآن ص ٢٣٨ ٠

وأما المبالغة في الكم « العدد » فاشار اليها عند قوله تعالى « خالق كل شيء » فان ظاهر هذه الآية يناقض ما ذهبت اليه المعتزلة من أن العبد خالق لأفعاله الاختيارية اذ أن هذه الأفعال تدخل في العموم الذي أفادته الآية ولذلك لجأ الى التأويل لاستقامة مذهبه فقال : « ان هذه اللفظة في الاثبات ليس المقصد بها التعميم كما يقصد ذلك في النفي ، لأن القائل يقول «أ كلت كل شيء ، وتحدثنا بكل شيء ، وفعلت كل شيء ، وقال تعالى : « تبيانا لكل شيء ما فرطنا في الكتاب من شيء » وقال تعالى : « تدمر كل شيء بأمر ربها » وقال : « يجبى اليه ثمرات كل شيء » ، وانما المقصد بذلك المبالغة في الكثير من ذلك النوع المذكور ، قال ولا يعرف هذا الكلام في باب الاخبار عن الانسان » (١) .

١٠ - المشاكلة : تحدث عن المشاكلة في مواضع كثيرة من كتابه « متشابه القرآن » وسماها الجزاء وذلك في المواضع التي يتصادم ظاهرها مع نظريتهم في القول بالحسن والقبح العقليين ، فاذا ورد ما ظاهره اضافة فعل قبيح الى الله تعالى فانه يلجأ الى التأويل والصرف عن الظاهر يتضح هذا عند قوله تعالى : « انما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون » يقول : لايجوز اضافة الاستهزاء الى الله على الحقيقة ، لأنه لا يكون الا قبيحا وذما ، ويستحيل ذلك على الله عز وجل، وانما أراد أنه يعاقبهم على ما وقع منهم من الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه قد ثبت في اللغة أنه قد يجرى اسم الشيء على ما هو جزاء له كما يجرى اسم الجزاء على الفعل ، ولذلك قالوا : الجزاء بالجزاء ، ولذلك أيضا قال عز وجل

---

(١) متشابه القرآن ص ٢٥٢ .

« وجزاء سيئة سيئة مثلها » وان كان ما يفعله تعالى ليس سيئة ، وهذه الطريقة فى مذهب العرب معروفة فيجب أن تحمل الآية عليها » (١) .

ويجعل المشاكلة من باب المجاز ففى قوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » يقول : المراد : انه أمرنا بالمجازاة على الاعتداء ، والانتصاف من المعتدى ، وأجرى الاسم عليه على سبيل المجاز على ما بينا (٢) وفى قوله تعالى : « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » يقول : المراد به أنه يعاقبهم على ذلك ، والكلام فيه كالكلام فى قوله تعالى : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » فالصرف من الله : عقابهم جزاء على فعلهم ، فسمى العقوبة على فعلهم وهو الانصراف باسمه كما قال:«وجزاء سيئة سيئة مثلها»(٣) واستدل على أن المراد من فعل الصرف الثانى : العقوبه بقوله تعالى « بأنهم قوم لا يفقهون » فان صرف قلوبهم هو بالعقوبة التى استحقوها بالاعراض ، وترك التفقه والنظر فيما انزله من السورة وسائر الدلائل وهذا بين » (٤)

ويمكننا أن نقول : ان القاضى عبد الجبار تحدث عن بعض الألوان البلاغية لمناصرة مذهبه الاعتزالى بتأويل بعض الآيات المتشابهة أوردها الى الآيات المحكمة ، وهو تأويل يعتمد على العقل واللغة فتحدث عن الأمر ، والاستفهام والاعتراض ، والتاكيد ، وايجاز القصر ، والمجاز المرسل ، والتشبيه ، والاستعارة ، والمبالغة ، والمشاكلة ، وقد كثر حديثه عن التشبيه وعن لام العاقبة والمشاكلة كما بينا .

---

(١) متشابه القرآن ص ١١٩ .
(٢) متشابه القرآن ص ١١٩ .
(٣) متشابه القرآن ص ١٥٠ .
(٤) الموضع السابق .

ثانيا : المغنى فى أبواب التوحيد العدل . « الجزء السادس عشر »

هذا الجزء خاص باعجاز القرآن ، وتحدث فيه عن نظرية النظم وقبل أن نوضح معالم هذه النظرية عنده ينبغى أن نشير الى جهود السابقين فى تطورها ، لأن هذه النظريات من أهم النظريات فى البلاغة اذ أنها كانت خطوة متطورة فى هذا المجال ، فتحت آفاقا واسعة أمام البلاغيين والنقاد فى تقويم النصوص الأدبية ، والحق يقال انها ليست من ابتكار عبد القاهر ، وانما سبقه فيها دراسات أولية لم توضح مضمونها ، ولم تكشف عن مغزاها فكانت كالضوء الخافت وسط الظلام الدامس ، والبحث فيها لا يزال يحتاج الى التجلية والوضوح والتوسع والتطبيق ، لأن دراسات السابقين كانت لاتتعدى سوى الاعجاب بروعة النظم ، وأنه مما يكسب الأسلوب بهاء ورونقا الخ ، ولكن هل حددوا معنى النظم ، وكشفوا عن خصائصه ، ومزاياه فى الأسلوب ؟ وهل عقدوا مقارنات بين صحيح النظم وفاسدة ؟ ، وهل أكثروا من التطبيقات التى تكشف عن روعته وجماله فى الأساليب ؟ لم يفعلوا شيئا من هذا سوى أننا وجدنا فكرة النظم اتضحت شيئا ما عند القاضى عبد الجبار كما سنرى بعد قليل ، وقد تأثر به عبد القاهر الجرجانى حين كشف عن هذه النظرية ووضح مضمونها ، وأكثر من التطبيقات عليها .

وترجع فكرة النظم الى عهد الجاحظ فقد ألف كتابا فى نظم القرآن لم نعثر عليه ، وهو يبحث فى تفضيل أسلوب القرآن ، وعجيب نظمه ، ويقف عند بعض الآيات مفصلا ومبينا وجوه الاعجاز وأسرار الروعة فى التعبير بالقياس الى كلام العرب ، ولعله يقصد هذا الكتاب عندما قال فى الحيوان « ولى كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الايجاز والحذف وفرق بين الزوائد والفضول والاستعارات ، فاذا قرأتها رأيت فضلها

فى الايجاز والجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذى كتبته لك فى باب الايجاز وترك الفضول » (١) وذكر مثالا لما جاء فى الكتاب فى قوله تعالى : « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة « لا مقطوعة ولا ممنوعة » جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعانى ، وهذا كثير دللتك عليه ، فان أردته فهو مشهور · يقصد الكتاب · ويقول الجاحظ فى موضع آخر « وفى كتابنا المنزل الذى يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد » (٢) ويعرض الجاحظ لدقة اختيار اللفظ القرآنى المناسب للسياق فيقول : « اذا ذكر القرآن الأبصار لم يقل ، الأسماع ، واذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين ، ألا ترى أنها تجمع الأرض على أرضين ولا السمع أسماعا ، والجارى على أفواه العامة غير ذلك لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال ، وقد زعم بعض القراء أنه لم يرد ذكر النكاح فى القرآن الا فى موضع التزويج » (٣) وأكثر الجاحظ من الحديث عن حسن السبك ، وجمال الصياغة ، كمال الترتيب ودقة التأليف والنظم ، ولم يكشف الجاحظ عن ماهية النظم وتوضيح أسراره ومزاياه وان كان قد أورد بعض الألوان البلاغية من خلال تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم فى كتاب الحيوان مثل التشبيه والاستعارة ، والمجاز المرسل والأيجاز وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، والسجع والفاصلة ، وغير ذلك ·

---

(١) الحيوان ٣/٧٦ ·
(٢) الحيوان ٤/٩٠ ·
(٣) البيان والتبيين ١/٢٠ ·

ويأتى الرمانى بعد الجاحظ فيقسم البلاغة الى عشرة أقسام هى «الايجاز والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس • التصريف والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان» وفى القسم الأخير تحدث حديثا سريعا عن النظم مبينا أن أعلى مراتب البيان عنده هو ما جمع أسباب الحسن فى العبارة من تعديل النظم حتى يحسن فى السمع ويسهل على اللسان ، وتتقبله النفس تقبل البرد ، وحتى يأتى على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة •

وابن رشيق فى العمدة يقول : « قال أبو الحسن على بن عيسى الرمانى « أصل البلاغة الطبع ، ولها مع ذلك آلات تعين عليها ، وتوصل للقوة فيها ميزانا لها وفاصلة وبين غيرها ، وهى ثمانية أضرب ـ الايجاز ، والاستعارة والتشبيه ، والبيان ، والنظم والتصريف والمشاكلة والمثل » (١) فتراه يعد النظم من الآلات التى توصل الى البلاغة ، هو أيضا لم يكشف عن المراد من النظم وبيان أسراره ومزاياه •

ويأتى بعد ذلك الخطابى المتوفى سنة ٣٨٦هـ ، الذى اهتدى أيضا الى الاشارة الى نظم القرآن الكريم ، ولكنه يتميز عن سابقيه بأنه وضح المراد من النظم من وجهة نظره اذ يقول : « وانما صار القرآن معجزا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى » (٢) ويجعل النظم من بين الوجوه التى بها القرآن يعجز الخلق ، فعدم قدرة البشر على

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ٢٤٣ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد •

(٢) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ١٢ •

استيفاء جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض هو السبب فى ترك معارضة القرآن الكريم ، ثم يقول : لابد من الاحاطة بثلاثة أمور يقوم الكلام بهما وهى ١ - لفظ حامل ، ٢ - معنى به قائم ٣ - ورباط لهما ناظم ، والقرآن قد جمع هذه الأمور على اكمل وجه » واذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ٠

ويجيء بعد ذلك أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ فيجعل النظم أيضا من بين الأمور التى يكون القرآن بها معجزا فيقول : « انه بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه » (٢) واشاد الباقلانى بروعة النظم ، وأنه مباين لأساليب العرب فى الشعر والنثر ولكنه لم يوضح مضمونه ، ولم يكشف عن اسراره ومزاياه » ويصف احساسه ومشاعره بجمال النظم القرآنى ، ولكنه لم يستطع أن يبين منابع هذا الجمال ، والجهة التى حصل بها ، فيقول : « فأما منهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه ، فان العقول تتيه فى جهته وتحار فى بحره ، وتضل دون وصفه ٠٠ وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر ٠

النظم عند القاضى عبد الجبار :

لم يرتض عبد الجبار القول بالصرفة فى اعجاز القرآن الكريم ، لأن التحدى لا يتم بها ، ولم يرتض الاخبار بالغيب أيضا سبيلا للتحدى باعجاز القرآن الكريم لأن الله تحداهم أن يأتوا بمثل كل سورة من غير تخصيص

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤ ٠

(٢) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٣ ٠

أو يأتوا بمثل سورة واحدة من مثله أي سورة حتى ولو كانت أقصر سورة ، والاخبار بالغيب ليس في كل السور حتى يتحدى به ويرجع اليه الاعجاز ، ولم يرتض أيضا العلم بأوضاع اللغة لأنه يأتي بها على جهة الحكاية والاحتذاء ، فيحتاج الى أمر زائد على العلم بكيفية المواضعة ، ولم يرتض أيضا فصاحة الألفاظ وجزالتها و حسن المعاني طريقا للتحدي باعجاز القرآن الكريم وان اشترطهما في بيان الوجه الذي يقع به الاعجاز ، وهذا الوجه لابد أن يكون بطريقة خارجة عن نظمهم ونثرهم وبرتبة في الفصاحة خارجة عن عادتهم حتى يكون معجزا ، وبه يستدل على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه في البلاغ عن الله ٠

واهتدى عبد الجبار الى الجهة التي يقع بها التحدي والاعجاز والتي هي فوق مقدورهم وهي « النظم » ولم يكتف بالاشادة به كما فعل سابقوه ، وانما وضح شيئا من أسراره ومزاياه ، وبين حدوده ومعالمه ، لكنه كان ينقصه التطبيق على بعض الآيات القرآنية ، لذا فاننا نقول : ان طريقته في بحث النظم وتوضيح معناه كانت منارا اهتدى بها عبد القاهر في بحث نظرية النظم بحثا مفصلا أرسى قواعدها وثبت دعائمها ،وأكثر من التطبيقات عليها على النحو الذي رأيناه في كتابه « دلائل الاعجاز » ٠

والنظم عند القاضي عبد الجبار في الكلام المؤلف الذي ضم بعضه الى بعض على نمط خاص ، ولتحقيق ذلك لابد من العلم بثلاثة أمور ٠ أحدها : العلم باختيار الألفاظ المناسبة للمعاني بحيث تؤدي الغرض المسوق له الكلام ٠ ثانيها : العلم بأوجه الاعراب المناسبة الذي به يرتبط الكلام بعضه ببعض ، ثالثا : العلم بمواقع الكلام من حيث التقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، ويجب أن يراعي ذلك في الالفاظ ويراعي مثله في التراكيب

ولندع القاضي عبد الجبار يحدثنا عن بيان الوجه الذي يقع فيه التفاضل وبه يكون التحدى والاعجاز فيقول : « اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، وانما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التى تتناول الضم ، وقد تكون بالاعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ، لأنه اما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها ، أو موقعها ، ولابد من هذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات ، اذا انضم بعضها الى بعض ، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية اعرابها ، وحركاتها وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذى ذكرناه انما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ماعداها ، ويرى أن المعانى الحسنة وان كانت تدخل فى الفصاحة ولا بد من اعتبارها الا ان المزية لا تظهر فيها بدليل أننا نجد اثنين يتحدثان عن معنى واحد ، ويكون أحدهما أفصح من الآخر ، وقد يكون أحد المعنيين أحسن وارفع ، والمعبر عنه فى الفصاحة أدون .. ويقول : « على أنا نعلم أن المعانى لا يقع فيها تزايد ، فاذن يجب أن يكون الذى يعتبر التزايد عند الألفاظ التى يعبر بها عنها على ما ذكرناه ، فاذا صحت هذه الجملة فالذى به تظهر المزية ليس الا الابدال الذى تختص به الكلمات ، أو التقدم والتأخر الذى يختص الموقع أو الحركات التى تختص الاعراب ، فبذلك تقع المباينة ، ولا بد فى الكلامين اللذين أحدهما أفصح من الآخر أن يكون انما زاد عليه بكل ذلك ، او ببعضه ، ولا يمتنع فى اللفظة الواحدة أن تكون اذا استعملت فى معنى تكون أفصح منها اذا ستعملت فى غيره ، وكذلك فيها اذا تغيرت حركاتها ، وكذلك القول فى جملة من الكلام . فأن موقع الكلام قد يظهر بتغير المعنى ، وقد يظهر بتغير الموضع وبالتقديم والتأخير .

فالمعتبر فى المزية — اذن — ليس بنية اللفظ ، وانما المعتبر فيها ماذكرناه من الوجوه ، فأما حسن النظم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسنا على السمع ، لأنه يوجد فضلا فى الفصاحة ، لأن الذى تتبين به المزية فى

ذلك يحصل فيه وفى حكايته على سواء ويحصل فى المكتوب منه على حسب حصوله فى المسموع « ولا فصل فيما ذكرناه بين الحقيقة والمجاز بل ربما كان المجاز أدخل فى الفصاحة ، لأنه كالاستدلال فى اللغة ٠٠ وكذلك فلا معتبر بقصر الكلام وطوله ، وبسطه وايجازه لأن كل ضرب من ذلك ربما يكون أدخل فى الفصاحة فى بعض المواضع من صاحبه » (١) ٠

يرى عبد الجبار أن القرآن الكريم وقعت فيه هذه الوجوه على اكمل وجه ، لأنه كلام العليم الخبير الذى أحاط بكل شىء علما ، بخــــلاف كلام البشر فانه قد يعتريهم الجهل ويعتريهم السهو والنسيان ٠ ومن ثم فانهم لن يصلوا الى درجة الكمال المطلق فى التعبير عن الأشياء ودقائقها وخفاياها ، لأن ذلك ليس فى مقدورهم ٠

ويرى عبد الجبار ان القرآن الكريم وقعت فيه هذه الوجوه على اكمل الفاظها انما تعبير كأنها فى مشاهدته ، حتى يمكنه أن يتخير منها الألفــاظ المناسبة لغرضه ، ويوضح ذلك بذكر مثل محسوس فيقول : « يبين ذلك أنه لا فرق فيمن يتعاطى نساجة الديباج بين أن تكون الغزول التى يحتاج اليها حاضرة فيتخيرها ، وبين أن تكون فى حكم الحاضر ، وقد علمنا أن مع حضور الكلام قد يختلف الاختيار فى المتخير بحسب التجربة والعادة ، فلابد مع العلم بالكلمات من أن تتقدم للمتكلم هذه الطريقة فى نفسه وفى غيره ، ليعرف مواقع جمل الكلام اذا تألفت ، فيفصـــــل بين ما يأتلف من كلمات مخصوصة ، وبين ما يأتلف من غيرها ، ويعرف الطرائق فى هذا الباب ٠

وعندما نحلل هذا النص ونقارنه بما قاله الامام عبد القاهر فى شرح

---

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ١٦/١٩٩ ، ٢٠٠ ٠

نظرية النظم نجد تقاربا واضحا فى التفسير مما يدل على أنه قد تأثر بالقاضى عبد الجبار فى فكرة هذه النظرية يتضح ذلك فى النقاط التالية :

١ - يقول : « لابد من اعتبار الأبـدال ونظـائرها وحركتها فى الاعراب وموقعها فى التقديم والتأخير ، وعبد القاهر فى دلائل الاعجاز يفسر النظم بأنه توخى معانى النحو فى معانى الكلم فيقول : « ليس النظم الا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ٠٠ » الخ يقصد من ذلك اعتبار الأمور التى ذكرها عبد الجبـار من اعتبار حركة الاعراب ، واعتبار مواقع الكلمات ، والتراكيب وتنسيقها على نمط معين بالتقديم والتأخير ، وان كان الامام قد أفاض فى الشرح والتوضيح وكثرة التطبيقات ، وبيان الفروق بين صحيح النظم وفاسده ٠

ومما تجدر الاشـارة اليه أنهما لايريدان مجرد حـركات الاعراب الظاهرة ، وانما ما تفعله هذه الحركات من تنسـيق فى ترتيب الـكلمات ونظمها فى نسق معين بحسب ترتيبها فى النفس وبحسـب الأغراض التى يقصدها المتكلم ٠

٢ - يقول القاضى عبد الجبار : ان المعـانى لاتتزايد ، وانما الذى يعتبر التزايد فيه هو الألفاظ التى يعبر عنها ، وعبد القاهر ينقـل هذه العبارة بنصها فى دلائل الاعجاز ويصدرها بقوله « قال أهل النظر : « ان المعانى لاتتزايد ، وانما تتزايد الألفاظ ٠٠ » فلعل عبد القاهر يريد بأهـل النظر هنا القاضى عبد الجبار ، ثم يوضـح هذا الكلام بقوله : « انك اذا تأملته لم تجدله معنى يصح عليه أن تجعل تزايد الألفاظ عبارة عن المزايا التى تحدث من توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم ، لأن التزايد فى الألفاظ من حيث هى ألفاظ ونطق لسان محال » ٠

وهما يقصدان من تزايد الألفاظ ما يحدث فيه من خصـــوصية فى الصياغة والنظم مما يكسبه بهاء ورونقا به يتأكد المعنى ويقوى فى نفس سامعيه .

٣ - نلاحظ أن القاضى عبد الجبار نفى أن يكون للفظة نصيب فى المزية البلاغية من حيث هى لفظه مفردة لم تضم ولم تأتلف مع غيرها ، وهذا أيضا ما ذهب اليه عبد القاهر اذ انه أطال الحديث عن نفى الفصـــاحة عن الألفاظ المفردة فى مواطن متعددة من دلائل الاعجاز فيقول : « اتضح اذن اتضاحا لايدع مجالا للشك أن الالفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مفردة فالألفاظ المفردة بمعزل عن الاختصاص والمزية ، وعلى هذا لاصلة بين اللفظة المفردة من حيث الوضع ، وبين النظم ، فلو أن واضـــع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان فى ذلك ما يؤدى الى فساده ، وليس الأمر كذلك فى نظم الـكلم ، لأنك تقتضى فى نظمهـــا آثار المعانى وترتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس فهو نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه : ضـــم الشىء الى الشىء كيف جاء واتفق » هذا المعنى يذكره عبد الجبار فيقول : « وهذ يبين أن المعتبر فى المزية ليس بنية اللفظ وانما المعتبر فيها ما ذكرناه من الوجوه » .

ويستدل عبد القاهر على ما قاله من عدم وجود تفاضـــل بين الألفاظ المفردة من حيث هى مجرد حروف انضم بعضـــها الى بعض بأن الكلمة قد تروقك ، وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر ، فالعبرة اذن بمكانها من النظم وبارتباطها بما يجاورها من الكلمات ، وليس بمجرد ترتيب حروفها على نسق خاص .

٤ - يقول عبد الجبار : ان حسن النغم وجمال اللفظ لا معتبر له فى الفصاحة والاعجاز مع أنهما يزيدان الكلام رونقا وبهاء ، وعبد القاهر يردد

هذه الفكرة بمثل قوله : « لا تخلو الفصاحة بأن تكون صفة في اللفظ محسوسة تدرك بالسمع أو تكون صفة فيه معقولة تدرك بالقلب ومحال أن تكون صفة في اللفظ محسوسة ، لأنها لو كانت كذلك لكان ينبغي أن يستوى السامعون للفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحا ، واذا بطل أن تكون محسوسة ، وجب الحكم ضرورة بأنها صفة معقولة » .

٥ - يقول عبد الجبار : لا فصل فيما ذكرناه بين الحقيقة والمجاز بل ربما كان المجاز أدخل في الفصاحة ، لأنه كالا ستدلال في اللغة ، ويرى هذا عبد القاهر فيجعل الصور البيانية من الاستعارة وغيرها يحدث عنها النظم وبها يكون ، فجمال الاستعارة ليس في لفظها ، وانما في نظمها خذ مثلا قول الشاعر :

سالت عليه شعاب الحي حين دعا ... أنصاره بوجوه كالدنانير

يقول عبد القاهر : « فانك ترى الاستعارة على لطفها وغرابتها انما تم لها الحسن ، وانتهى الى حيث انتهى بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك وموازرته، ان شككت فاعمد الى الجارين والظرف فأزل كلا عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره ، ثم انظر كيف يكون الحال ، وكيف يذهب الحسن والحلاوة ... » .

٦ - يقول عبد الجبار « ان ألفاظ اللغة يجب أن تكون في حضرته ومشاهدته حتى يتخير منها الكلام الذى يأتلف فيعبر عن غرضه » ، أي أن معاني الألفاظ يجب أن تكون في ذهنه ، ولابد مع العلم بالكلمات من أن تتقدم للمتكلم هذه الطريقة في أي طريقة النظم في نفسه ليعرف مواقع جمل الكلام اذا تألفت أشار الى هذا عبد القاهر حين قال : انك تقتفي في

نظم الكلام آثار المعانى وترتبها حسب ترتيب المعانى فى النفس فهو نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ...» .

فقد اتضحت هذه النظرية شيئا ما عند القاضى عبد الجبار ، ولكن الامام عبد القاهر هو الذى وضحها ، وأبرزها الى الوجود نظرية ثابتة لها أسسها ودعائمها التى استندت اليها،والذى رفع من شأنها كثرة التطبيقات على الفنون البلاغية والشروح الواسعة ، فلم تكن مجرد قواعد تحفظ بل استمدت هذه القواعد حيويتها ونماءها من اطالة الشروح وكثرة التطبيقات ، فهو بهذا المفهوم يعد رائدا فى هذه النظرية ، وان سبقته دراسات حولها ، لأنها كانت عند السابقين فكرة خفية بدت تتضح شيئا ما عند عبد الجبار حتى جاء عبد القاهر فأقامها على أكمل بنيان وأوضح برهان ، ولذلك فانه كان حريصا أشد الحرص على تثبيت هذه النظرية فى أذهان الناس حتى يقضى على ما كان شائعا فى عصره من طغيان دولة الألفاظ استفحال خطرها ، وكانت تقابلها دولة المعانى ، والصراع بينهما دائم ، فأراد أن يدعم نظريته ويرجع المزية اليها ، وينفى رجوع المزية الى الألفاظ وحدها ، أو الى المعانى وحدها ، وانما ترجع اليهما من خلال النظم الجيد والسبك الحسن ، من هنا أخذ يبدى ويعيد ويطيل الحديث ويكرره وينفى الشبه عنها ويدفعها بالحجة القوية والبرهان الساطع حتى استقامت وذاع صيتها وأحدثت دويا هائلا فى ميزان البلاغة والنقد ، وقد قامت على أساس علم النحو ومعرفة أصوله وقوانينه كما قال : « ليس النظم اذا الا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التى نهجت لك فلا تزيغ عنها ... الخ » .

الفصل الخامس

ألوان من بلاغة الزمخشرى فى الكشاف

هو العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى، امام المفسرين بالمعقول ، ولد فى « زمخشر » ، وهى احدى قرى خوارزم فى ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦٧ هـ ، وكان مولده فى عهد السلطان جلال الدنيا والدين ملكشاه السلجوقى الذى عرف عنه حبه للعلم وتقديره للعلماء ، وكانت خوارزم حينـــذاك حافلة بالعلماء فى علوم الدين واللغة ، لأن رؤســاءها قربوا العلماء من مجالســهم وقلدوهم المناصب الهامة ، فى هذه البيئة العلمية نشأ الزمخشرى ، وكان ينتمى الى أسرة ذات تقوى ودين ، اذ كان والده اماما بقرية « زمخشر » ، ولمـا بلغ الزمخشرى سن الطلب توجه الى « نجارى » لطلب العلم ، وكانت كما يصفها الثعالبى « مثابة المجد ، وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض .. » ومنذ ذلك الحين تفرغ لطلب العلم ، وانصرفت همته الى تحصيله ، لأنه لم يكن يشغله عنه مال ولا ولد ، ووجد فى ذلك لذة ومتعة تفوق وصل النساء ولذيذ الشراب يعبر عن هذا بشعره فيقول :

سـهرى لتنقيـح العلوم ألذ لى
من وصــل غانية وطيب عناق

وتمـايلى طربا لحل عويصـــة
أشـهى وأحلى من مدامة سـاق

ومن اهم أساتذته الذين أخذ العلم عنهم أبو الحســن على بن المظفر النيسابورى ، أبو مضر الأصفهانى ، ومحمود بن جرير الضبى ، الذى كان له أكبر الأثر فى تنشئة الزمخشرى نشأة أدبية لغوية كلامية .

رحل الزمخشري الى خراسان وأصفهان وبغداد ، وأخيرا ارتحل الى مكة واستقر به المقام هناك طلبا جوار الله ، ولذلك لقب بـ « جار الله » وهو الذي أطلق هذا اللقب على نفسه حيث قال :

أنا الجار جار الله مكة مركزي ومضرب أوتادي ومعقد أطنابي

وقد ألف الزمخشري تفسيره : « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل » في مكة في جواره الثاني ، وله مؤلفات أخرى كثيرة في شتى العلوم والمعارف منها على سبيل المثال : أساس البلاغة ، والمستقصى في أمثال العرب ، والفائق في غريب الحديث ، والمفصل ، والأنموذج ونوابغ الكلم ، وله ديوان شعر ، وقد بلغت مؤلفاته سبعة وأربعين كتابا وقد كان الزمخشري يتيه فخرا واعجابا بتفسيره اذ يقول :

ان التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشافي
ان كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

ويحق للزمخشري أن يفخر بتفسيره ، فلقد ذاع صيته في شرق العالم الاسلامي وغربه ، واهتم به المثقفون والعلماء اهتماما منقطع النظير ومن ثم فانه أثار نشاطا علميا واسع المدى يتمثل في الشروح ، والحواشي ، والتلخيصات ، والتقريرات ، وتبوأ مكانة علمية عظيمة في الفكر الاسلامي ، فأصبح محط أنظار الدارسين من بعده على اختلاف مشاربهم وتنوع اهتماماتهم إذ ان معظم التفاسير التي جاءت بعده تأثرت به وأخذت عنه .

ويرى الزمخشرى أن المفسر يجب عليه أن يبين دقائق النظم ، ولطائف المعانى ، وخصائص التراكيب ، وأسرار البيان فى آى الذكر الحكيم ، ولهذا لابدله من مداومة البحث واطالة النظر فى علمى المعانى والبيان اذهما أهم عدة لمن يتصدى لتفسير القرآن الكريم ، وبدونهما لا يتضح ما فيه من دقائق المعانى ، وأسرار التراكيب ودقة النظم ، الذى أعجز العرب الفصحاء فخروا لبلاغته ساجدين يقول الزمخشرى فى مقدمة الكشاف « ان أملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه واجالة النظر فيه كل ذى علم .. فالفقيه وان برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم ، وان بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ان كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وان كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وان كان أنحى من سيبويه ، واللغوى ، وان علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، الا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعانى والبيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة وتعب فى التنقير عنهما أزمنة .. » (١) .

وما تجدر الاشارة اليه أن « الزمخشرى لم يذكر مصطلح علمى المعانى والبيان فى مقدمة الكشاف فحسب ، انما ذكر هذا المصطلح قبل تأليف الكشاف ، وكرر ذكره فى كتابه الصغير أعجب العجب ، وذكره فى كتاب المفصل، وكرره كثيرا فى ديوان شعره ومدح الكثير بتبحرهم فى علمى المعانى والبيان ، وكل هذه الإشارات لاتكشف لنا مراده بهذين العلمين كشفا

---

(١) الكشاف ١/١٦ .

محددا ، وان كانت تدلنا على أن هذا الاصطلاح كان قارا فى نفسه وواضحا فى ادراكه » (١) .

ومما يدل على أن مسائل العلمين لم تكن محددة عنده تحديدا تاما هو أننا نجده أحيانا يطلق علم المعانى على مباحث علم البيان ، ويطلق علم البيان على مباحث المعانى ، ففى قوله تعالى : « قال بل فعله كبيرهم هذا » وهو جواب ابراهيم عليه السلام على سؤال الكفار حين سألوه عمن فعل الكسر بأصنامهم المحطمة على جهة التقرير يقول الزمخشرى : « هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها الا أذهان الراضة من علماء المعانى والقول فيه : أن قصد ابراهيم صلوات الله عليه لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الصنم ، وانما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق ، وأنت شهير بحسن الخط : « أأنت كتبت هذا ؟ » ، وصاحبك أمى لا يحسن الخط ، ولا يقدر الا على خرمشة فاسدة ، فقلت له : « بل كتبته أنت » كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لانفيه عنك واثباته للأمى أو المخرمش ، لأن اثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به واثبات للقادر » .

فلله در جار الله الزمخشرى ما أدق نظره ، وما ألطف فكره وذوقه حين عرض لبلاغة جواب ابراهيم عليه السلام ردا على الكفار ، فقد تضمن هذا الجواب الاقرار والاعتراف بأنه هو الكاسر على وجه التعريض ، وتحقيق هذا : أنهم لما نسبوا الفعل اليه ، ونسبه هو الى الكبير دار الفعل بينهما

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى للدكتور محمد أبو موسى، ص ١٩٩ .

بحسب ذلك ، وبما أن الصنم الكبير لا يتصور منه فعل الكسر ، فيكون كأنه اعترف وأقر بأنه هو الكاسر لكن لا على وجه التصريح بل على وجه التعريض وفيه استهزاء بعقولهم واستخفاف بها ، وفيه أيضا افحام وتبكيت لهم بالزامهم الحجة ، لأنه نسب الفعل الصادر منه الى الصنم الكبير ، وهذا الصنم الذى لا يتصور منه فعل الكسر ألم يعبدوه ؟ ألم يعظموه فى نفوسهم ويخصوه بمزيد من التعظيم والعبادة ، فاما ان يعترفوا بذلك فيستهزئوا بعقولهم ، واما ألا يعترفوا فيحترموا عقولهم ، وفى كلتا الحالتين يمكن اقامة الحجة عليهم . ولذلك يقول الزمخشرى « فما أحاروا جوابا الا ما هو حجة عليهم » (١) ونعود الى مابدأنا به فنقول انه اطلق علم المعانى على أسلوب التعريض ، وهو من فنون البيان كما حدده المتأخرون .

أما اطلاقه علم البيان على بعض مباحث المعانى ففى قوله تعالى : « وياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب يقول : فان قلت ، أى فرق بين ادخال الفاء ونزعها فى سوف تعلمون ؟ قلت : ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر ، كأنهم قالوا : فماذا يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ، فوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستئناف للتفنن فى البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف ، وهو باب من

---

(١) أنظر : تحفة الأشراف فى كشف غرائض الكشاف د/ عبد الله هنداوى ص .

أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه »(١) فالزمخشري يرى أن الفصل بالاستئناف وصل معنوي لما بين السؤال المقدر والجواب من قوة الترابط والاتصال بل يرى أنه أقوى وأبلغ من الاتصال اللفظي ، فضلا عما فيه من الايجاز بحذف السؤال المقدر مما يجعل الذهن ينشط لبيان مدى الترابط بين الجمل ، ومبحث الفصل والوصل من أبواب علم المعاني لا من أبواب علم البيان كما ذكر الزمخشري ، ولعل الذي حدا بالزمخشري الى أن يطلق على هذا الفن علم البيان هو ما رآه من التفنن في البلاغة بايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، وهو ما يعرف به علم البيان .

ونراه أيضا يطلق علم البيان على بعض الألوان البديعية منها ما ذكره عند قوله تعالى : « ويريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » : الفعل المعلل محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره وهو شرع ذلك يعني جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر ، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ، ومن الترخيص في اباحة الفطر ، فقوله : « لتكملوا » علة الأمر بمراعاة العدة ، ولتكبروا علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر ، و « لعلكم تشكرون » علة الترخيص والتيسير وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي الى تبينه الا النقاب المحدث من علماء البيان » (٢) .

النظم في الكشاف :

استمد الزمخشري فهمه للنظم مما ذكره الشيخ عبد القاهر ، فهو يرى أن النظم هو بيان الروابط والعلاقات بين الجمل ، وكيف يدعو الكلام بعضه

---

(١) الكشاف ٢/٢٩٠ . (٢) الكشاف ١/٣٣٧ .

بعضا ، وكيف يأخذ بعضه بحجزة بعض) (١) يدل على ذلك تفسيره للآيات الأول من سورة البقرة حيث فصل بين الجمل لما يستلزمه هذا الفصل من شدة الارتباط ووثاقة الصلة اذ ان هذه الجمل تقرر بعضها بعضا ، وكل واحدة منها آخذة بحجز الأخرى فى نظم بديع ونسق متكامل ، وهو من الوصل المعنوى الذى هو أقوى وأبلغ من الوصل اللفظى كما بينا ، لأن التلاحم والترابط بين الجمل فيها أمر تقتضيه طبيعة التراكيب من بناء بعضها على بعض ، وارتباط ثان منها بأول يقول الزمخشرى : (ألم » جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، و « وذلك الكتاب » جملة ثانية ، « ولا ريب فيه » جملة ثالثة ، وهدى للمتقين رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم حتى جىء بها متناسقة هكذا من غير نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ، وهلم جرا ٠٠ الى الثالثة والرابعة » (١)

بيان ذلك : أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به أى فى قوله : « الم » ثم قرر جهة التحدى بالاشارة الى أنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ، ثم قرر جهة الكمال بأن نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلا بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهه ، ثم قرر جهة الكمال ثانية بقوله « هدى للمتقين » ، لأن معناها أنه الكتاب الذى بلغ درجة كبيرة فى الهداية بحيث لا يمكنك ادراك كنهها ، وهى درجة الكمال ، ومن ثم اتحد مضمون الجملتين ٠ (٣) .

(١) أنظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ١٨٨ ٠
(٢) الكشاف ١/١٢١ ٠
(٣) الكشاف ١/١٢٢ ٠ بتصرف ٠

فالارتباط هنا بين مضامين هذه الجمل ومقاصـدها من حيث تلاحظ المعانى مما يوجب الفصل بينها ، لأنه لاحاجة الى توسط العاطف بينها ما دام فيها وصل ذاتى من حيث ارتباط المعانى بعضها ببعض ، وهذا الارتبـاط المعنوى أنسب بالبلاغة ، وأدل على دقة النظم ، لأن البلاغة يراعى فيها أولا الدلالات المعنوية التى تبرزها الألفاظ فى نظم جيد وسبك حسن ويقـول الزمخشرى : « ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ، ونظمت هذا النظم السرى من نكتة ذات جزالة ففى الأولى الحذف والرمز الى الغرض بألطف وجه وأرشـــقه ، وفى الثانية ما فى التعريف من الفخامة ، وفى الثالثة ما فى تقـديم الريب على الظرف ، وفى الرابعة الحذف ووضع المصدر الذى هو هدى موضع الوصف الذى هو هاد ، وايراده منكرا والايجاز فى ذكر المتقين » (١) ٠

فالنظم اذن عنده فى الروابط والعـلاقات التى بها تلتئم الجمل ، وما تشتمل عليه هذه الجمل من معان وأغراض بلاغية ، وما توحى به ٠ مفرداتها من دلالات لها أثرها فى دقة النظم من خلال السياق ، وما يفيده ترتيب هذه المفردات والجمل بالتقديم والتأخير من لطائف وأسرار ، كل هذا يراعى فيه أحوال المخـاطبين ، وما تتطلبه هذه الأحوال من المقـامات المناسبة التى تتلاءم معها ٠

وسنتناول بعض الألوان البلاغية عنده من خلال النظم :

---

(١) الكشاف ١/١٢٢ ٠

أولا : دلالة المفردات :

اهتم الزمخشري بالكشف عن الأسرار والايحاءات التي تفهم من المفردات في ظل النظم القرآني، وذلك لما لديه من حسن مرهف وبصيرة نافذة لادراك مواقع الألفاظ في التراكيب ، وما توحي به من معان ، ففي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » يقول الزمخشري : الغلظة كالشدة ، وهو يجمع الجرأة والصبر على القتال ، وشدة العداوة ، والعنف في القتل والأسر . » (٢) ! فقد جمعت كلمة الغلظة هذه المعاني كلها ، والأمر في قوله تعالى « وليجدوا فيكم غلظة» هو في الظاهر أمر للكفار بأن يجدوا في المؤمنين تلك الغلظة ، ولكنه في الحقيقة أمر للمؤمنين بأن يتصفوا بصفات ان وجدهم الكفار وجدوهم على تلك الصفات ، فالمقصود من الكفار هنا هم نصارى العرب وأنصارهم من الروم وهم أصحاب عدد وعدة ، فالمقام يقتضي الغلظة التي يفهم منها هذه المعاني خصوصا مع الكفار المجاورين بلاد الاسلام ليقع الرعب في قلوبهم اذهم أشد خطرا من غيرهم البعيدين عنهم .

وقد يقتضي النظم القرآني عدول الكلمة من صيغة الى صيغة أخرى تناسب المقام كما بين في العدول عن فاعل الى فعال في قوله تعالى « وأن الله ليس بظلام للعبيد » يقول : وقيل : ظلام للتكثير لأجل العبيد » (٣) لأن القياس يقتضي أن يقال : ليس بظالم ليدل على انتفاء مطلق الظلم عنه ، ولكنه عدل عنه الى صيغة المبالغة ليفيد الكثرة في نفي الظلم عنه ،

---

(١) الكشاف ٢/٢٢٢ (٢) الكشاف ٢/١٦٤

سبحانه وتعالى باعتبار كثرة الأفراد المنفى عنهم الظلم وهو ما يفهم من لفظ العبيد المحلى بلام الاستغراق ، فاذا وزع نفى الظلم على كل فرد من أفراد هذا العام صح أن يقال : ليس بظلام

وتعرض الزمخشرى للمعرف باللام وبيان مدلوله ، وأبان عن الأغراض البلاغية التى تفهم منه طبقا لما يقتضيه المقام ، فالمعرف باللام قد يكون مقصودا به العهد أى الاشارة الى معهود بين المتكلم والمخاطب بأن يكون تقدم ذكره صريحا كما اذا قيل لك : جاءنى طالب من السودان أمس ، فتقول له : ماذا فعل الطالب ؟ أو كناية مثل قولك : « نزلت ببنى فلان فلم يقرونى والقوم لئام » فأل فى القوم اشارة الى بنى فلان ، وهو كناية عن القوم ، أشار الزمخشرى الى ذلك فى قوله تعالى : « وليس الذكر كالأنثى» أى ليس الذكر الذى طلبت امرأة عمران كالأنثى التى وهبت لها ، فأل فى الأنثى اشارة الى ما سبق ذكره صريحا فى قوله تعالى فيما يحكيه عن مريم « رب انى وضعتها أنثى » وأل فى الذكر اشارة الى ما سبق ذكره كناية فى قوله تعالى : « ما فى بطنى محررا » ، لأن التحرير لم يكن الا للذكور »(١) .

فالكناية فى قوله « ما فى بطنى » باعتبار تقييده « بمحررا » ملزوم للذكر ، والذكر لازم له ، فقد اطلق اسم الملزوم وأريد اللازم ، فالذكر اذن لم يذكر صراحة بل كناية ، والمذكور صراحة ملزومه وهو ما فى البطن الموصوف بالتحرير ، وعلى الرغم من وضوح افادة التعريف باللام العهدية فى هذه الآية كما ذكرنا فان الشيخ الطاهر بن عاشور يرى أن التعريف فى

---

(١) الكشاف ١/٤٢٥ .

الذكر والأنثى للجنس فيقول : وتعريف الذكر تعريف الجنس لما هو مرتكز في نفوس الناس من الرغبة في مواليد الذكور أى ليس جنس الذكر مساوياً لجنس الأنثى » ولكي يستقيم له رأيه يقرر أن نفى المشابهة بين الذكر والأنثى يقصد به معنى التفضيل في مثل هذا المقام .. ثم يقول : ولو قيل « وليست الأنثى كالذكر لفهم المقصود ، ولكن قدم الذكر هنا ، لأنه المرجو المأمول ، فهو أسبق الى لفظ المتكلم » (١) .

وهذا الكلام فيه بعد عن الصواب لعدة وجوه :

الوجه الأول : أن الكلام ليس في جنس الذكر وجنس الأنثى ، بل الكلام فى الأنثى الموهوبة ، فانها مفضلة عن الذكر المطلوب .

الثانى : أن تشبيه الذكر بالأنثى وتسليط النفي عليه يفيد أن نفي المشابهة يراد بها نفي مشابهة المفضول وهو الذكر على الفاضل وهو الأنثى فى هذا المقام .

الثالث : أنها أرادت أن تعظم موهوبة الله على مطلوبها ، على تقدير أن قوله تعالى : « وليس الذكر كالأنثى من كلام أم مريم ، لأنها تعلم ان ما اراده الله وقدره خير مما تريده وتطلبه يؤيده قوله تعالى : « والله أعلم بما وضعت » فانه يفيد التعظيم لموضوعها ، وليقرر فى هذا المقام عكس ما هو مركوز فى نفوس الناس من حب الذكر وتفضيله على الأنثى .

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٢٣٣ .

وتعرض الزمخشرى لافادة الجنسية من اللام سواء أريد بها الحقيقة أو الاستغراق ، والحقيقة قد تكون من حيث الماهية من غير اعتبار لما يصدق عليها من أفراد ، وقد يراد بها فرد واحد باعتبار عهديته فى الذهن ، لأن استحضاره فى الذهن تبع لاستحضار الحقيقة فيه ، وتحدث عن حكم استغراق المفرد والجمع وأيهما أشمل ، ومذهبه أن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع ، وقد تفيد لام الجنس معنى الكمال فى الصفة ٠

وتحدث عن **التعريف بالموصول** وأبان عن القيمة البلاغية التى تفهم منه وفقا لما يقتضيه المقام ، منها الايماء الى وجه بناء الخبر ، وعلم المخاطب بالصلة لتكون وسيلة يعرف بها الموصول ويتصور فى ذهن المخاطب ، وقد تجعل الصلة وسيلة الى تعظيم شأن الموصول بها ، وذلك لاشتمالها على ذكر معان عظيمة وأوصاف باهرة ، وقد تفيد التفخيم والتهويل وذلك بابهام صلة الموصول لتذهب النفس فى تفسيرها كل مذهب كما فى قوله تعالى « وفعلت فعلتك التى فعلت » يقول الزمخشرى : وعظم ذلك وفظعه بقوله وفعلت فعلتك التى فعلت (١) ، ونظيره قوله تعالى : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » فكأن الابهام هو الذى أثرى المعنى ، لأن جملة الصلة كررت لافادة التفخيم والتهويل ، فحينما غرق فرعون وأتباعه أصابهم من هول البحر أشياء لا يمكن أن توصف ، ولا يدرك مداها من الرعب والفزع والشدة ٠٠ الخ ، ولا يمكن أن تنهض جملة الصلة الموضحة بابراز توضيح هذه الأشياء ، ولكن الابهام هو الذى يحمل فى طياته معانى كثيرة يتخيلها السامع بادراك أقصى ما يمكن أن يصل اليه الوصف والخيال وتحدث الزمخشرى عن أغراض **التعريف بالاشارة** ، منها تمييز المشار اليه أكمل تمييز كما فى قوله تعالى

---

(١) الكشاف ٣/١٠٨ ٠

« ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » ومنه التنبيه على توكيد استحقاق المبتدأ للخبر لما يتقدمه من أوصاف فاضلة كما فى قوله تعالى «أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » يقول الزمخشرى : انما الكاملو الايمان من صفتهم كيت وكيت ، والدليل عليه قوله : « أولئك هم المؤمنون حقا » (١) .

فهذه الصفات المذكورة قبل اسم الاشارة توجب الايمان الكامل لمن يتصف بها وهى وجل القلوب عند ذكر الله ، وزيادة الايمان عند تلاوة القرآن أو الاستماع اليه والتوكل على رب العالمين بتفويض الأمر اليه ، واقام الصلاة كاملة بأركانها وهيئاتها بخشوع خالصة له سبحانه وتعالى ، والانفاق مما رزقهم الله سواء كان الانفاق واجبا أو تطوعا ، كل هذه الصفات الجارية على الموصوف المشار اليه بقوله « أولئك » أكدت استحقاق الخبر وهو الايمان الكامل للمبتدأ من أجل تلك الصفات ، ونظيره قوله تعالى : « أولئك هم الوارثون » يقول الزمخشرى : أى أولئك الجامعون لهذه الأوصاف هم الوارثون الاحقاء بأن يسموا وراثا دون من عداهم » (٢) أى أن الوصف الذى جاء بعد اسم الاشارة خاص بالمؤمنين من أجل تصافهم بتلك الأوصاف المتوالية قبل اسم الاشارة .

وذكر الزمخشرى أيضا من أغراض اسم الاشارة تعظيم المشار اليه كما فى قوله تعالى « انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة » يقول : أشار اليها اشارة تعظيم وتقريب دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه (٣) .

---

(١) الكشاف ٢/١٤٢ .
(٢) الكشاف ٣/٢٧ .
(٣) الكشاف ٣/١٦٣ .

وأشار أيضا الى افادة الاستهزاء والتحقير ، والاهانة وغيرها .

وتحدث عن التعريف بالاضافة وأبان عن الأسرار البلاغية التى تستفاد منها بمعونة السياق وقرائن الأحوال ، منها افادة التعظيم كما فى قوله تعالى : « ناقة الله » فانها انما أضيفت الى اسم الله تعظيما وتفخيما لشأنها، وأنها جاءت من عنده لكونها من غير فحل وطروقة آية من آيات الله » وقد يستفاد منها الاختصاص كما فى قوله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده .. » يقول الزمخشرى : معنى اضافة الرشد اليه أنه رشد مثله ، وأنه رشد له شأن » يعنى الاضافة فيه بمعنى اللام والاختصاص والمعنى : والله لقد آتينا بجلالتنا وعظم شأننا ابراهيم رشدا يليق بمثله ممن انتصب لرسالتنا وخلتنا ، ولا شك أن هذا المعنى مناسب للمقام أى مقام مقاولة ابراهيم عليه السلام لأبيه وقومه بشأن الأصنام التى يعبدونها من دون الله حين سلك معهم طريق الاقتناع بالحجة والبرهان ، لأن هذا موقف من المواقف السديدة التى يظهر فيها رشد ابراهيم — عليه السلام — سواء بالحوار المقنع أو بالفعل الحكيم حينما أقسم على أن يكيد أصنامهم بعد أن يولوا مدبرين والله تعالى أعلم حيث يهب الرشد لمن يشاء من عباده لا سيما رسله الذين اصطفاهم من خلقه .

وقد يستفاد المضاف اليه من المضاف معنى التشريف والتفخيم بعكس ما مر كما فى قوله تعالى « فوربك لنحشرنهم .. الآية » يقول الزمخشرى فى اقسام الله تعالى باسمه — تقدست أسماؤه — مضافا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم — تفخيم لشأن رسول الله ورفع منه كما رفع من شأن السماء والأرض فى قوله تعالى : « فورب السماء والأرض انه لحق » (١)

---

(١) الكشاف ٥١٨/٢ .

وقد ورد كثيرا فى القرآن الكريم اضافة اسم من أسماء الله تعالى الى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم أو بالعكس أى باضافة الرسول الى الله تعالى أو اسم من أسمائه الحسنى حسبما يقتضيه السياق ويتطلبه المقام ، وفى كلتا الحالتين الاضافة لشرف الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلو منزلته أى سواء كان الرسول مضافا أو مضافا اليه .

وتعرض الزمخشرى من خلال تفسيره لمفردات النظم القرآنى لكثير من النكرات ، ووقف عندها يستخرج المعانى الخصبة التى تفيض بها هذه المفردات من خلال النظم الكريم وفقا لما يقتضيه المقام ، منها المبالغة فى التفخيم المفاد من النوعية كما فى قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر، فأسكناه فى الأرض ، وانا على ذهاب به لقادرون » .

يشيد الزمخشرى بوقوع النكرة فى هذا النظم المعجز فيقول:«وقوله: « على ذهاب » من أوقع النكرات وأجزها للمفصل ، والمعنى : على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه ، وفيه ايذان باقتدار المذهب ، وانه لا يتعايا عليه شيء اذا أراده » (١) فهو - اذن - ذهاب لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره ، وهذه المبالغة يقتضيها مقام الوعيد العظيم ، لأن الآية جاءت بعد تعداد نعمتى الأنفس والآفاق واستجلاب الشكر لهما والتحذير من كفرانهما ، ولذلك أكد الجملة بأنواع من المؤكدات حيث جيء بها اسمية ، مصدرة بان مؤكدة باللام وقدم المعمول فيها على العامل ، وأتى بصيغة الكبرياء والعظمة ، وهى ضمير الجماعة ، وبحرف الجر الدال على الاستصحاب .

---

(١) الكشاف ٣/٢٨ .

ومن الأغراض البلاغية للنكرة افادة الأفراد نوعا أو شخصا كما في قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء » يقول الزمخشري : فان قلت : لم نكر الماء في قوله : « من ماء » ؟ قلت : لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة . أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ، ومنها بهائم ، ومنها ناس » (١) وكلا المعنيين اللذين أشار اليهما الزمخشري يقتضيهما المقام ، ولا تعارض بينهما ، لأن النكات البلاغية لا تتزاحم فان الله تعالى خلق لكل نوع من الدواب نطفة خاصة به دون بقية الأنواع ، وخلق لكل شخص نطفة خاصة به دون بقية الأشخاص وهي نطفة أبيه .

ومن الأغراض افادة التقليل أو التكثير ، وافادة الشيوع والاستغراق وغير ذلك من الأغراض التي يضيق المقام عن ذكرها ، وتفصيل القول فيها .

وتحدث الزمخشري عن كثير من صور اجراء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر منها وضع المضمر موضع المظهر ، ووضع المظهر موضع المضمر ، ومنها دقة النظم بايثار بعض المفردات والتراكيب على غيرها ليكتسب النظم أسرارا ومزايا يقتضيها المقام ، ولنذكر مثالا واحدا لضيق المقام ففي قوله تعالى « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم » يقول الزمخشري :

ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله بالخير ، ثم وضع موضعه الاستعجال ونسب اليهم فقيل : استعجالهم بالخير » (١) لأن المراد أن رحمته

---

(١) الكشاف ٢/٢٣٧ .

سبقت غضبه ، فأريد مزيد المبالغة ، وذلك أن استعجالهم الخير أسرع من من تعجيل الله لهم ، فان الانسان خلق عجولا اذا سمع بخير طار اليه مسرعا، والله عليم قد يؤخر الخير لمصلحة لا يهتدى اليها عقول البشر ، ومع ذلك يسعف طلبتهم ويسرع اجابتهم ، فقد اقتضت حكمة الله تعالى ونظامه المحكم أن يعجل للناس الخير فى الدنيا على الرغم من عنادهم وكفرهم ، ولو عجل لهم الشر مثل تعجيله لهم الخير لاختل النظام المحكم الذى وضعه الله لخلقه فأميتوا وأهلكوا ، لأن لكل أمة أجلا «ما تسبق من أمة اجلها وما يستأخرون»

وتحدث الزمخشرى عن سر التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى وعيسه فيأتى الأول لتحقق الوقوع ، لأن المترقب فى أخبار الله بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه ، وقد وقع هذا التعبير كثيرا فى القرآن الكريم لاسيما ما أخبر الله به عن مشاهد يوم القيامة وأحوال الناس فيها ففى قوله تعالى : « ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا » يقول الزمخشرى : « فان قلت : لم جىء بحشرناهم ماضيا بعد « نسير وترى » ؟ قلت : للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال العظائم ، كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك » (١) أى أنه جىء بالتسيير والرؤية مضارعين وجىء بالحشر ماضيا ليشعر بصيغة المضارع على أن المراد استحضار تلك الصورة العجيبة فى مشاهدة السامع ليتعجب منها ، ولو قال نحشرهم لفات المقصود ، والتعبير بالماضى فى قوله : « حشرناهم » ليؤكد أنه كائن لا محالة ، وأن هذا الحدث كأن زمنه قد انتهى ليواجه بهذا التأكيد القلوب الجاحدة المنكرة لليوم الآخر لعلها تنتبه

---

(١) الكشاف ٢/٤٨٧ .

فتفيق من غفلتها ، وترجع عن جحودها ، وليطمئن المؤمنون على ما أعد لهم في هذا اليوم من النعيم الدائم ٠

ثانيا : دلالات التراكيب :

تناول الزمخشري كثيرا من المعاني والأغراض التي تستفاد من التراكيب وهذا المبحث يتناول كثيرا من المسائل البلاغية منها :

- القصر وهو من الأساليب التي تعددت دلالاتها ، ومن ثم كثرت مصطلحاته التي تحدد كل دلالة على حدة ، وقد حفل القرآن الكريم بصوره المتعددة ، وكان لها أثر كبير في دقة النظم وسمو الاعجاز ٠ ووقف الزمخشري عند كثير من هذه الصور يطبق ما فهمه من بلاغة الشيخ عبدالقاهر ويضيف على ما ذكره معاني نابعة من حسه المرهف ، وشعوره الصادق بمواقع الأساليب بما يتناسب مع جلال القرآن وروعة تعبيره وأثره في النفوس ٠ ولنأخذ مثالا واحدا على الرغم من كثرة الأمثلة :

من المعلوم أن من طرق القصر المشهورة « انما » وقد أفاض الشيخ عبد القاهر في حديث ممتع عن بيان معناها ، ومقام استعمالها ، والفرق بينها وبين النفي والاستثناء ، والمعاني المستفادة منها موسعا دائرة البحث فيها ومتجاوزا ما قاله النحاة وسار الزمخشري على نهجه يبين مواقعها في التركيب ، وما تفيده من معان ففي قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل يقول الزمخشري : « قصر لجنس الصدقات على الأصناف المحدودة ، وأنها مختصة بها لا تتجاوزها الى غيرها ، فكأنه قيل:

انما هي لهم لا لغيرهم ، ونحوه قولك : « انما الخلافة لقريش » تريد لا تتعداهم ، ولا تكون لغيرهم ، فيحتمل أن تصرف الى الأصناف كلها ، وأن تصرف الى بعضها » (١) ونقول : لماذا آثر المولى ـ عز وجل ـ هنا الطريق ـ اى طريق القصر بانما ـ دون غيره من الطرق الأخرى ؟

والجواب ـ والله أعلم بمراده ـ ان الله تعالى أراد أن يقرر أمورا ثابتة وواقعا لا يجهله أحد من الناس بمقتضى الفطرة والعدالة الالهية فى شئون خلقه « وأصل انما موضوعة على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته ، أو لما ينزل هذه المنزلة ، وأيضا لم يتقدم هذا الكلام انكار من المسلمين الصادقين فى ايمانهم ، لأنه ربما قيل : ان المنافقين منهم من عاب على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم فى قسمة الصدقات بدليل قوله تعالى : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان أعطوا منها رضوا ، وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون » فاقول : كان الواجب عليهم أن ينزعوا النفاق من قلوبهم ويذعنوا لما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ويرضوا بحكمه فى قسمة الصدقات ، لأن مرده الى الله تعالى ، وعدله صلى الله عليه وسلم واضح لايحتاج الى دليل ، ولكنه الشح الذى سيطر على نفوسهم جعلهم يودون لو تقصر عليهم الصدقات ، وذلك هو ما يفهم من قوله تعالى : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون » .

ويقول الزمخشرى « انما لقصر الحكم على شيء ، أو لقصر شيء على حكم كقولك: انما زيد قائم ، وانما يقوم زيد ، وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية، لأن « انما يوحى الى » مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد ، و « انما الهكم اله

(١) الكشاف ٢/١٩٧ .

واحد » بمنزلة أنما زيد قائم ، وفائدة اجتماعهما : الدلالة على استئثار الله بالوحدانية دون غيرها من التكاليف » (٢) اذ الأمر فى العقيدة دائر بين الوحدانية والشرك ، والله يريد أن يثبت عقيدة التوحيد فى نفوس الناس ، وينتزع منها ما ألفوا عليه آباءهم من أمر الشرك ، وأسلوب القصر القلبى نهض بهذا الأمر على أبلغ وجه وآكده ، ويفهم من عبارة الزمخشرى أنه يرى افادة القصر من « أنما » بفتح الهمزة قصر موصوف على صفة ، وفى قوله تعالى : « انما يوحى الى » قصر صفة على موصوف ، ففى الآية اذن ، قصران متداخلان مرتبط أحدهما بالآخر ، لأن مآلهما الى قصر واحد كما يفهم من عبارة الزمخشرى ، وعلى هذا يكون القصر فى هذه الآية مبالغا فيه ، لأن المقام يقتضيه ، اذ ان الوحدانية هى الأســــاس الذى ينبنى عليها كل التشريعـات التى يوحى بها من عند الله ، فأراد المبـــالغة فى الاعتداد بالوحدانية لأن الوحى بها أولا يستتبع كل ما عداها أى من آمن بها فانه بلا شك يكون قد آمن بسائر التكاليف فالوحى وان كان قد نزل بتشريعات ومعان متعدده الا أنه بالغ فى الوحدانية لما لها من أثر كبير فى تحـــويل قلوب الناس عما ألفوا عليه آباءهم الى الايمان الصادق .

وتعرض الزمخشرى لافادة القصر من التقديم فيفهم من استقراء صور التقديم عنده أنه يدل على الاختصاص غالبا ، ففى قوله تعالى : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » يقول : أى الله وحده هو يبسط الرزق لمن يشـاء ويقدر » يقول : أى الله وحده هو يبسط الرزق ويقدر دون غيره . ومثل هذا ذكره فى قوله تعالى : « والله يقدر الليل والنهار ، فتقديم المسند اليه على الخبر الفعلى أو المشتق عند الزمخشرى قد يفيد التخصيص ، وقد يفيد تقوية

---

(١) الكشاف ٢/٥٨٦ .

الحكم وتأكيده ، والمقام هو الذى يحدد المعنى المستفاد من التراكيب ، والغرض الذى يقصده المتكلم ، ففى الآيتين السابقتين نجد المقام يقتضى التخصيص كما قال الزمخشرى ، لأن الله تعالى هو وحده المختص ببسط الرزق وتقديره ، وهو أيضا المختص بتقدير الليل والنهار ، لا أحد ينازعه فى ذلك .

وتحدث الزمخشرى عن الفصل والوصل حديثا أعم وأشمل مما استقر عليه الدرس البلاغى فى هذا الباب عند المتأخرين ، لأنهم خصوا بحث الوصل بين الجمل بالواو ، اذ هى لمطلق الجمع ، ومن ثم لابد من وجود جهة جامعة بين الجملتين تجعل العطف مقبولا بخلاف حروف العطف الأخرى فانها ليست فى حاجة الى بيان الجهة الجامعة ، لأنها تفيد مع مطلق الجمع الذى أفادته الواو معانى أخر تصحح العطف وتجعله مقبولا ، فالفاء للتعقيب ، وثم للتراخى . وهكذا ، ولكن الزمخشرى كانت نظريته أعمق واوسع اذ رأى فى العطف بهذه الحروف معانى آخر يقتضيها المقام ففى قوله تعالى « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها » يقول : فان قلت : ما معنى ثم ؟ قلت : للدلالة على أن انكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة ، لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر » (١) ونظيره قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » يقول الزمخشرى فان قلت : فما معنى ثم ؟ قلت : استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته ، وكذلك قوله تعالى فى الآية التى تليها : ثم أنتم تمترون استبعاد لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم .. » (٢) .

---

(١) الكشاف ٢/٤٢٣ (٢) الكشاف ٢/٤

ويوضح الزمخشرى المعانى البلاغية المستفادة من العطف بالفاء وثم فى قوله تعالى : « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين . واذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين » يقول الزمخشرى : « يريد أنه حين أتم خلقه ونفخ فيه الروح عقب ذلك هدايته المتصلة التى لا تنقطع الى كل ما يصلحه ويعينه ، والا فمن هداه الى أن يغتذى بالدم فى البطن امتصاصا ، ومن هداه الى معرفة الثدى عند الولادة ، والى معرفة مكانه ، ومن هداه لكيفية الارتضاع الى غير ذلك من هدايات المعاش والمعاد » (٣) ويفهم من كلام الزمخشرى السر فى العدول عن الجملة الفعلية الى الجملة الاسمية المعطوفة على جملة « خلقنى » وهى قوله « فهو يهدين » وهو بيان استمرار تلك الهداية وثبوتها على جهة الدوام للانسان من حين خلقه جنينا فى بطن أمه الى حين موته ، وعندما يمرض الانسان فان الله يعقبه بالشفاء ، ولما كان الزمن يطول بين الموت والبعث عطف بثم لافادة التراخى فى الزمان ..

وأشار الزمخشرى الى عطف المفردات وبيان الأسرار البلاغية التى تفهم منها : ففى قوله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى ، والمساكين والمهاجرين . » يقول الزمخشرى : نزلت فى شأن مسطح وكان ابن خالة أبى بكر الصديق – رضى الله عنهما – وكان فقيرا من فقراء المهاجرين » (١) فالواو – اذن – عاطفة بين الصفات التى اجتمعت فى موصوف واحد وهو مسطح ، وكان أبو بكر رضى الله عنه آلى أن لا ينفق عليه ، عندما علم بأنه خاض فى حادث الافك ، وكان قريبا مسكينا مهاجرا فوصل بين هذه الصفات للدلالة على اجتماعها فى موصوف واحد .

---

(١) الكشاف ٣/٥٦ .
(٣) الكشاف ٣/١١٧ .

وقد اجتمع الفصل والوصل بين الصفات فى قوله تعالى : « عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا منكم مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » فالفصل هنا بين الصفات ، لأنه لاتضاد بينها ، والوصل بين ثيبات وأبكارا لوجود التضاد بينهما ، فجىء بالعطف لرفع التضاد بين الثيوبة والبكارة اذ هما يجتمعان فى محلين مختلفين فتوصف بعض النساء بالثيوبة والبعض الآخر بالبكارة ويقول الزمخشرى فى بيان هذا : « فان قلت : لم أخليت الصفات كلها عن العاطف ، ووسط بين الثيبيات والأبكار ؟ قلت : لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن فى سائر الصفات ، فلم يكن بد من الواو » (١) .

وقد يعطف مضمون جملة على مضمون جملة أخرى ، وهو ما عرف باسم عطف القصة على القصة ، وهذا العطف لا يشترط فيه التناسب بين الجملتين فى الخبرية أو الانشائية ، وانما يجوز أن تعطف الانشائية على الخبرية ، ففى قوله تعالى : « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ، وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. الآية » يقول الزمخشرى : فان قلت علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه ؟ قلت : ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر ونهى يعطف عليه ، انما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول : زيد يعاقب بالقيد والارهاق ، وبشر عمرا بالعفو والاطلاق » (٢) .

---

(١) الكشاف ١٢٨/٤ .
(٢) الكشاف ٢٥٣/١ .

وتعرض الزمخشري لألوان بلاغية كثيرة مثل التقديم والتأخير ، والاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والنداء ، والقسم ، والتعجب والكلام المنصف ، والنفي ، والبدل ، والتوكيد ، والوصف والذكر ، والحذف ، والتكرار ، والاعتراض ، والاختصار والالتفات ، وترتيب الجمل ، وغير ذلك مما يضيق المقام عن تفصيل القول فيه .

ثالثا : الصور البيانية .

عنى الزمخشري بدراسة التشبيه والتمثيل في شتى صوره ، ويبدو أنهما عنده مترادفان حيث يقول : « يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه » وهذه وان كانت تفسيرات لغوية الا أن المتتبع لصور التشبيه والتمثيل في الكشاف يجده لا يفرق بينهما ، فيطلق التشبيه على صور التمثيل وبالعكس .

وتعرض الزمخشري للتشبيه المفرد والمركب والمتعدد ففي قوله تعالى : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » يقول : يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فان كان تشبيها مركبا فكأنه قال : « من أشرك بالله فقد أهلك نفسه اهلاكا ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة حال من آخر من السماء فاختطفته الطير ، فتفرق مزعا في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة ، وان كان مفرقا فقد شبه الايمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الايمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة » (١) .

---

(١) الكشاف ٣/١٢ .

والزمخشرى وان كان يرى أن التشبيه المركب يجوز فيه أن تتفرق أجزاء الصورة المكتملة فيكون تشبيها متعددا الا أنه يرى أن التشبيه المركب هو المعتمد وهو الأصل الذى عليه علماء البيان فيقول : « والصحيح الذى عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة .. وهو القول الفحل والمذهب الجزل ، بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها من بعض ، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها كما فعل امرؤ القيس فى قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالى

وكما جاء فى القرآن ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى مثلها ، كقوله تعالى : مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » وكقوله تعالى : واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء .. الآية » (١)

وأشار الزمخشرى الى التشبيه المقلوب ، فى قوله تعالى : « أفمن يخلق كمن لا يخلق » فيقول : « فان قلت : هو الزام للذين عبدوا الأصنام وسموها آلهة تشبيها بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فكان حق الالزام أن يقال لهم : « أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟ قلت : حين جعلوا غير الله فى تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه ، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيها بها ، فأنكر عليهم ذلك بقوله : « أفمن يخلق كمن لا يخلق » (٢) .

(١) الكشاف ١/٢١١ .
(٢) الكشاف ٢/٤٠٥ .

فالغرض البلاغى الذى يفهم من قلب التشبيه هو المبالغة فى افادة مزيد من التقريع والتجهيل للمشركين ، لأنهم جعلوا الأصنام فى وجوب العبادة أقوى وأعرف من الله تعالى ، ومثله قوله تعالى : « انما البيع مثل الربا » فالمراد أيضا المبالغة فى اعتقادهم حل الربا وجعله أصلا والبيع فرعا يقاس عليه .

وفرق الزمخشرى بين الاستعارة والتشبيه البليغ عند قوله تعالى «صم بكم عمى فهم لا يبصرون » .

وتحدث الزمخشرى عن الاستعارة التصريحية بقسميها الأصلية والتبعية فيقول : وقد جاءت الاستعارة فى الأسماء والصفات والأفعال جميعا يقصد – اذن – ما عرف بعد من الاستعارة الاصلية التبعية ، وتحدث عن الاستعارة المكنية وأبان عن القيمة البلاغية التى تستفاد منها ففى قوله تعالى : « الذين ينقضون عهد الله » يقول . فان قلت من أين ساغ استعمال النقض فى ابطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين .. وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشىء المستعار ، ثم يرمزوا اليه بذكر شىء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه » (١) .

وتحدث أيضا عن الاستعارة التمثيلية ولم يطلق عليها اسم الاستعارة وانما سماها تمثيلا فقط ففى قوله تعالى : « واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » يقول : « فان قلت . ما معنى استفزاز ابليس بصوته واجلابه بخيله ورجله ؟ قلت : « هو كلام ورد مورد التمثيل . مثلت حاله فى تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوت

(١) الكشاف ١/٢٦٨ .

بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم » (١) .

وتعرض للترشيح والتجريد فى الاستعارة التصريحية والمكنية ، واليه يرجع الفضل فى وضع مصطلح الترشيح فلم يسبق اليه ، ففى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » يقول « فان قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازا فى معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة كان ثمة مبايعة على الحقيقة ؟ قلت : هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات اذا تلاحق لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا وهو المجاز المرشح » (٢) .

وتحدث عن التجريد وان كان لم يسمه باسمه عند تفسيره لقوله تعالى « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » فيقول : ولهم فى نحو ذلك طريقان : أحدهما : أن ينظر فيه الى المستعار له كما فى هذه الآية وكما فى قول كثير

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

والثانى : أن ينظر فيه الى المستعار كما فى قول الشاعر :

ينازعنى ردائى عبد عمرو رويدك يا أخا عمرو بن بكر
لى الشطر الذى ملكت يمينى ودونك فاعتجر منه بشطر

أراد بردائه : سيفه ، ثم قال : فاعتجر منه بشطر فنظر الى المستعار ولو نظر اليه فيما نحن فيه لقيل : فكساهم لباس الجوع والخوف ، ولقال كثير : ضافى الرداء اذا تبسم ضاحكا (٣) .

---

(١) الكشاف ٢/٤٥٦ .
(٢) الكشاف ١/١٩٢ .
(٣) الكشاف ٢/٤٣٢ .

وقد اعتمد البلاغيون المتأخرون على فهم الترشيح والتجريد من هذا النص وزادوا عليه نوعا ثالثا يسمى الاطلاق أى أن الاستعارة قد تكون مرشحة ، وهى ما قرنت بما يلائم المستعار منه ، ومجردة وهى ما قرنت بما يلائم المستعار له ، ومطلقة وهى التى لم تقرن بما يلائم المستعار له ولا المستعار منه أو قرنت بما يلائم المستعار له والمستعار منه على التساوى .

وتعرض الزمخشرى لبعض علاقات المجاز المرسل منها الكليه كما فى قوله تعالى « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت » يقول : فان قيل : ليس الأصبع هو الذى يجعل فى الأذن فهلا قيـــل : أناملهم ؟ قلت : هذا من الاتساعات فى اللغة كقوله تعالى « فاقطعوا أيديهما » أراد البعض الذى هو الى المرفق ، والذى الى الرســـغ ، وفى ذكر الأصـــابع من المبالغة ماليس فى ذكر الأنامل » (١) ، ومنهـــا عتبار ما كان كما فى قوله تعالى « وآتوا اليتـــامى أموالهم » اذ الحكم أن اليتيم لا يأخذ ماله الا بعد الرشد ، (٢) ومنها : عتبار ما يكون كما فى قوله تعالى « انى أرانى أعصر خمرا » أى أعصر عنبا يؤول الى الخمر ، ولذا يقول الزمخشرى : يعنى عنبا تسمية للعنب بما يؤول اليه والمسببية كما فى قوله تعالى : « قالوا سنراود عنه أباه وانا لفاعلون » يقول : وانا لقادرون على ذلك لا نتعايا به » (٣) أى وضع قوله « وانا لفاعلون » موضع وانا لقادرون من اطلاق : المسبب على السبب على طريق المجاز المرسل ، لأن السبب فى فعل المراودة هـــو القدرة عليه ، فالقدرة توجد أولا ويترتب عليها الفعل . وأشار الى البعضية

---

(١) الكشاف ١/٢١٧ .

(٢) الكشاف ١/٤٩٤ .

(٣) الكشاف ٢/٣٣٠ .

فى قوله تعالى « يخل لكم وجه أبيكم » فيقـــول : ويجوز أن يراد بالوجه الذات كما قال تعالى : ويبقى وجه ربك »

وتحدث أيضا عن صور المجاز العقلى بل أوضح الطريق أمام البلاغيين بحيث لم يضيفوا اليه شيئا كثيرا ، ففى قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم » يقول : الختم مسند الى اسم الله على سبيل المجاز وهو لغيره حقيقة ، تفسير هذا أن للفعل ملابسات شتى يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والمسبب له ، فاسناده الى الفاعل حقيقة ، وقد يســـند الى هذه الأشياء على طريقة المجاز المسمى استعارة ، وذلك لمضاهاتها الفـاعل فى ملابسة الفعل كما يضاهى الرجل الأسد فى جراءته فيستعار له اســـمه فيقال فى المفعول به « عيشة راضية » و « ماء دافق » ، وفى عكسه « سيل مفعم » وفى المصدر شعر شاعر ، وفى الزمان نهاره صائم وليله قائم ، وفى المكان : طريق سائر ونهر جار ، وأهل مكة يقولون صلى المقام وفى المسبب بنى الأمير المدينـــة(١) فأنت ترى أن الزمخشرى ذكر المجاز العقلى بجميع ملابساته .

واشار أيضا الى التجوز فى النسبة الإيقاعية فيقول فى قوله تعالى : « ولا تطيعوا أمر المسرفين » يقول الزمخشرى : جعل الأمر مطاعا على المجاز الحكمى والمراد الآمر .

وقد توسع الزمخشرى فى دراسة صور المجاز فى الاسناد ، وذلك لما يمليـــه عليـــه مذهبـــه الاعتزالى من قواعد وأحـكام كما فى قوله تعـالى : « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل » ولقد نزهوه حين أضـافوا اليه التفضـيل بالنعمة

---

(١) الكشاف ١/١٦١ ، ١٦٢ .

والتمتع بها ، وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبـــوار الى الكفرة ، فشرحوا الاضلال المجازى الذى أسنده الله تعالى الى ذاته فى قوله : « يضل من يشاء » ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا : « بل أنت أضللتهم » والمعنى أأنتم اوقعتموهم فى الضلال عن طريق الحق ام هم ضلوا عنه بأنفسهم .. ويقول : وفيه كسر بين لقول من يزعم أن الله يضل عباده على الحقيقة » (١) فالعلاقة المصححة للمجاز فى الاسـناد هى السببية ، لأن تمتيعهم بالنعم كان سببا فى البطر والطغيان والضلال ، فكان ينبغى أن يقابلوا هذه النعم بالشكر فتكون سببا فى الايمان والطاعة، لا سببا فى نسيان الذكر والضلال .

وتحدث عن الاستعارة فى الحرف فيقول فى قوله تعـــالى : « لعلكم تتقون » لعل واقعة فى الآية موقع المجاز لا الحقيقة ، لأن الله عز وجل خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف ، وركب فيهم العقول ، وأراد منهم الخير والتقوى فهم فى صورة المرجو منهم أن يتقوا » (٢) وفى قوله تعالى : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » يقول الزمخشرى « شبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشىء الموعى فى وعائه » (٣) فحرف الجر « فى » هنا مســـتعمل فى غير ما وضع له ، لأن ما بعدها لا يصلح أن يكون ظرفا لما قبلها لأن جذع النخل لاتصلح أن تكون ظرفا للمصلوبين ، لكن لما كانت الجـــذوع متمكنة من المصلوبين تمكن الظرف من المظروف ســاغ اســتعمالها فيه على ســبيل الاستعارة .

وأشار الزمخشرى الى الاستعارة التهكمية فيقول فى قوله تعـــالى : « انك لأنت الحليم الرشيد » أرادوا بذلك نسبته الى غاية الســـفه والغى

---

(١) الكشاف ٣/٨٤ (٢) الكشاف ١/٢٣١ .

فعكسوا ليتهكموا به » (١) يعني استعير الحلم والرشد لضدهما وهو الصفة والغواية على سبيل التهكم تنزيلا للتضاد منزلة التناسب ، ثم اشتق من الحلم والرشد : حليم بمعنى سفيه ، ورشيد بمعنى غوى على سبيل الاستعارة التبعية التهكمية .

وتحدث الزمخشرى عن الكناية والتعريض وفرق بينهما وأشار الى فائدتهما وقيمتهما الأدبية ، وهو أول من آثار موضوع ضرورة امكان المعنى الحقيقى فى طريقة الكناية ، وأول من ذكر المجاز عن الكناية .

وعرض الزمخشرى لكثير من الألوان البديعية فى الكشاف وهى عنده داخلة فى سلك النظم القرآنى كما هى عند عبد القاهر الجرجانى ، وليس كما يقول الشريف الجرجانى من المتأخرين بأنه تابع وذيل لعلمى المعانى والبيان ، وسار على نهجه بعض المحدثين .

فالألوان البديعية انما تجىء فى القرآن مطبوعة لا تكلف فيها اذهى تناسب الحال وما يقتضيه المقام .

فتحدث الزمخشرى عن المشاكلة ويسميها المقابلة أحيانا ، واللف والنشر والاستطراد ، والتفصيل ، والكلام الموجه ، والتورية ، والمقابلة والطباق والازدواج ، الجناس ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم والادماج ، والمقابلة ، وأشار الى التجريد ، والجمع مع التفريق والتقسيم والمزاوجه ، والتخلص ، وبراعة الاستهلال .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

د/ عبد الله محمد سليمان هنداوى

---

(١) الكشاف ٢/٥٤٦ .

المصادر والمراجع

١ ــ أثر النحاة في البحث البلاغي د/ عبد القادر حسين .

٢ ــ أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجاني .

٣ ــ اعجاز القرآن للباقلاني .

٤ ــ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

٥ ــ أمالي المرتضى .

٦ ــ الايضاح للخطيب القزويني .

٧ ــ البديع لابن المعتز .

٨ ــ بغية الوعاة للسيوطي .

٩ ــ البلاغة تطور وتاريخ د/ شوقي ضيف .

١٠ ــ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور / محمد أبو موسى .

١١ ــ البلاغة للمبرد .

١٢ ــ البيان والتبيين للجاحظ .

١٣ ــ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة .

١٤ ــ التبيان في علم البيان لابن الزملكاني .

١٥ ــ تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف « الجزء الثاني » للمؤلف

١٦ ــ التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور .

١٧ ــ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن للخطابي والرماني والجرجاني .

١٨ ــ الجمهرة لابن دريد .

١٩ ــ الحيوان للجاحظ .

٢٠ ــ الخصائص لابن جني .

٢١ ــ دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني .

٢٢ ــ ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي .

٢٣ ــ الرسالة العذراء لابن المدبر .

٢٤ ــ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي .

٢٥ - الشعر والشعراء لابن قتيبة .
٢٦ - الصناعتين لأبى هلال العسكرى .
٢٧ - الصواعق المرسلة لابن قيم الجوزية .
٢٨ - طبقات النحويين واللغويين للزبيدى .
٢٩ - طبقات الشعراء لابن المعتز .
٣٠ - العمدة لابن رشيق .
٣١ - الفن ومذاهبه فى النثر العربى د/شوقى ضيف .
٣٢ - قواعد الشعر لثعلب .
٣٣ - الكامل للمبرد .
٣٤ - الكتاب لسيبويه .
٣٥ - الكشاف للزمخشرى .
٣٦ - متشابه القرآن للقاضى عبد الجبار .
٣٧ - مجاز القرآن لأبى عبيدة .
٣٨ - مجالس ثعلب .
٣٩ - المحتسب لابن جنى .
٤٠ - مراتب النحويين .
٤١ - معانى القرآن للفراء .
٤٢ - معجم الأدباء لياقوت الحموى .
٤٣ - منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن للصاوى الجوينى .
٤٤ - نزهة الألباء لابن الأنبارى .
٤٥ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر .
٤٦ - الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى .
٤٧ - وفيات الأعيان لابن خلكان .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٥١٩/١٩٨٦